الطبعة الثانية

السعيد صبحي العيسوي

مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين

طبعة مزيدة ومصححة



قرأه وقدم له

الدكتور/ أحمد بن علي القرني

الشيخ/ ساعد بن عمر غازي

الدكتور/ وليد بن إدريس المنيسي

الشيخ/ سيد بن رجب



دار الميمان للنشر والتوزيع

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العيسوي، السعيد صبحي محمد

مدارج التعلم بين التأصيل واستكمال التكوين / السعيد صبحي

محمد العيسوي.- الرياض، ١٤٣٨ هـ

٣٥٠ ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-١٥-٧

١- الإسلام والعلم أ. العنوان

ديوي ٢١٩,٧ ١٤٣٨/٢٢٤٦

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٢٢٤٦

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٨١-١٥-٧

جرى تنضيد الكتاب وتجهيزه للطباعة باستخدام برنامج **أدوبي إنديزاين**، وإدراج الآيات القرآنية بالرسم العثماني وفقًا لطبعة مجمع الملك فهد الأخيرة باستخدام برنامج **«مصحف النشر للإنديزاين» (متعدد الروايات)** وهي أداة برمجية plug-ins مطورة بواسطة **شركة الدار العربية لتقنية المعلومات** *www.arabia-it.com* الرائدة في مجال البرمجيات المتقدمة لخدمة التراث الإسلامي.

الصور مرخصة قانونيًا من *www.shutterstock.com*

الخطوط وتصميم الغلاف : **دار الميمان للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى ١٤٣٨هجري - ٢٠١٧م

الطبعة الثانية ١٤٤٠هجري - ٢٠١٩م



البريد الإلكتروني: *info@daralmaiman.com*

موقعنا على الإنترنت: *www.daralmaiman.com*

تابعنا على تويتر: *@DarAlMaiman*

هاتف: +966 11 4627336

فاكس: +966 11 4612163

مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين

تأليف

السعيد صبحي العيسوي

قرأه وقدم له

الدكتور/ أحمد بن علي القرني

الشيخ/ ساعد بن عمر غازي

الدكتور/ وليد بن إدريس المنيسي

الشيخ سيد بن رجب



السعودية - الرياض



مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

الحمدُ لله وحدَه، والصَّلاة والسَّـلام على مَن لا نبيَّ بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

وبعد، فهــذه هي الطَّبعة الثانية للكتاب، بعد نَفاد الأولى في زمنٍ وجيز، والتي لم يدُر في خَلَدي أن تنالَ هذا القبول، وتنهال إثرها الرســائل والاستفسارات؛ تفاعلًا مع الكِتَاب، ومن جميل ما وقفتُ عليه توارد بعض القراء على إنهاء قراءته في يوم أو بضعة أيام، ومنهم بعض مشايخي، وأفادوني بالملاحظات حوله، ومنهم أحد الأدباء إذا رأيته مقيِّدًا على نســخته من الكتاب أنه أنهاها في نحو يوم، ووافاني بنحو أربعين موضعًا علّق عليها بقلمه، وما كنت لأصدق، لكنه وافاني بالنسخة.

فالشكر مبذولٌ لكل من تواصل معي فأفاد ونصح، أو أمدني بنقلٍ، أو سدَّ ثلمةً في النشرة الأولى، وقد ذكرت بعض هذه التنبيهات والإفادات منسوبة إلى أصحابها؛ والشــكر أيضًا لمن دلَّ على الكتاب أو سعى لإيصاله لطلاب العلم، أو نشر تعريفًا به في المواقع العنكبوتية أو البرامج التلفزيونية، فلهم دُعائي وامتناني على هذه الـمِنَن.

ومما ينبغي أن يُشار إليه هنا أمران مُهمَّان:

الأوَّل: أنــه قد وقع النقل عن بعــض مَنْ وقع له انحــرافٌ عَقَدي أو في باب التزكيــة، فلا يكونن ذلك مانعًا من الإفادة في حالــة الإجادة، خاصة في باب تأصيل التعلم وتحصيل العلوم؛ لأنه بابٌ مشاع بين عقلاء الأمم والطوائف والمذاهب، ولا

شك أنَّ التطواف بنتائج الأفكار لالتقاط فرائد القرائح، واستلال المعاني الصحيحة منها خيرٌ وحسنٌ إذا جَرَت به التَّجارب، ووضَح عليه بُرهان الحقّ.

والثَّاني: قضية الاعتياد والنشأة الأولى الخاطئة: فبعض إخواننا يرسم صورةً ذهنيةً للتعلم مغايرة للتصور الحقيقي، بل ويختطُّ طرقًا للتعلم على غير السبيل، لكنه تخيلها كذلك للإلف والاعتياد وأنه جرَّبَها!، أو أن شيخه قد سلكها فأثمرت!.

ولا شك أن إثمارها في واحدٍ لا يعني أنها صحيحة؛ فقد يقدر الله تعالى أمورًا أخرى تثبّتُهُ على صراط العلم وتقيم فهمه؛ لصدق نيَّته، أو للحاجة إليه لا لسداد منهجيته العلمية، وحدثني غير واحد ممن تخرجتُ عليهم: (تعلمنا بطريقة خاطئة، لعدم اتضاح الصورة حينها، وقلة المتمكّن الناصح)، ثم أعانهم الله فتداركوا ما فات.

وراسلني أحدهم يومًا بعد صدور النشرة الأولى من «مدارج التعلم»، قائلًا: (أنا أحد هؤلاء، ويعلم ما أحدثتْهُ [المنهجيات الخاطئة] في جيله وما أحدثتْهُ فيمن تخرَّج عليها وما زال، لقد تركتهم، وعُدت، فوجدت أن أمر الخلاص من ذلك في الأتباع أصعب).

والآن بعد اتضاح الصورة لدى كثير من المعلِّمين والمشايخ وتنبيه كثير منهم على منهجية الطلب، لا عذر لك في الشتات بحجة الاعتياد والنشأة الأولى!؛ فالاعتياد درَّاء افتتانٍ في العلم.

جديد هذه الطبعة:

١- عمل حواشٍ بها إفادات بعض أهل العلم وطلابه ممن اطَّلع على الكتاب.

٢- إضافة بعض النقل عن السَّلف.

٣- تصحيح بعض أخطاء الطبعة الأولى.

٤- إيضاح بعض المبهمات وضبط بعض الشوارد.

٥- نقل المقدمات إلى آخر الكتاب كملاحق.

فدونك يا طالب العلم!

انتفع به على قِلته، والأمر كما يقال: جهدُ المقلِّ، لا اختيار الـمُستقل، وتحفةُ الملاطف الـمُقتصد، لا هدية الـمُكاثر الـمُحتشد.

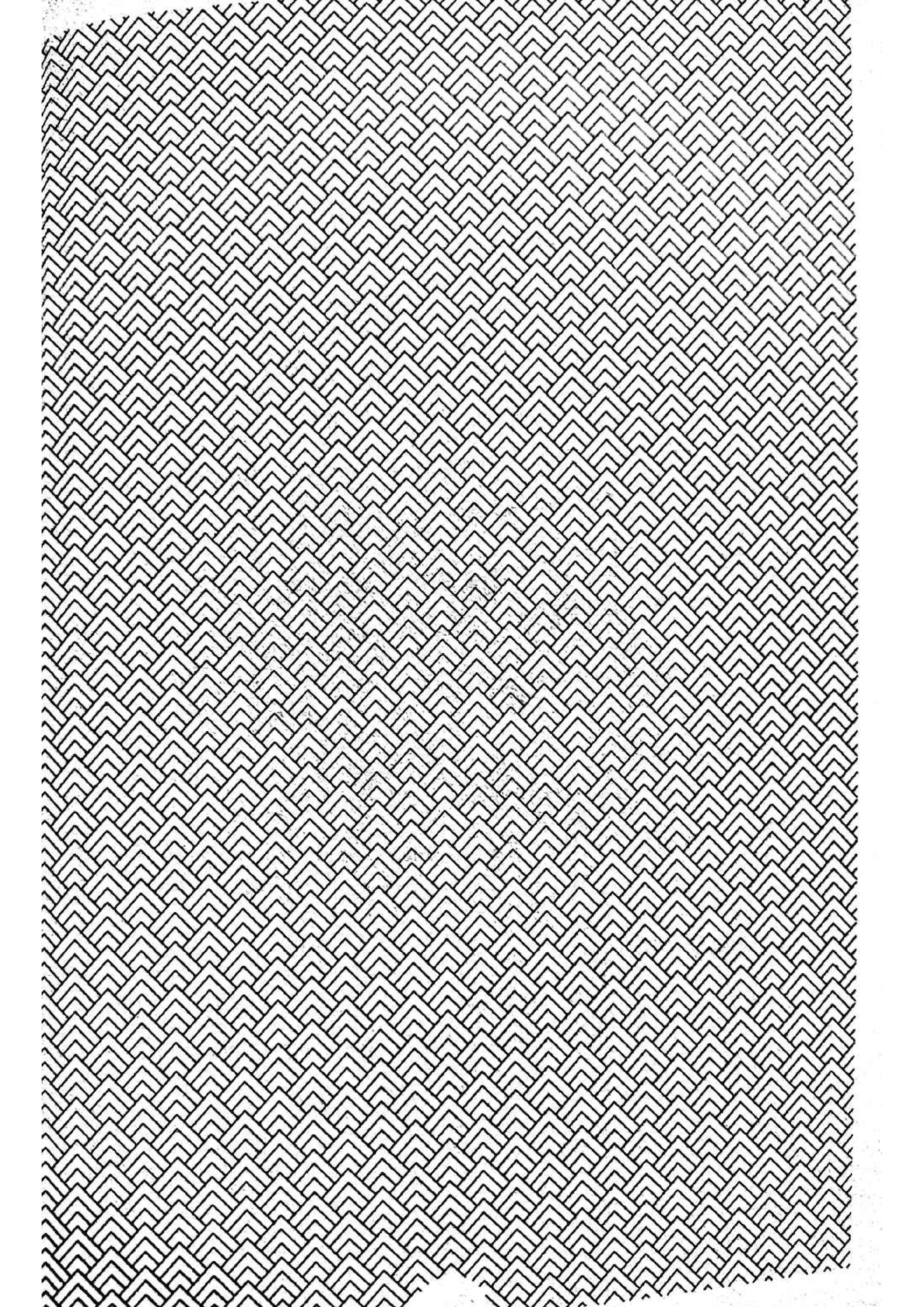
هذا، والله أسأل القبول والسَّداد، وأن يجمع بين الصَّواب والثَّواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

وكتب

السَّعيد صُبْحي العَيسَوي

مكة المكرمة

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



المُقَدِّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

أمّا بعدُ...

فهنالك جدليَّاتٌ كثيرةٌ تشغلُ الأوساطَ العلميةَ، غيرَ أنَّ إشكاليَّةَ بداياتِ التعلُّمِ باتت تشغلُ حيِّزًا كبيرًا: على مستوى تقعيدِ الأَوَّلياتِ والخُطَّةِ الترتيبيَّةِ للطالبِ.

ولا شكَّ أنَّ السببَ الرئيس في ضعفِ التحصيلِ، والتأخُّر العلميِّ هو شَتات المرحلةِ الأَوَّلية التأصِيلية، أو عدم استكمالِ التكْوِين العِلميِّ.

فكثيرٌ ممَّن انبرَى للطَّلبِ وشمَّر عن ساعدِ الجِدِّ، تأتيهم وَخزاتُ حسرةٍ عند التِفاتةِ التقييمِ؛ أسًى وحزنًا على عمرٍ مبذولٍ في حُلُمٍ كالسرابِ! فلم يجدْ علمًا يَسنُدُه عنـدَ قلمِ التحقيقِ، ولا ذهنًا وقَّادًا عندَ الاستحضارِ والتوثيقِ، وبَقِيت الإشكالاتُ القديمـةُ وجدليَّتُها وعجزُ التصوُّرِ؛ فالذِّهنُ لا زال قاصرًا.. طال اللسانُ، وضمُر الجَنانُ، والأدهى خسرانُ الأعمارِ!!

وإذا تَعدَّيْنا هذه الدائرةَ [إشكاليةَ البدءِ وتأصيلِه والاستكمال]؛ نجدُ ظاهرةَ الاحترابِ العلميِّ تُلقِي بظلالِها في دنيا الطلَّابِ، فأفسَدتْ معَها أمزجةَ بعضِ طلابِ العلمِ، فتَسرَّبتْ عبرَها مفاهيمُ قاصرةٌ حولَ حقائقِ العلمِ: فترى نشرَ الخلاف مُقدَّمًا على طيِّه، ونشرَ الاستشكالات آكدَ من دفعِه! والعلمُ في الحقيقة هو ما أخرج العبد من

دائرة الإشكال، لا ما أدخله فيها.

وكم من مُثِيرٍ للنقعِ في معارك الطلب حتى بلغ الغمام، لكنَّه عند التحقيق خاوي الوِفاضِ، لم يَغنَمْ شِبرًا في أرض العلوم، أو يكتسبْ قلمًا في تحقيق الفهوم؛ إذ لم يَنهَلْ من مَعِينِ العلم إلا ما أشعل فتيلَ المناظرةِ ونفخ كِيرَها، وأعان على دفع الخصم واغتنامِ الجولة، لا ما أفاد العبدَ وهدَى الخلق، وأقام عودَ التحقيقِ العلميِّ.

والفرق كبيرٌ جدًّا بين شحذِ آلةِ الطلبِ وسطَ دخانِ الخلافِ ومَراجِلِه، وبين مَن طلبُه في محرابِ التَّعلمِ وقد شحَن أنفاسَه بنسماتِ الهدى.

ومن إفرازاتِ الواقعِ: عبورُ لعبةِ التسطيحِ الفكريِّ وسفسطةِ التحليلِ السياسيِّ إلى مدارجِ التعلمِ؛ فجلَبتْ عليهم السياسةُ بخَيلِها ورَجِلِها، فمَن لم يَخُضْ فيها فهو يتابعُها ويتلمسُ أخبارَها، فقُدِّمتْ أنديتُها على محاريبِ التَّعلمِ، حتى كاد يَخفِتُ صوتُ العلمِ في ضوضائِها، فجالَتْ أحلامُهم في بيداءِ الأوهامِ ومتاهاتِ الأفكار!

قضايا كثيرةٌ، ومسائلُ تتشابكُ فروعُها، تُشكِّلُ في مُجملِها مادةَ هذه الأوراق، وتُقدِّمُ إفادةً تصحيحيةً متواضعةً، وعلاجًا لبعضِ ما تمَّ رصدُه، مِثلُ موضوعِ: اكتفاءِ الطالبِ بالمرحلةِ التأصيليةِ دونَ استكمالِ التكوينِ، أو بهما دونَ ثُقلةِ العالِمِيةِ: (البحثِ العلميِّ). وكذلك موضوعُ التدرُّجِ التحصيليِّ، وما شابه من فكرٍ خاطئ؛ كإلباسِ العجزِ ثوبَ الحكمة والأناة. وكذلك قضيةُ صناعةِ الذِّهنيةِ العلميةِ للطالبِ، وبعضِ تطبيقاتِها على الطالبِ، ومحاولةِ معالجةِ أمر المهارات الذهنية الواجبِ اكتسابُها، وسُبُلِ تنميتِها.

وكانت تسميتُه بـ «مَدَارِجِ التَّعلُّمِ بينَ التَّأصيلِ واستِكمالِ التكوينِ»، تنبيهًا على المسالكِ التي يَترقَّى فيها الطالبُ. ولمَّا كان التركيزُ على مرحلتَي: (التَّأصيل)، و(استكمال التكوين) - كان التنصيصُ عليهما؛ ليعلمَ المُطَّلِعُ أنَّ حقيقةَ العلمِ تنسبكُ

بهما، خاصة إذا ما أعين الطالب بذهنٍ مُتقدٍ بحّاثٍ، فإنْ فاته إدراكُ لُبّ الكتاب؛ فلعلّه أن يستفيدَ رُوحَه من العنوان.

ولا يدّعي جامعُ هذه الأوراق بلوغَ التمام فيما أراد الكتابة عنه؛ فقصارى الأمر: أني دوّنتُ ما لابستُ من أخطاءٍ باشرتُها أنا أو بعضُ إخواني من طلابِ العلم، قلّبتُ هذه الأوراقَ، ودوّنتُ ما عَلِق في ذهني حولَها من خواطرَ عقدًا من الزمان، فاليومَ أقدّمُها أوراقًا سهلةَ الاختتام، تحملُ -فيما أزعم- إفادةً ونصيحةً لعلّها تفتحُ بابَ خيرٍ، وتَسُدُّ بابَ تضييع.

وفي هذا المقامِ كان لا بدَّ من إسداءِ الشكرِ للذويه من مشايخي وطلابِ العلم وإخواني ممن أفادَني في هذا الكتابِ أو اطلعَ عليه أو قرأ بعضه، وأخصُّ بالشكرِ الجزيلِ شيخنا أبا عمر ساعد غازي، والشيخَ الدكتور أحمد بن علي القرني، والشيخَ الدكتور وليد المنيسي، والشيخ سيد رجب، والشيخ الدكتور محمد بكر حبيب، والشيخ عبد المنعم مطاوع، والشيخ الدكتور عبد الله الغفيلي، والشيخ الدكتور عبد الله السيف، والشيخ خالد بن زيد العميقان، والدكتور سليمان الميمان، وأخي الدكتور شكري محسن، والشيخ محمود الصاوي، والشيخ محمد حامد أبو المجد، والشيخ إبراهيم عيسى، والأخ الشيخ مصطفى عبد الحفيظ، وغيرهم، فأشكر لهم صنيعهم.

هذا، واللهَ تعالى أسألُ التوفيقَ والسّدادَ، وأن يضعَ له القَبولَ.

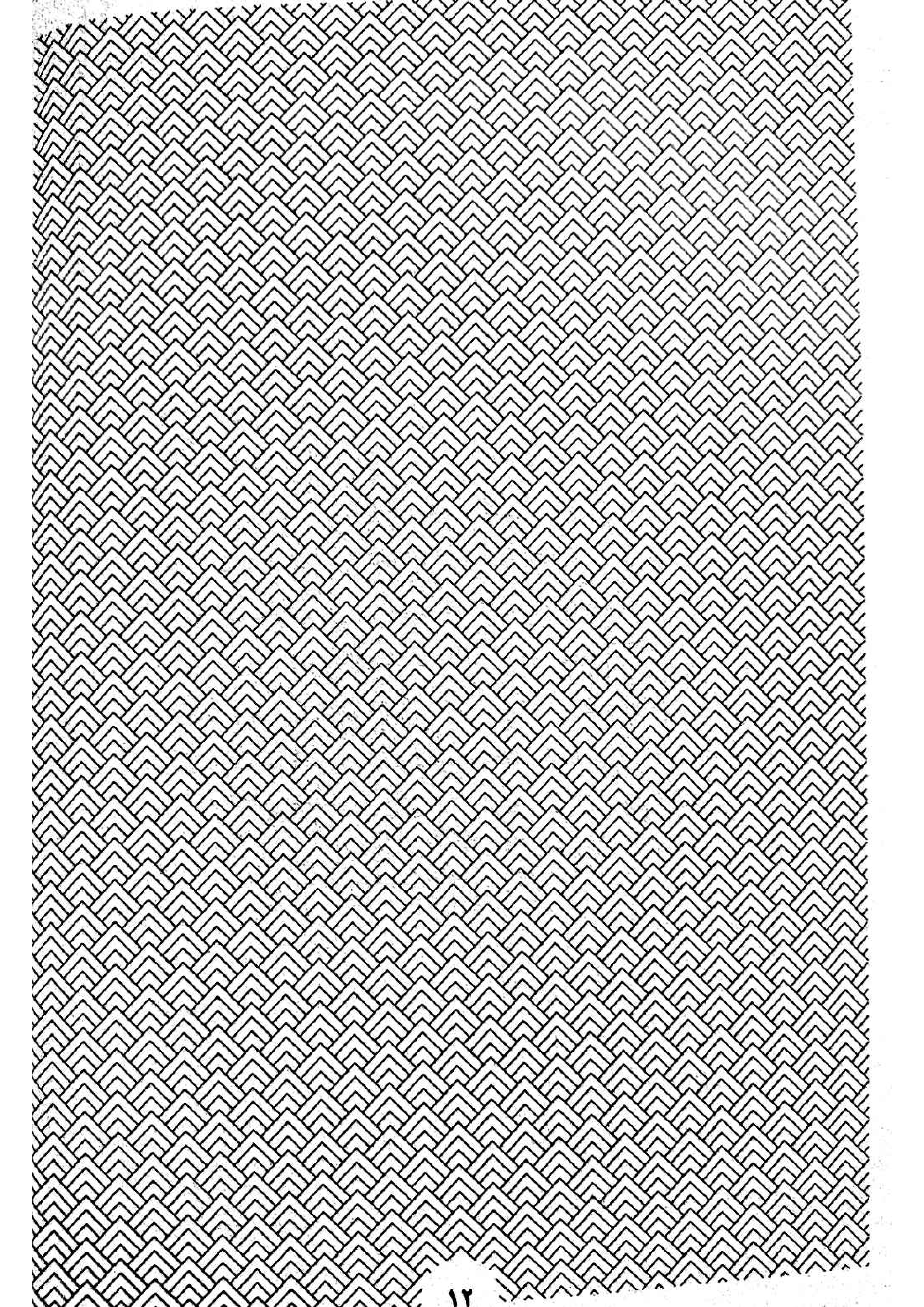
كتبه

السّعيد صُبْحِي العِيسَوِي

Esawi.said@gmail.com

@esawi_said

مكّة المُكرّمة/ ١٤٣٨هـ



حقائقُ العلمِ

فكم مِن مُتعلِّمٍ طال تَعلُّمُه ولم يَقدِرْ على مُجاوَزةِ مســموعِه بكلمة، وكم مِن مُقتصِرٍ على المُهِمّ فــي التَّعلُّم، ومُتوفِّرٍ على العملِ ومُراقَبــةِ القلب، فتَح اللهُ له مِن لطائفِ الحكمةِ ما تَحارُ فيه عقولُ ذوي الألباب!

أبو حامد الغزاليُّ رحمه اللهُ

العلمُ معنًى جميلٌ مشـرقٌ، طلبُه مأمورٌ به، والساعي لنيلِه وتحصيلِه ممدوحٌ شـرعًا، مُثابٌ على الكدِّ في تعلُّمِه. غيرَ أنه ليـس كلُّ علمٍ منعوتًا بهذا الوصفِ، فمِن العلومِ ما يُثابُ طالبُها، وتَحِلُّ مُذاكَرتُها تسـبيحًا وذِكرًا، ومنها ما يجرُّ الآثامَ، ويُفرِّقُ الأنامَ، ويسـتحقُّ طالبُها وناشـرُها العتابَ والملامَ، ومنها قِسـمٌ ثالثٌ في منزلةٍ بينَ المنزلتينِ، باقٍ على أصلِ الإباحةِ، تُحرِّكُه النيَّةُ والمنفعةُ بينَ الطرفينِ.

وعليه، فإن إظهارَ حقائقِ العلمِ وسَنَنِ إدراكِه، وكشفَ أستارِ التراكيبِ المتواترةِ والظُّنونِ المتوهَّمةِ من أَوْلى المُهمَّاتِ.

فالنافعُ منه: ما دلَّ على طاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، وصدَّ عن المعصيةِ، وثبَّت العبدَ أمامَ الفِتنِ والشهواتِ، وأعانَ على الطاعةِ. ومَن تأمَّل نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ وعباراتِ السلفِ في كلامِهم عن العلمِ = عَلِم أنَّ مدارَ كلامِهم حولَ هذه المعاني العظامِ.

فحقيقةُ العلمِ تدورُ حولَ:

١- الإعانةِ على طاعةِ اللهِ ورسولِه ﷺ، واجتنابِ المعصيةِ.

٢- تثبيتِ العبدِ أمامَ طوفانِ الفتنِ والشُّبهاتِ.

فوجهُ الأولِ منهما: ما ذكَره الإمامُ الشـاطبيُّ -رحمه اللهُ- مُبيِّنًا حقيقةَ العلمِ، فقال: (التعبُّـدُ للهِ هو المقصودُ من العلمِ، والآياتُ في هذا المعنى لا تُحصَى؛ فرُوحُ العلـمِ هو العملُ، وإلا فالعلمُ عاريةٌ وغيرُ مُنتفَعٍ به! فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآيةَ [الزُّمَر: ٩]... وكلُّ ذلك يُحقِّقُ أنَّ العلمَ وسيلةٌ من الوسائلِ ليس مقصودًا لنفسِه من حيثُ النَّظرُ الشَّرعيُّ، وإنَّما هو وسيلةٌ إلى العملِ، وكلُّ ما ورد في فضلِ العلمِ فإنَّما هو ثابتٌ للعلمِ من جهةِ ما هو مُكلَّفٌ بالعملِ به)[1].

ووجـهُ الثاني [أي تثبيتِ العبدِ أمامَ طوفانِ الفتنِ والشُّـبهاتِ]: ما ذكَره الإمامُ ابنُ القيِّـمِ -رحمه اللهُ- مُبيِّنًا كونَ العلـمِ حافظًا للقلبِ من لَوْثةِ الشُّـبهاتِ، فقال: (هذا لضعفِ علمِه وقِلَّةِ بصيرتِه، إذا ورَدتْ على قلبِه أدنى شُـبهةٍ؛ قدَحتْ فيه الشكَّ والرَّيبَ! بخلافِ الراسـخِ في العلمِ، لو ورَدتْ عليه من الشُّـبَهِ بعـددِ أمواجِ البحرِ؛ ما أزالتْ يقينَه، ولا قدَحتْ فيه شـكًّا؛ لأنَّه قد رسَخ في العلمِ، فلا تستفِزُّه الشبهاتُ، بل إذا ورَدتْ عليه؛ ردَّها حرسُ العلمِ وجيشُه مغلولةً مغلوبةً.

والشـبهةُ واردٌ يَرِدُ على القلبِ، يحولُ بينَه وبينَ انكشافِ الحقِّ له، فمتى باشر القلبُ حقيقةَ العلمِ؛ لم تُؤثِّرْ تلك الشـبهةُ فيه، بل يَقوَى علمُـه ويقينُه بردِّها ومعرفةِ بُطلانِها، ومتى لم يباشِـرْ حقيقةَ العلمِ بالحقِّ قلبُه؛ قدَحتْ فيه الشكَّ بأوَّلِ وهْلةٍ، فإنْ تدارَكَها وإلَّا تتابَعتْ على قلبِه أمثالُها حتى يصيرَ شاكًّا مُرتابًا)[2].

فهذا هو العلمُ النافعُ إذَنْ، وهو الذي يلتذُّ به حاملُه، وتَقَرُّ عينُه بمُذاكَرتِه وطلبِه، بل قال شـيخُ الإسـلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (لذَّةُ العلمِ أعظمُ اللَّذَّاتِ)[3]. وعبَّر عن ذلك المُناويُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (طالبُ العلمِ المُتلذِّذُ بفهمِه، لا يزالُ يطلبُ ما يزيدُ التِذاذَه، فكُلَّما طلَب ازداد لذةً، فهو يطلبُ نهايةَ اللَّذَّةِ ولا نهايةَ لها)[4].

---

(١) «الموافقات» ٢/ ٧٥-٨٣ باختصارٍ وتَصرُّفٍ يسيرٍ.

(٢) «مِفتاح دار السعادة» ١/ ٣٩٤.

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٤/ ١٦٢.

(٤) «فيض القدير» ١/ ١٦٣.

وإذا كانت في العلمِ (لذّةٌ)؛ فإنَّ فيه (راحةً) أيضًا، ووجهُ ذلك: ما نقَل أبو الرَّيحانِ البِيرُونيُّ -رحمه اللهُ- عن بعضِ حكماءِ الهندِ، قولَه: (لأنَّ بالعلمِ استئصالَ الجهلِ، واستبدالَ اليقينِ بالشَّكِّ الذي هو مادّةُ العذابِ؛ فلا راحةَ لشاكٍّ)[1].

لكنَّ هذه اللَّذَّةَ والراحةَ لا تُنالُ إلا بعدَ جهدٍ ومشقةٍ في أولِ الطلبِ؛ ليُنفَى عن حِمَى العلمِ كلُّ مُبطِلٍ ودَعِيٍّ. يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: (وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخلقِ عن اكتسابِ هذه السعادةِ وتحصيلِها؛ لوعورةِ طريقِها، ومرارةِ مَبادِيها، وتعبِ تحصيلِها، وأنَّها لا تُنالُ إلا على جسرٍ من التعبِ؛ فإنَّها لا تُحصَّلُ إلا بالجِدِّ المحضِ، وأمَّا سعادةُ العلمِ فلا يُورِثُكَ إيَّاها إلا بذلُ الوُسعِ، وصدقُ الطلبِ، وصحةُ النيةِ.

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحلاوةِ هذه اللذةِ وعِظَمِ قدرِها؛ لَتجالَدوا عليها بالسُّيوفِ! ولكنْ حُفَّتْ بحجابٍ من المكارهِ، وحُجِبوا عنها بحجابٍ من الجهلِ؛ ليَختصَّ اللهُ بها مَن يشاءُ مِن عبادِه، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ)[2].

---

(1) «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» ص٥٧.

(2) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٢٩٤-٢٩٨ باختصار.

قانونُ الرّعايةِ

(العلمُ للرّعايةِ، لا محضِ الرّوايةِ) قانــونٌ يُعنَى بتصحيحِ المَقصَدِ والغرضِ، وفيــه التنبيهُ على العملِ به، والحثُّ على اســتعمالِه، فآلَ إلى (تنبيــهٍ)، و (احترازٍ)، و(تحذيرٍ).

فالتنبيهُ: إنَّما هو على الغايةِ من طلبِه والتِماسِــه، وهو العملُ والرعايةُ وظهورُ الأثرِ، لا جمعُ المعلوماتِ.

والاحترازُ: إنَّما هو عن تجميدِ مســائلِه وقواعدِه، بعدمِ استعمالِها، أو دعوى عدمِ الإنتاجِ.

وأمَّا التحذيرُ: فإنَّما هو من تمحيضِه في الروايةِ والنقلِ والإجازاتِ المُعاصِرةِ وبذلِ الوقتِ فيها والإغراقِ في أسانيدِ المُعاصِرينَ، دونَ الدِّرايةِ والعملِ.

ويجمعُ ما ســبَقَ قولُ الخوَّاصِ رحمه اللهُ: (ليس العلــمُ بكثرةِ الروايةِ، وإنَّما العالمُ مَن اتَّبَع العلمَ واستَعمَله، واقتدَى بالسُّننِ، وإنْ كان قليلَ العلمِ)[1].

نصيحــةٌ مُشــعِرةٌ بحقيقةِ العلــمِ، وأنَّه ليس بــكلامٍ تتناقلُه الشِّــفاهُ والآذانُ، أو استكثارٌ بلا أثرٍ، فهو علمٌ وعملٌ، ونورٌ يضعُه اللهُ في قلبِ المتعلِّمِ.

قال ابنُ وهبٍ رحمه اللهُ: وســمعتُ مالكًا -رحمــه اللهُ- يقولُ: (ليس العلمُ

(١) «طبقات الأولياء» لابن الملقن، ص١٧.

بكثرةِ الروايةِ، إنَّما العلمُ نورٌ يجعلُهُ اللهُ في القلبِ)[1].

قال سفيانُ الثوريُّ رحمه اللهُ: (ليس طلبُ العلمِ: «فلانٌ عن فلانٍ»، إنَّما طلبُ العلمِ الخشيةُ للهِ عزَّ وجلَّ).

فالاستكثارُ من الإجازاتِ، وتَتبُّعُ أسانيدِ المُتأخِّرين بعدَ عصرِ الروايةِ، والاشتغال بها ذروة سنام العمر، وعلى حسابِ التحصيلِ = خارجٌ عن ماهيَّةِ العلمِ، دخيلٌ على حقيقتِه، بل هي (الفاتورةُ) سيدفعُها الطالبُ من أركانِ بنيانِه العلميِّ، وقد وُجِد من الطلابِ مَن يجعلُها قسيمًا للتعلُّمِ والتفقُّهِ والقرآنِ! ويُنزِلُها منزلةَ العلمِ الواجبِ تعلُّمُه!!

نعمْ، لها فوائدُ؛ كجردِ الكتبِ، والاطِّلاعِ على علوم السلف، والإحاطةِ والإلمامِ بالكتبِ المُسنَدةِ وغيرِها، لكنَّها حَيدةٌ عن حقيقةِ الملائم له في مرحلته العلمية، وما يُناسبُه من كتب نُصِبت لتأهيل المتعلمين، وبذلٌ للأوقات في تتبُّعِ مُسنِدينَ -وقد يكونون أطفالًا، أو طاعنين في السِّنِّ ومُختلِطين، أو عوامَّ- لا فقهاء راسخين. وقد يكونُ المدفوعُ إليها دونَ ترقٍّ في مدارجِ العِلم التأصيليِّ المنهجيِّ مصروفًا عن كثيرٍ من الخيرِ.

يقولُ الفقيهُ أبو الوليدِ ابنُ رشدٍ (ت ٥٢٠) رحمه اللهُ: (ومَن اشتغَل بروايةِ الأحاديثِ عن التفقُّهِ فيها، ومعرفةِ ما عليه العملُ منها؛ فما وُفِّق لما له الحظُّ فيه. وقد قال مالكٌ رحمه اللهُ: العلمُ الذي هو العلمُ: معرفةُ السُّنَنِ، والأمرُ المعروفُ الماضي المعمولُ به)[2].

وهنا يحسنُ إيرادُ هذه الأبياتِ التي تحكي واقعَ مَن تعلَّق بقشورٍ ومُلَحِ العلمِ، ففوَّت مَقصَدَ العلمِ الأعظمَ، وانشغل بالروايةِ والسَّماعِ على حسابِ التفقُّهِ والعملِ

(١) «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي، ١/ ١٠٠.

(٢) «البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المُستخرَجة» ١٨/ ٥٢٣.

به[1]:

وَمُحدِّثٌ قد صار غايةَ علمه ... أجزاءُ يَرْوِيها عَنِ الدِّمْياطِي

وفُلانةٌ تَــروِي حديثًا عاليًا ... وفُلانُ يَروِي ذاكَ عن أسْبَاطِ

والفَرْقُ بينَ غَرِيبِهم وعَزيزِهِمْ ... والفَصْخ عن الخَيّاطِ والحَنّاطِ

وأبو فُلَان، ما اسْمُه؟ ومَنِ الَّذِي ... بينَ الأنـامِ مُلقَّبٌ بِسُـنَاطِ

وعُلُومُ دِينِ اللَّهِ نَادَتْ جَهْرَةً ... هـذا زمانٌ فيه طَيُّ بِسَـاطِ

يقولُ السُّيوطيُّ رحمه اللهُ: (وإنَّما كان السلفُ يسمعون، فيقرءون، فيرحلون، فيُفسِّـرون، ويحفظون فيعملون. ورأيتُ من كلامِ شـيخِنا الذهبيِّ -رحمه اللهُ- في وصيَّةٍ لبعضِ المُحدِّثينَ في هذه الطائفةِ: «ما حظُّ واحدٍ من هؤلاءِ إلَّا أن يسمعَ ليرويَ فقط، فَلَيُعاقَبَنَّ بنقيضِ قصدِه، وَلَيُشْـهَرَنَّه اللهُ بعدَ سـترِه مـرَّاتٍ، وليَبقَيَنَّ مُضْغةً في الألسنِ، وعِبرةً بينَ المُحدِّثينَ، ثم ليَطبَعَنَّ اللهُ على قلبِه»)[2].

***

وأما اسـتعمال العلم ففيه التنبيه على آفةٍ دبَّت واستَشْرتْ في الآونةِ الأخيرةِ، وهي: انفصالُ المتعلِّمِ بينَ ما درَج عليه دراسـةً وتقريرًا، وبينَ وَعْيِ ذلك في التطبيقِ العمليِّ والواقعِ بحثًا ومُناظَرةً.

ومِن أجملِ ما تقرؤُه في ذكرِ مَن هذا حالُه: ما سطَره الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ، إذْ يقولُ:

(فوَارَحمتَا لعبدٍ شَـقِي في طلبِ العلمِ، واستَفرَغ فيه قُواه، واستَنفَد فيه أوقاتَه،

(١) «تدريب الراوي» ١/ ٥١

(٢) «تدريب الراوي» ١/ ٥٠ باختصارٍ.

وأثره على ما الناسُ فيه، والطريقُ بينَه وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ مسدودٌ، وقلبُه عن المُرسِلِ -سبحانه وتعالى- وتوحيدِه، والإنابةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، والتنعُّمِ بحُبِّه، والسرورِ بقُربِه = مطرودٌ ومصدودٌ! قد طاف عمرَه كلَّه على أبوابِ المذاهبِ، فلم يَفُزْ إلا بأخسِّ المطالبِ.

إنْ هي -واللهِ- إلَّا فتنةٌ أعمَتِ القلوبَ عن مواقعِ رشدِها، وحيَّرتِ العقولَ عن طرقِ قصدِها. تربَّى فيه الصغيرُ، وهَرِم عليه الكبيرُ؛ فظنَّتْ خفافيشُ الأبصارِ أنَّها الغايةُ التي تَسابَقَ إليها المتسابقون، والنهايةُ التي تنافَس فيها المتنافسون)[1].

أنواعُ الرِّعايةِ:

تلخَّص ممَّا سبَق أنَّ طالبَ العلمِ مُفتقِرٌ إلى رعايتينِ:

- رعايةُ العملِ.
- رعايةُ استعمالِ مادَّةِ العلمِ.

الأولى: رعايةُ العملِ بالعلمِ (الحِسُّ العِباديُّ):

لمَّا كان شأنُ العلمِ عظيمًا، ومحلُّه المحلَّ الأوفى، ولأصحابِه القِدْحُ المُعلَّى = كان الأَوْلى لمَن سعى لدَرْكِه وتحصيلِه أن يتحلى بأجملِ لَبُوسٍ؛ سعيًا لرضا اللهِ تعالى، وتصفيةً من أخلاطِ النفوسِ. وخيرُ مَن تمثَّل هذا مُرتقو المدارجِ وطلابُ العلومِ، إنه: لِباسُ العملِ. فمَن فقَده كان خليقًا بالقَدْحِ، وكانتْ معارفُه وبالًا وحُجَّةً.

يا طالبَ الرُّقيِّ و (المدارجِ):

أين أنتَ مِن حُلَى الفقهاءِ؟

(1) «اجتماع الجيوش الإسلامية» ٢/ ٩٠- ٩٣، باختصارٍ.

وأين أنتَ وامتزاجُ أنفاسِكَ بحرارةِ أنفاسِ العُبَّادِ؟

أكثَـرتَ مِن ذكرِ الأئمةِ في محرابِ العلمِ والفقهِ؛ فأين التَّطوافُ في سِـيَرِهم، والكشفُ عن مُخبَّئاتِ أحوالِهم في محاريبِ العملِ والعبادةِ؟!

وهل كانت المكارمُ والفضائلُ ممدوحـةً إلا لكونِها تُروِّضُ القلوبَ، وتَحُثُّ العبدَ على الإقبالِ على اللهِ؟!

يقول شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فالعبادةُ تُرقِّقُ القلبَ، وإذا كان القلبُ رقيقًا ليِّنًا؛ كان قَبولُه للعلمِ سـهلًا يسيرًا، ورسَخ العلمُ فيه وثبَت وأثر. وإذا كان قاسيًا غليظًا؛ كان قبولُه للعلمِ صعبًا عسيرًا، ولا بدَّ معَ ذلك أن يكونَ زكيًّا صافيًا سليمًا، حتى يزكوَ فيه العلمُ، ويثمرَ فيه ثمرًا طيِّبًا)[1].

وقد أشار إلى قريبٍ من ذلك أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه اللهُ، حيثُ يقولُ: (فكم مِن مُتعلِّمٍ طال تَعلُّمُه ولم يَقدِرْ على مُجاوَزةِ مسـموعِه بكلمةٍ، وكم مِن مُقتصِرٍ على المُهِـمِّ في التَّعلُّمِ، ومُتوفِّرٍ على العملِ ومُراقَبةِ القلبِ، فتَح اللهُ له مِن لطائفِ الحكمةِ ما تَحارُ فيه عقولُ ذوي الألبابِ!)[2].

فكم مِن عُراةٍ عن العملِ باطنًا قد التَحَفوا بثيابِ الطلبِ ظاهرًا، فصاروا أشباحًا لا رُوحَ فيها؛ لخُلُوِّها عن المعنى والحقيقةِ والانسـجامِ معَ النفسِ، ففي أعيُنِهم تَبرُقُ دعـوى التناقضِ جليَّةً، وتجرُّ إلى النَّيلِ من الشـريعةِ المُحمَّديَّةِ؛ فهو حاثٌّ بلسـانِه ومَظهرِه، صادٌّ بقلبِه وباطنِه، فحالُه ككاسـيةٍ عاريةٍ؛ إذ لم يسـترْ عملُه تنظيرَه وعلمَه، وما معارفُه وعلومُه عندَ مِسْـبارِ التحقيقِ إلا ورمٌ لا لحمَ فيه، وأمَّا وعظُه ونصحُه فهو ظاهرةٌ صوتيةٌ!

(١) «مجموع الفتاوى» ٩/ ٣١٥ بتصرُّفٍ يسيرٍ.
(٢) «إحياء علوم الدين» ص٨٥.

ولعلَّ هــذه التذكرةَ تكونُ مِهمازًا لمَــن كان فقيهًا في غيرِ بــابِ العملِ، كما عبَّر الإمــامُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- عن ذلك بقولِه: (فمِــن الناسِ مَن تكونُ له القوةُ العلميةُ، الكاشِـفةُ عن الطريقِ ومنازلِها وأعلامِها وعوارضِها ومعاثرِها، وتكونُ هذه القوةُ أغلــبَ القُوَّتينِ عليه، ويكونُ ضعيفًا في القوةِ العمليةِ؛ يُبصِرُ الحقائقَ ولا يعملُ بمُوجَبِهــا، ويرى المَتالِفَ والمخاوفَ والمعاطبَ ولا يَتوقَّاها! فهو فقيهٌ ما لم يَحضُرِ العمل، فإذا حضَر العملُ؛ شــارَكَ الجُهَّالَ في التَّخلُّف، وفارَقهم في العلم، وهذا هو الغالبُ على أكثرِ النفوسِ المُشتغِلةِ بالعلم)[1].

ولا يزالُ قانــونُ (العِلم للرِّعايةِ) حاضرًا بمعناه ولُبِّــه لا حرفِه ونصِّه؛ فالعلمُ وسيلةٌ إلى العملِ، وقائدٌ إلى عبوديةِ ربِّ العالمين سبحانَه. ومِن هديِ الصحابةِ: أنَّهم كانوا يتعلَّمون عشرَ آياتٍ، ثمَّ يعملون بها، فيتعلمون العلمَ والعملَ معًا.

فقانونُ أهلِ الإســلامِ وشِــعارُهم ودِثارُهــم على هذا، ولم تظهــرِ المُناقَضةُ والمُفاصَلةُ بينَ العلمِ والرِّعايةِ إلا مِن مُقصِّرٍ، أو مُبتلًى بوصفِ النِّفاقِ، مُظهِرًا الإسلامَ ومُبطِنًا الكفرَ.

ويظهــرُ هذا الانفصالُ جليًّا في مَن تأثَّر بمذاهبِ الفلاسِــفةِ الذين يَرَوْنَ كمالَ العبدِ في القوةِ العلميةِ[2] دونَ القوةِ العمليةِ، أو مَن يرى أنَّ العباداتِ إنَّما جاءتْ لغايةٍ متى حصَلتْ سـقَط طلبُ العبادةِ؛ كعدمِ المطالبةِ بالصلاةِ لمَن كان تاركًا للفحشـاءِ والمنكرِ! ويُلحَقُ بهم بعضُ غلاةِ الصوفيةِ ممَّن يجعلُ العبادةَ مرحلةً للســالكِ إلى أن يصلَ لرُتبةِ اليقينِ!

فأصلُ دينِ المســلمين: أن يُكمِّلَ العبدُ القوةَ العلميــةَ النظريةَ، والقوةَ العمليةَ الإراديةَ، لا ينفصلانِ، ولا يرتفعانِ.

---

(١) «طريق الهجرتين» ١/ ٤٠٠.

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ٩/ ١٣٦.

يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ: (ولزَكاءِ العلمِ ونُمُوِّه طريقانِ:

أحدُهما: تعليمُه.

والثاني: العملُ به؛ فإنَّ العمـلَ به أيضًا يُنمِّيه ويُكثِّرُه، ويفتحُ لصاحبِه أبوابَه وخباياه؛ وهذا لأنَّ تعليمَه والعمـلَ به هو التجارةُ فيه، فكما ينمو المالُ بالتجارةِ فيه، كذلك العلمُ)[1].

الثانيةُ: رعايةُ الاستعمالِ لمادةِ العلمِ (الحِسُّ الاجتهاديُّ):

استعمالُ مادةِ العلمِ وقواعدِه بأدواتِه في المسـائلِ والنـوازلِ = غايةُ العلمِ، ومَقصَدُه الأعظمُ. وإلَّا فلا فائدةَ تُذكَرُ من حفظِ القواعدِ ودَرْسِـها، والعناءِ في فهمِها إلا استعمالَها؛ لذا كان هذا الانفصالُ علامةً على ضعفِ المادةِ، أو ذهولًا عن غايتِها.

وذكـر القاضي زينُ الدين السَّـاويُّ (ت نحو ٤٥٠) رحمـه الله، أن حصول الفائدة من العلم مُرتَـهَنٌ بارتياض قواعده؛ باستعمال القوانين المتعلمة فيه، وقال: (وأمَّا معرفتُها دونَ تعوُّدِ استعمالِها والارتياضِ بها؛ فقليلةُ الغناءِ والفائدةِ)[2].

تبرزُ أهميةُ مراعاةِ استعمالِ العلمِ وقانونِه من خلالِ عدَّةِ أمثلةٍ، منها:

١- عندَ ورودِ الشُّبهةِ وطغيانِ التحوُّلِ:

ففي زمنٍ كثُرتْ فيه (التحـوُّلاتُ الفِكْريةُ)، و(المُراجَعاتُ) غيرُ المُنضبِطةِ = هُوِّنتِ (الانتكاساتُ) عن الحقِّ، وكُسِيتْ بعباراتٍ لتنالَ قبولًا، بل تسلَّق هذا الهَوَسُ إلى عقولِ طلابِ العلمِ وحامليه، فبِتَّ ترى مَن يخالفُ قانونَ العلمِ، وأصولَ السَّلفِ التي درَج عليها وقرأها؛ لشُـبهةٍ طارئةٍ، وفكرةٍ عابرةٍ من مُلبِّسٍ في فضائيَّةٍ، أو مُتشيِّخ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٣٦٤.

(٢) «البصائر النصيرية في علم المنطق» ص٥.

صحفيٌّ أو (تواصليٌّ)!

هنا يجبُ استعمالُ العلمِ المحفوظِ والمَتلُوِّ في الكتبِ بفهمٍ، ولا يعني هذا أن يصيرَ آلةً جامدةً لا تنفعُ عندَ ورودِ الشبهةِ، بل المطلوبُ: إحسانُ قراءةِ الكتبِ وفهمِها، واستخراجُ الصحيحِ منها، وتنزيلُها على الواقعِ، معَ تحرٍّ للصوابِ.

٢- عندَ (إعدادِ) و (سلوكِ) المنهجِ العلميِّ التأصيليِّ:

فقد وُجد النكِير على الدعوةِ إلى التأصيلِ العلميِّ، وسلوكِ الطلبةِ لمسلكِ الترقِّي في مدارجِ العلمِ. وقد تَسربَلَ هذا الإنكارُ بزعمِ عدمِ مُوافَقةِ مجاري العصرِ في مادتِه المطروحةِ! فكانَ مِن شأنهم أنْ دلُّوا الناشِئةَ على أفكارٍ تنأى بهم إلى وادٍ مغايرٍ لحقيقة السَّيْرِ في العلم وتحمُّلِه؛ فاستبدلوا كتب السياسة والفكر بكتب الجادة التأصيلية، والتي هي بعيدةٌ عن الجادَّةِ المسلوكة للتعلم الشرعي، والتي هي أشبهُ بمادةِ صُنعِ مُفكِّرينَ وساسةٍ، لا علماءَ فقهاءَ، يحملون الخيرَ والهُدى، ويُقصَدون لهدايةِ الناسِ ودَلالتِهم على السبيلِ.

يُنكِرونها معَ علمِهم بكونِها الجادَّةَ التي سار عليها العلماءُ جيلًا فجيلًا، واتَّفقوا عليها جملةً، وتَشبَّعوا بها، وعبر مناهجها استَحَقُّوا وسمَ العالِميةِ بجدارةٍ.

فهنا يأتي الثباتُ في قمعِ النُّزوعِ إلى الانفلاتِ من ترقِّي المدارجِ، إلى المُجاراةِ العصريةِ للسياسةِ وأهلِها.

إنَّ إبعادَ الناسِ عن الترقِّي في مدارج العلم، وشَغْلَ أفكارهم بمناكفة الواقع بالتنازل عن بعض الثوابت، وتزهيدَهم بأهواءٍ مزعومةٍ = لَهُو أشدُّها خطرًا وإفسادًا! وهؤلاءِ نُوَّابُ إبليس في الحقيقةِ، كما سمَّاهم الإمامُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- إذ يقولُ: (نُوَّابُ إبليسَ في الأرضِ، وهم الذين يُثبِّطون الناسَ عن طلبِ العلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ)[١].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» ١/ ٤٥٦.

٣- عندَ تنزيلِ الأحكامِ الشرعيةِ:

تنزيـلُ الأحكامِ الشـرعيةِ على الواقـعِ، أو تحقيقُ المَنـاطِ = مضمارُ العلمِ الأرحـب وبابُه الأهم لمن بلغ رتبة الاجتهاد فيه؛ إذْ لا فائدةَ للعلمِ إلا كونُه هاديًا لهم إلـى معرفةِ دين الله وأحكامِه في حياتِهم ومعاملاتِهـم؛ فيأتي تنزيلُ الأحكامِ بقانونِ العلمِ لا قانونِ الهوى، وبسلطانِ الدليلِ لا سلطانِ العاطفةِ.

فهذه المواردُ الآنِفةُ الذِّكرِ تُبرِزُ أهميةَ العلمِ في واقعِ الناسِ، وتُوضِّحُ أهميةَ الثباتِ. وما لم يُستعمَلِ العلمُ عند حلول الشبهات والشهوات، والتعليم والدعوة، وتنزيل الأحكام على واقع الناس لمن بلغ رتبة ذلك، ومدافعة الباطل، وقمع البدع ونشـر السـنن؛ فهو كلامٌ نظريٌّ وجدال وترويحٌ ذِهنيٌّ، وليس منهجًا ربَّانيًّا يقودُ الناسَ بالدليلِ إلى الخيرِ، وإلى طريقِ النجاةِ في هذه الحياةِ.

قانونُ الاجتهادِ الشخصيّ

حقيقةُ العلمِ هبةٌ، يختارُ اللهُ لها مَن شاء مِن عبادِه، فيُوفِّقه ويُعِينُه على إدراكِها، وهذا شأنُ الأرزاقِ جميعِها. وطلبُ العلمِ رزقٌ، تَجرِي عليه سُنَّةُ اللهِ؛ مِن مُباشَرةِ الأسبابِ، والتِماسِ النافعِ منها لتحصيلِه، فهو هبةٌ تحتاجُ إلى مُباشَرةٍ، ومَن خدَم العلمَ خدَمه العلمُ...

هذا التقريرُ قد يكونُ مُستقِرًّا لدى كثيرٍ من الناسِ، ومنهم طلابُ العلمِ، لكنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى إبرازٍ وتوضيحٍ لبعضِ قضاياه.

بدايةً، قرَّر العلماءُ أنَّ للعلمِ طريقينِ:

إحداهما: المُشافَهةُ والتَّلقِّي عن أهلِ العلمِ.

والثانيةُ: مُطالَعةُ الكتبِ المُصنَّفةِ في الفنِّ.

واختار الشاطبيُّ -رحمه اللهُ- كونَ الأولِ أنفعَ، ثُمَّ ضبَط فقال: (صارتْ كتبُ المتقدِّمين وكلامُهم وسِيَرُهم أنفعَ لمَن أراد الأخذَ بالاحتياطِ في العلمِ، على أيِّ نوعٍ كان، وخصوصًا علمَ الشريعةِ)[1].

---

(1) «المُوافَقات» ٢/ ١٥٣.

[المرادُ هنا بقولِه: (المُتقدِّمين) أي في الزمن، والعلم، والسلوكِ، والكتابةِ، بعيدًا عن الغموضِ وطُرُقِ المُتكلِّمين. وإلا فإنَّ كلامَ الخلَفِ يُستفادُ منه أيضًا، إذا نحَا مَنحَى السلفِ. وكلَّما كان المعاصرُ مُتَّبِعًا وجاريًا على أصولِهم؛ كانت الاستفادةُ منه كبيرةً؛ ككُتُبِ ابنِ حجرٍ، =

فبعـــضُ الطلابِ يَرحَلُ إلى العلماءِ والشُّـــرَّاحِ، فيَصحَبُهم زمانًا، ويقرأُ عليهم الكتبَ والمتونَ، لكنَّ حظَّه -في الحقيقةِ- من التحصيلِ هو حضورُ المجالسِ؛ فليس له جهدٌ في بيتِه، وبينَ كتبِه وأبحاثِه، أو معَ زملائِه في مُذاكَرةِ العلمِ، فيجعلُ آخِرَ عهدِه بالعلمِ مِحرابَ الدَّرْسِ، مكتفيًا به، ظانًّا أنَّ المجلسَ كافٍ!

والحقيقةُ ليستْ كذلك؛ فالعلمُ لا يُنالُ بالاقتصارِ على المجالسِ، بل هو مُفتقِرٌ أيَّما افتقارٍ إلى جهدٍ شخصيٍّ يبذلُه الطالبُ لإدراكِ العلمِ وفهمِه.

وهب أن المجالسة أورثت الطالب بعض المعارف، فهل تهب له الطمأنينة إلى ما عنده من علم؟!

وأنتَ تـــرى في آحادِ المتعلِّمين قصـــورًا بالغًا ممَّن كانـــتْ عُمْدتُه الحضورَ، وعُدَّتُه كُرَّاسَ فوائدِه، فأقوى أدلَّتِه: (سَـــمِعتُ)، و (رجَّح شيخي)؛ فهو سمَّاعٌ طَرِبٌ؛ تُطرِبُهُ عباراتُ العِلمِ ولا يُحسِـــنُ سلوكَها؛ وإذا أُثيرَت أمامَه مســـائلُ العِلم فلا يُقرِّرُ تقريرَ العلماءِ ببحثٍ وتأكُّدٍ من المعلومةِ التي يَتلقَّاها، ولا يُنقِّبُ أو يســـتعملُ الأدلَّةَ، ويردُّ المسائلَ إلى الأصولِ العلميةِ الصحيحةِ، أو يعلو في إسنادِ العلمِ إلى الأوائلِ.

وهذا الصِّنفُ من الطلابِ هو مَن يَستشـــرِي في قلبِه داءُ الجمودِ والعصبيةِ في قابلِ الأيامِ، خاصَّةً إذا حِيلَ بينَه وبينَ التعمُّقِ في علومِ الســـلفِ، ومُراجَعةِ تقريراتِهم وكلامِهم وأدلتِهم، واكتفَى بما أملاه شـــيخُه وقـــرَّره؛ فهو معزولٌ عن كثيرٍ من الخيرِ، إذْ لم يُنوِّعِ المجالسَ ويَفتِـــشَ، فحينَها لنْ يُدرِكَ خطأَه وقصورَه. وهذا الداءُ هو الذي عانَى منه كثيرٌ من العلماءِ، وكثُرتْ منه شكاواهم.

فالنَّابِـــهُ لا يَقَرُّ له قرارٌ حتى يَمزِجَ مســـموعَه بجميلِ مقروئِـــه، ويجولَ بميزانِ

= وتفســـيرِ الشيخِ محمدٍ الأمينِ الشـــنقيطيِّ، وتفسيرِ السَّـــعديِّ -رحمهم اللهُ]. أفاده شيخُنا الشيخُ ساعِدُ بنُ عمرَ غازي -حفظه اللهُ.

خاطِرِه في نتائجِ الأفكارِ وسحابِ العقولِ؛ فهو دؤوبُ الكدِّ، مُتَّصِلُ العزمِ لإنجاحِ مشروعِه، يرجو التأهُّلَ لِمَا كتبه اللهُ له من العلمِ والفهمِ.

ومَن تأمَّلَ سِيَرَ السلفِ وطريقتَهم في الطلبِ = رأى بعينِه؛ فقد ذكَر ابنُ خَلِّكانَ -رحمه اللهُ- في «وَفَياتِ الأعيانِ» عند ترجمةِ أبي عمرَ ابنِ عبد البَرِّ -رحمه اللهُ-: (ودأَب في طلبِ العلمِ وافتنَّ فيه، وبرَع براعةً فاق فيها مَن تقدَّمه من رجالِ الأندلسِ، وكان مُوفَّقًا في التأليفِ مُعانًا عليه، ونفَع اللهُ به)[1].

وقال مُحِبُّ الدِّينِ ابنُ النَّجَّارِ في «تاريخِه»، عند ذكرِ شيخِهِ الضياء المقدسي رحمه الله: (وحصَّل الأصولَ، وكتَب الكتبَ الكبارَ بخطِّه... بهِمَّةٍ عاليةٍ، وجِدٍّ واجتهادٍ، وتحقيقٍ وإتقانٍ. ولَعَمْرِي ما رأتْ عيناي مِثلَه في نزاهتِه وعِفَّتِه وحُسنِ طريقتِه في طلبِ العلمِ)[2].

فطالبُ العلمِ تُفترَضُ فيه النَّباهةُ، واتِّقادُ الذِّهنِ، والحرصُ على ما ينفعُ. وتأمَّلْ صنيعَ موسى -عليه السلامُ- في حرصِه على تعلُّمِ الرُّشدِ، والتأكُّدِ من سلامةِ ما يُلقَى إليه؛ حيثُ قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦]، فاشترَط الرُّشدَ في العلمِ.

والواجبُ على الطالبِ أن يعطيَ لنفسِه الفرصةَ؛ ليتأهلَ لما قدَّره اللهُ له من العلمِ والنبوغِ فيه، فيُراجِعَ ويُدقِّقَ ويبحثَ؛ فعطاءُ اللهِ واسعٌ لا تَحُدُّه الحدودُ، وهو خيرُ الرازقينَ، وعندَه خزائنُ السماواتِ والأرضِ، فلا يُغْلِق على نفسِه بابَ الاستفادةِ بعدمِ الاطِّلاعِ والقراءةِ والتنويعِ، ولا يُسلِم عقلَه إلا للحقِّ والدَّليل.

ومَرجِعُ هذا -واللهُ أعلمُ- أنَّ (نتائجَ الأفكارِ لا تقفُ عندَ حدٍّ، وتصرفاتِ

(١) «وَفَيات الأعيان» ٧/ ٦٧ باختصارٍ.
(٢) أورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢٣/ ١٢٩ باختصار.

الأنظارِ لا تنتهي إلى غايةٍ، بل لكلِّ عالِمٍ ومتعلِّمٍ منها حظٌّ يحرزُه في وقتِه المُقدَّرِ له، وليس لأحدٍ أن يزاحمَه فيه؛ لأن العالَمَ المعنويَّ واسعٌ كالبحرِ الزاخرِ، والفيضُ الإلهيُّ ليس له انقطاعٌ ولا آخِرٌ، والعلومُ مِنَحٌ إلهيةٌ، ومواهبُ صَمَدانيةٌ؛ فغيرُ مُستبعَدٍ أن يُدَّخرَ لبعضِ المتأخرينَ ما لم يُدَّخرْ لكثيرٍ من المتقدِّمين، فلا تَغترَّ بقولِ القائلِ: (ما ترَكَ الأولُ للآخِرِ)، بل القولُ الصحيحُ الظاهرُ: (كم ترَكَ الأولُ للآخِرِ!)؛ فإنما يُستجادُ الشيءُ ويُسترذَلُ لجودتِه ورداءتِه في ذاتِه، لا لِقِدَمِه وحدوثِه)[1].

وممَّن نبَّه على أهميةِ الاجتهادِ الشخصيِّ: الشيخُ عبدُ الرزاقِ عفيفي -رحمه اللهُ- في ترجمتِه المُختصَرةِ للعلَّامةِ عبد العزيزِ ابنِ بازٍ -رحمه اللهُ-؛ حيثُ نبَّه على اجتهادِه الشخصيِّ في التحصيلِ، وأنه لم يَقنَعْ بالتلقِّي والسماعِ المُجرَّدِ على المشايخِ، بل تابَع ونقَّب وبحَث وتعمَّق، فقال: (ورأى أنَّ مِن الغَبْنِ لنفسِه: أن يكتفيَ بما حصَّله من تلك العلومِ أيامَ طلبِه وتلقِّيه عن مشايخِه؛ لِمَا في ذلك من هضمِها حقَّها، وحرمانِها من الحظِّ الوافرِ في العلمِ والدِّينِ؛ فتابَع الاطِّلاعَ والبحثَ، ودأب في التحصيلِ، وبذل جهدَه في تحقيقِ المسائلِ بالرجوعِ إلى نِطاقِها في أمهاتِ الكتبِ كلما دعتِ الحاجةُ إلى ذلك: في تدريسِه، وفيما يَعرِضُ له من القضايا المُشكِلةِ أيامَ تولِّيه القضاءَ، وفي إجابتِه عما يُوجَّهُ إليه من أسئلةٍ تحتاجُ إلى بحثٍ وتنقيبٍ، وفي ردِّه على ما يُنشَرُ من أقوالٍ باطلةٍ وآراءٍ منحرفةٍ؛ فازداد بذلك تحصيلُه ورسوخُه، ونبَغ في كثيرٍ من علومِ الشريعةِ، وخاصَّةً الحديثَ متنًا وسندًا، والتوحيدَ على طريقةِ السلفِ، والفقهَ على مذهبِ الحنابلةِ، حتى صار فيها من العلماءِ المُبرِّزِينَ)[2].

---

(١) «كشف الظنون» ١/ ٣٩، و«بصائر ذوي التمييز» ١/ ٧٩، و«المستقصى»، ١/ د.

(٢) هذه الترجمة منشورة، وقد كتبها الشيخ رحمه الله بخط يده، تعريفًا بالشيخ ابن باز رحمه الله تعالى.

لطيفةٌ عن خدمة العلم والاجتهاد في نيله:

حُكِي عن الإمامِ أحمدَ -رحمه اللهُ- قولُه: (مَن أراد الحديثَ خدَمه).

فعلَّــق الحافظُ البيهقيُّ -رحمه اللهُ- قائلًا: (قد خدَمــه أبو عبد اللهِ أحمدُ بنُ حنبلٍ؛ فرحَل فيه، وحَفِظه، وعَمِل به، وعلَّمه، وحمَل شدائدَه).

ثُمَّ قال ابنُ مُفلِحِ الحنبليُّ -رحمه اللهُ-: (وهو كما قال البيهقيُّ رحمه اللهُ)[1].

وقــال ابنُ الجوزيِّ -رحمه اللهُ-: (ولمَّا آثَر أحمدُ بنُ حنبلٍ -رضي اللهُ عنه- طلبَ العلمِ، وكان فقيرًا؛ بَقِي أربعينَ ســنةً يَتشــاغَلُ به ولا يَتزوَّجُ. فينبغي للفقيرِ أن يُصابِرَ فقرَه كما فعــل أحمدُ، ومن يُطيقُ ما أطاق؟! فقد ردَّ من المالِ خمســينَ ألفًا، وكان يأكلُ الكامَخَ[2] ويَتأدَّمُ بالملحِ! فما شــاع له الذِّكرُ الجميلُ جُزافًا. فيا له ثناءً ملأ الآفاقَ، وجمالًا زيَّن الوجودَ، وعِزًّا نسَــخ كلَّ ذُلٍّ؛ هذا فــي العاجلِ، وثوابُ الآجِلِ لا يُوصَفُ)[3].

(١) «الآداب الشرعية» لابن مُفلِح ١/ ٢٣١.

(٢) يُؤتَدمُ به، ويُطلَقُ على (المُخلَّلات).

(٣) «صيد الخاطر» ص ٤٥١ بتَصرُّفٍ يسيرٍ.

قانونُ الحِسّ التَّعبُّديّ

تَضافرتِ الأدلَّةُ حاثَّةً على طلبِ العلمِ، والأمرِ به، والثناءِ على طالبِه؛ فصار عبادةً.

قال النوويُّ رحمه اللهُ: (قالوا: ولا يَأخذُ العلمَ إلَّا ممَّن كمُلتْ أهليَّتُه، وظهَرتْ دِيانتُه، وتَحقَّقتْ معرفتُه، واشتَهَرتْ صيانتُه وسيادتُه؛ فقد قال ابنُ سِيرينَ ومالكٌ وخلائقُ مِن السلفِ: هذا العلمُ دِينٌ؛ فانظُروا عمَّن تأخذون دِينَكم)[1].

وإذا تقرَّر كونُه عبادةً؛ ترتَّب على ذلك أمورٌ:

الأول: طلبُ العلمِ للتعبُّدِ، لا التثقُّفِ والجِدالِ:

مَقصدُ العلمِ الأعظمُ: كونُه وسيلةً إلى العبوديةِ، وهكذا (كلُّ علمٍ شرعيٍّ، فطلبُ الشارعِ له إنَّما يكونُ من حيثُ هو وسيلةٌ إلى التعبُّدِ به للهِ تعالى)[2].

فغايةُ أمرِ العلمِ أن يكونَ دالًّا وهاديًا إلى عبادةِ ربِّ العالمينَ سبحانَه، وليس العلمُ كلامًا ونُقُولًا تَصُخُّ المسامعَ في كظيظِ المَجامعِ، ولا هو بتلك التقريراتِ النظريةِ الخاليةِ عن مَقصَدِ العلمِ الأعظمِ، وغايتِه النبيلةِ؛ من الأخذِ بناصيةِ الطالبِ إلى التعبُّدِ والتألُّهِ.

---

(١) «المجموع» ١/ ٦٦.

(٢) «الموافقات» ٢/ ٧٣.

ومَن تأمَّلَ حال بعض المتسببينَ؛ عَلِم أنَّ العلمَ قد انحَطَّ في قلوبِهم من سماءِ الغايةِ إلى أرضِ الدَّعاوى، ومِن ماهيَّةٍ حقيقيَّةٍ يباشرُ صداها قلبًا نابضًا إلى رَسْمٍ وعاريةٍ! وإلا فأين الدموعُ الجاريةُ؟! وأين النوافلُ والعباداتُ الظاهرةُ والباطنةُ؟!

وعلامةُ طلبِ العلمِ للتَّعبُّدِ:

١- أن يفوقَ قَسْمُ العملِ قَسْمَ الدَّعاوى، وإلا فما أكثرَ مَن يَتحدَّثُ به ويدَّعي تحصيلَه، وأقلَّ مَن يعملُ به!

٢- التَّغاضي عن زهرةِ التنظيرِ وحلاوةِ التسميعِ، إلى الدَّلالةِ على العلمِ والعملِ، وتحصيلِ النافعِ لأُمَّتِه.

٣- أن يُرى أثرُ ذلك في أخلاقِه وسلوكِه؛ فأثرُ العلمِ لا بدَّ وأن يُرى على طالبِه.

يقول مجد الدين الفيروزآبادي رحمه الله: (اعلم أنَّ للعلم عَرْفًا يَنُمُّ عن صاحبه، ونورًا يرشدُ إليه، وضياءً يشرق عليه؛ فحاملُ المسكِ لا تخفى روائحُه... ومَن لم يظهر عليه أماراتُ علمِه فهوَ ذُو بِطانة، لا صاحب إخلاص)[1].

الثاني: تعظيمُ العلمِ، وإكرامُ أهلِه وطلبتِه:

ذلك أنَّ إدراكَ العلمِ مَنُوطٌ بتعظيمِه، وتعظيمُه لكمالِ هيبتِه ومكانتِه؛ فإنَّه مِن أشرفِ المعارفِ، وأَوْلى ما شمَّر لإدراكِه مُشمِّرٌ، أو تفرَّغ لنيلِه طالبٌ. وهذا العلمُ -الذي هو علمُ الشريعةِ- يَستمِدُّ عظمتَه وعزَّتَه من عزَّةِ القرآنِ والسُّنَّةِ، وعلى قدرِ تعظيمِه يَرسَخُ في القلبِ، ويَجِلُّ قدرُ حاملِه، ويكونُ أرجى لثباتِه وإتقانِه.

وأقبِحْ بطالبٍ خلا فؤادُه عن تعظيمِ العلمِ وإكرامِه، فلا يرى له حرمةً أو فضلًا،

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٥٤.

ولا فرقَ عندَه بين كتابِ علمٍ وأدواتِ دبَّاغ!

وإذا تأمَّلتَ واقع بعض طلابِ العلمِ؛ رأيتَ العجبَ: فترى مادَّ رجلَيْه في وجهِ مُعلِّمِه! وآخَرَ شغَلَه جوَّالُه! وثالثًا يَقضِمُ الأظفارَ، كأنَّما ملَّ الحديثَ، وسَئِم الأسفارَ! فأين هؤلاءِ من تعظيمِ العلمِ ومجالسِ أهلِه؟!

ورأيتُ في بعضِ المجالسِ مَن يتصفحُ (الإنترنت) في المجلسِ! وآخَرَ دخل المجلسَ وألقى الكتابَ -وهو واقفٌ- لِيَتنفَّلَ، فأحدَث ضجَّةً عظيمةً! فأين هؤلاءِ من تعظيمِ العلمِ وتكريمِ (الكتبِ)؟!

ومِن صُوَرِ عدمِ تعظيمِ العلمِ: الغفلةُ عن تدبُّرِ ألفاظِه ومعانيه، واستنشاقِ جميلِ أثرِها في القلبِ.

فائدةٌ حولَ تدبُّر الألفاظِ والمعاني:

نبَّـه القَرافيُّ -رحمه اللهُ- على فائدةٍ تتعلقُ بقَـولِ المُفتِي في آخِرِ فتواه: (اللهُ أعلمُ)، فقال:

(ولا ينبغي أن يضعَ هذه اللَّفظـةَ ونحوَها [أي اللهُ أعلمُ] إلَّا ناويًا بها ذِكرَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ استعمالَ ألفاظِ الأذكارِ لا على وجهِ التعظيمِ والذِّكرِ للهِ تعالى = قِلَّةُ أدبٍ معَ اللهِ تعالى، فيُنهَى عنه، بل ينوي به معناه الذي وُضِع له لغةً وشرعًا)[1].

قال ابنُ القيِّمِ رحمه اللهُ:

(... فهل خطَر ببالِكَ قطُّ أنَّ هذه الآيـةَ[2] تتضمنُ هذه العلومَ والمعارفَ، معَ

---

(١) «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرُّفات القاضي والإمام» ص٢٤٨.

(٢) أي قولـه تعالـى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ ﴾ [غافر: ٣].

كثرةِ قراءتِكَ لها وسماعِكَ إيَّاها؟!! وهكذا سائرُ آياتِ القرآنِ.

فما أشــدَّها من حســرةٍ، وما أعظمَها من غَبْنةٍ على مَن أفنَــى أوقاتَه في طلبِ العلمِ، ثُمَّ يخرجُ من الدنيا وما فَهِم حقائقَ القرآنِ، ولا باشَر قلبَه أسرارُه ومعانيه؛ فاللهُ المستعانُ!)[1].

(١) «بدائع الفوائد» ١/ ٣٣٨.

قانونُ الحِسّ الأخلاقيّ

أَوْلى مَن يجبُ أن يظهرَ فيهم السَّمتُ[1] الحسـنُ والخُلُقُ القويمُ: وارِثو علمِ النُّبوَّةِ، ومُلتمِسـو الرُّقيِّ في المدارجِ؛ ومِن نفيسِ كلامِ السـلفِ: (علمٌ بلا أدبٍ كنارٍ بلا حطبٍ)[2].

وليـس أحدٌ بأَوْلى مـن طالبِ العلمِ في امتثـالِ الأمرِ الشـرعيِّ، وكلامِ اللهِ ورسولِه ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

ومـن علامةِ التوفيقِ والهدايةِ: ألَّا يُرى طالب العلم مُجافِيًا لنصوصِ الأخلاقِ والرِّقـاقِ، كحالِ مَـن أمحَلوا جانبَ الرِّقَّـةِ والبكاءِ؛ فترى الأخلاقَ فـي وادٍ، بينما أخلاقُهم في وادٍ سحيقٍ!

فما أحلى هذه النصوصَ التي تُرقِّقُ القلوبَ وتُهذِّبُها، وتُكرِّمُها بجميلِ النعوتِ وتُصفِّيها!

---

(1) السَّمْتُ له معنيانِ:
أحدُهما: حُسْنُ الهيئةِ والمَنظَرِ في الدِّينِ وهيئةِ أهلِ الخيرِ.
والثاني: السَّمْتُ هو الطريقُ. يُقالُ: الزَمْ هذا السَّمْتَ.
وكلاهما له معنًى؛ إمَّا أرادوا هيئةَ الإسلامِ، أو طريقةَ أهلِ الإسلامِ.
يُنظَر: «غريب الحديث» لأبي عُبَيدٍ القاسمِ بنِ سلَّامٍ ٣/ ٣٨٤، و«لسان العرب» لابن منظورٍ ١١/ ٢٤٧. والمعنيانِ مُرادانِ هنا.

(2) «الجامع لأخلاق الراوي» ١/ ٨٠.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤]. ويقولُ ﷺ: «لا تَحقِرَنَّ مِن المعروفِ شيئًا، ولو أن تَلقى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ»[١].

فحدِّثْني عن عالِمٍ وُضِع له القبولُ في الأمَّةِ كان سيِّئَ الخُلُقِ، هِجِّيراه الجفوةُ! وأنت ترى بعينِكَ في آحادِ المُنتسِبينَ إلى العلمِ أنَّ مَن كان خِلوًا مِن السمتِ الحسنِ وأدبِ العلمِ = يَـؤولُ حالُه إلى أن يكونَ مُضغةً تلوكُها الأنيابُ، فتنةً يُبتلى بها العباد، وتكثرُ فيه قالةُ السُّوءِ، وتنبوَ عنه قلوبُ الصالحين.

إنَّ الناسَ لا ميـزانَ لهم ولا معيار، فمتـى رأَوْا جفوةَ العالـمِ، وغِلَظَ تأنيبِه، ووعورةَ مسلكِه معَ المسـتفيدِ = آثَروا وَهْدةَ الجهالةِ، وتركوا الاستفادةَ، ونظَروا إليه نظرةَ احتقارٍ بعدَ التوقيرِ والإكبارِ؛ والساقطُ من أعينِهم لا يَقَرُّ إلا في قاعِ التصنيفِ.

فتأمَّلْ قولَ اللهِ عزَّ وجـلَّ: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالنَّابهُ من المتنسبين إلى العلمِ: مَن يَنضَحُ بِرِيقِ الخُلُقِ الحسنِ جفاءَ الأسلوبِ، ويُعبِّدُ الطريقَ أمامَ الناسِ بسِحْرِ الكلماتِ وجمالِ الألفاظِ.

وكم مِن مريضٍ قد شُـفِي بعقَّارٍ[٢] حُسـنِ الأدبِ والتعبيـرِ، ولو عُرِض على حُذّاقِ الأطباءِ لعَسُـر؛ ذلك أنَّ أزيزَ الصُّدورِ لا يُذهِبُ حـرَّه إلا بَردُ الكلماتِ العَذْبةِ ونسماتُها الرقيقةُ.

---

(١) رواه مسلمٌ رقم (٢٦٢٦).

(٢) (العقَّار): علـى وزن عطَّار، واحِدُ العقَاقير؛ أصول الأدوية. أمـا (العُقَار): بالضم مخففاً، يطلق على الخَمْر؛ لأنها عقرت العقل، أو عاقرت الدَّنَّ أي لازمته. و(العَقَار): بالفتح مخففاً الأرض والضياع والنخل. ينظر: «الصحاح» للرازي، ص١٨٧.

وعلى النقيضِ: مَن خَشُـن خُلُقُه، وجمَع في قاموسِـه وحشيَّ الأخلاقِ وقَتَادَ الكلمـاتِ؛ فلئن جذب الخَلْقَ إليه بطرَفٍ من الحاجةِ إلى العلمِ والفقهِ؛ فلقد أبعَدَهم عنه بفسادِ الخُلُقِ! فمِسكينٌ مَن هذه حالُه؛ إذْ علمُه مَوْءُودٌ منقوصٌ، وتحقيقُه مرفوضٌ؛ فالناسُ يلتمسون السهلَ اللَّيِّنَ، هادئَ البالِ، رقيقَ الطِّباعِ.

يا طالبَ (الرُّقيِّ) و (المدارج)..!

إنَّ مَكمَنَ الخطرِ على مَن ســاء هَدْيُه وخُلُقُه مِن المتنسـبين إلى الطلبِ: كونُه يُقدِّمُ أنموذجًا[1] سيِّئًا عن العلمِ وطلابِه، وكفى بهذا جُرْمًا وألمًا!

ولئنْ كان المتسـبِّبُ في جرِّ السِّـبابِ إلى والدَيْه سـابًّا لهما في الحقيقةِ؛ فإنَّ المتسبِّبَ في جرِّ السُّبَّةِ وسوءِ الظنِّ بالعلمِ وأهلِه آثمٌ بقدرِ جنايتِه.

لعلَّكَ فَهِمتَ ما رُمتُه: أنَّ التَّسبُّبَ هنا بسُوءِ السِّيرةِ وجفوةِ العَلاقةِ.

تنبيه على حقيقة الأخلاق:

إذا كان الحديثُ عن أخلاقِ طالبِ العلمِ معَ الخَلْقِ؛ فإنَّه حَرِيٌّ به أن يبذلَ ذلك لربِّه ومعبودِه؛ وهــذه هي حقيقةُ الأخلاقِ وأصلُها؛ فقِلَّةُ التعبُّدِ وضعفُ اسـتحضارِ القلبِ، والتفريطُ في الأعمالِ الإيمانيةِ قد شاع، وأثَّر بالسلْبِ على التحصيلِ.

(١) (النَّمُوذَجُ) بفتحِ النُّونِ: مِثالُ الشــيءِ؛ أي صورةٌ تُتَّخذُ على مثالِ صورةِ الشــيءِ لِيُعرَفَ منه حالُه.

وأمَّا (الأُنْمُوذَجُ) بضمِّ الهمزةِ؛ فقد لحَّنه الصَّاغانيُّ، وتابَعه الفيروزآباديُّ. لكنْ ردَّه النَّواجيُّ -رحمه اللــهُ- وقال: هذه دعوَى لا تقومُ عليهــا حُجَّةٌ. فما زالتِ العلمــاءُ قديمًا وحديثًا يسـتعملون هذا اللَّفظَ من غيرِ نكيرٍ، حتى إنَّ الزَّمخشريَّ -وهو من أئمةِ اللُّغةِ- سمَّى كتابَه في النحوِ: «الأُنْمُوذَجَ»، وكذلك الحسنُ بنُ رَشِيقٍ القَيْروانيُّ -وهو إمامُ المغربِ في اللُّغةِ- سمَّى به كتابَه في صناعةِ الأدبِ. وأيضًا أنكر الخَفاجيُّ في «شفاءِ الغليلِ» على مَن ادَّعى فيه اللَّحنَ. يُنظَر: «تاج العروس» للزَّبيديِّ ٦/ ٢٤٩- ٢٥٠.

ولا ريبَ أن غفلةَ جامعِ العلمِ عن تزكيةِ نفسِه، وتفقُّدِ قلبِه يؤولُ معَ طولِ الأمدِ إلى كونِ صاحبِه صورةً ممسوخةً عن طلابِ العلمِ؛ لأنه فقَدَ لُبَّه ورُوحَه.

وليس أدلَّ على فقدِ هذا الحِسِّ من كثرةِ ذكرِ النفسِ إشادةً ومدحًا، بصريحِ العبارةِ أو مفهومِها، ممَّا يُظهِرُ حجمَ الغَرَرِ الذي يملأُ قلبَ صاحبِه.

والواجبُ على مَن ابتُلِي بذلك: أن يتواضعَ، ويبذلَ الجهدَ في التدارُكِ بالتعبُّدِ والحطِّ على النفسِ، وكثرةِ ذكرِ اللهِ وتسبيحِه، وأن يعلمَ حقيقةَ ما هو عليه من الانخداعِ بصورةِ ما يطلبُ؛ وأنها ما هي إلا بهارجُ زائفةٌ، ينكشفُ سَرابُها بنظرٍ سديدٍ.

ويقولُ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وعليه أن يعلم أنه (ما عالِمٌ ليستْ له خلواتٌ بجوفِ الليلِ الآخِرِ يتبتلُ فيها إلى اللهِ ويدعوه رَغبًا ورَهَبًا، وما عالِمٌ ليستْ له أوقاتٌ معَ ربِّه يذكُرُه فيها ويستغفرُه ويُسبِّحُه، وما عالِمٌ ليستْ له أشواقٌ ولا أذواقٌ، ولا حياةَ لوجدانِه بمسالكِ المحبَّةِ الإيمانيةِ، ولا معرفةَ لقلبِه بمدارجِ الخوفِ والرجاءِ - ماذا يُرجَى من ورائِه لهذه الأُمَّةِ؟ وماذا يمكنُ أن يفيدَ في تربيةِ الخَلْقِ، وفاقدُ الشيءِ لا يُعطيه؟!.. فأنَّى لمَن تَخشَّبَ قلبُه أن يجدَ ذلك؟ بَلْهَ أن يعطيَه للناسِ! ألا وإنَّ ذلك إنَّما يتأتَّى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧])[1].

(١) «مفهوم العالِمية» ص١٢٢.

مَدَارِجُ التَّعلُّمِ

(يكونُ الرَّجلُ عالمًا إذا هو حقَّق في تعلُّمِه، وتعرَّض لسائرِ العلومِ فنظَر فيها)

[الإمامُ محمدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ رحمه اللهُ]

مدارجُ التعلُّمِ هي مراحلُه الثلاثُ، وهي:

المرحلةُ الأولى: التأصيلُ العلميُّ.

المرحلةُ الثانيةُ: استكمالُ التكوينِ العلميِّ.

المرحلةُ الثالثةُ: البحثُ العلميُّ والتصنيفُ.

المرحلةُ الأولى
التأصيلُ العلميُّ

تقرَّر لدى العقلاءِ أنَّ ارتفاعَ البناءِ يستلزمُ وجودَ قاعدةٍ قويَّةٍ يصحُّ الاعتمادُ عليها للعُلُوِّ المنشودِ. والعلمُ بناءٌ معرفيٌّ، فهو -لا محالة- مُفتقِرٌ إلى قاعدةٍ مركزيةٍ تأسيسيةٍ، تجمعُ أصولَ العلمِ وأوَّليَّاتِه ومُقدِّماتِه.

يقول أمير بادشاه الحنفي رحمه الله: (العلم حياة النفس وكمالها، وصفوته أن تعرف ما عليها وما لها، وهي مَلَكة لا تحصل إلَّا بأصولها، فوجب معرفة الأصول قبل وصولها)[1].

وضبطُ هذه «الأصول» و «الأوَّليَّات» و «المُقدِّمات» = مِن أهمِّ الأشياءِ التي يجبُ أن تُجعَلَ في أولوياتِ الطالبِ؛ ليترقَّى في مدارجِ التعلمِ، وتتضحَ له حقائقُ العلمِ وغايتُه، وكيفيةُ استعمالِه وتطبيقِه.

ذلك أنه (ليس كلُّ طالبٍ يُحسِنُ الطلبَ، ويهتدي إلى طريقِ المَطلَبِ، ولا كلُّ سالكٍ يهتدي إلى الاستكمالِ، ويأمنُ الاغترارَ بالوقوفِ دونَ ذِروةِ الكمالِ، ولا كلُّ ظانٍّ الوصولَ إلى شاكلةِ الصوابِ آمِنٌ من الانخداعِ بلامعِ السَّرابِ)[2].

وطريقُ ذلك هو التدرُّجُ في المعرفةِ؛ من بداياتٍ تصوُّريةٍ للحقائقِ، ثمَّ تعمُّقٍ

(1) «تيسير التحرير» (1/ 2).

(2) «معيار العلم» لأبي حامد الغزالي، ص25.

في تفاصيلِها، ومحالٌ أن يستحكمَ البناءُ العلميُّ بلا تأصيلٍ تصوُّريٍّ لجُمَلِ العلم.

ومـن العجبِ أن يَنشُـدَ مَلَكةَ العلـومِ وحِذقَها مَن غابت عنـه أوّليّاتُ العلمِ ومبادئُهُ، وصُرِف عنها، وشُـغِل عن تحصيلِها، بخلافاتٍ هامشـيةٍ على مسائلَ فرعيةٍ أرهَقَـتْ ذِهنَه، وأَوْدتْ بزَهْرةِ أيامِه. ولو أنّه وُفِّـق في تعلُّمِه؛ لحقَّق الأصولَ، ثم فرَّع عليها، وبنى عليها تكوينَه العلميَّ في سائرِ الفروعِ.

يقولُ الرَّبيعُ بنُ سليمانَ رحمه اللهُ: قلتُ للشّافعيِّ رحمه اللهُ: متى يكونُ الرجلُ عالمًا؟ فقال لي: (يكونُ الرجلُ عالمًا إذا هو حقَّق في تعلُّمِه، وتعرَّض لسـائرِ العلومِ فنظَر فيهـا؛ فإنَّه حُكِي لي عن جالنيوسَ أنّه قيل له: إنكَ تأمـرُ للدّاءِ الواحدِ بالأدويةِ الكثيرةِ المُجتمِعةِ؛ أفكلُّ الأدويةِ دواءٌ لذلك الداءِ؟ قال: لا، إنَّما المقصودُ منه واحدٌ وإنَّما يُجعَلُ معَه غيرُه لتَسكُنَ حِدَّتُه؛ لأنَّ الإفرادَ قاتلٌ)[1].

ومن لطيفِ كلامِ عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله، قوله: (إذا تمهّدت القواعد، وأُحكمت العرى والمعاقد، أخـذ حينئذ في تتبع ما اخترعته القرائح، وعمد إلى حلّ المشكلات عن ثقة بأن هُيِّئت المفاتح)[2].

أهميةُ مرحلةِ التّأصيلِ العلميِّ

تظهرُ الحاجةُ إلى مرحلةِ التّأصيلِ العلميِّ من خلالِ عدّةِ أمورٍ، منها:

١- تشابُكُ دُرُوبِ العلمِ:

فدروبُ العلمِ مُتشـابِكةٌ، وسالكُها بلا تأصيلٍ كهائمٍ في ليلٍ طويلٍ دونَ دليلٍ؛ وتعترِضُه عوائقُ الفهمِ، وقد يسيرُ في غيرِ السـبيلِ! بخلافِ مَن كان مُرتكَزُه تصوُّرًا

(١) «الفوائد والأخبار والحكايات» لابن حمكان الهمداني، رقم (٢١)، ص١٣٧.

(٢) «أسرار البلاغة» ص ٧٠.

سـديدًا؛ فإنَّه يسـيرُ في خُطَّتِه التي رُوعِي فيها التدرجُ، والتي تتفرعُ على ما أُجمِل في أوَّلِيَّاتِ العلمِ، فمَن كان كذلك سهُل عليه منالُ الرتبِ العَليَّة في التَّعلُّم.

يقـولُ أبو المعالي الجوينـيُّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على مَـن يحاولُ الخوضَ في فنٍّ من فنونِ العلومِ: أن يحيطَ بالمقصودِ منه، وبالموادِّ التي منها يُسـتَمَدُّ ذلك الفنُّ، وبحقيقتِه، وفنِّه، وحدِّه -إنْ أمكنتْ عبارةٌ سديدةٌ على صناعةِ الحدِّ- فإنْ عَسُر؛ فعليه أن يحاولَ الدَّرْكَ بمسلَكِ التقاسيمِ[1]. والغرضُ من ذلك: أن يكونَ الإقدامُ على تعلُّمِه معَ حظٍّ من العلمِ الجُمْليِّ بالعلمِ الذي يحاولُ أن يخوضَ فيه)[2].

ويقولُ الشيخُ ابنُ عُثَيمينَ رحمه اللهُ:

وبعدُ؛ فالعلـمُ بُحُورٌ زاخِرة	لنْ يَبلُغَ الـكادحُ فيه آخِرَهْ
لكـنَّ فـي أصولِـه تسـهيلا	لِنَيلِه فاحرِصْ تَجِدْ سَـبِيلا
اغـتَنِـمِ الـقـواعـدَ الأُصُـولا	فمَن تَفُتْهُ يُحرَمِ الوُصُولا[3]

٢- التَّدرُّجُ المُتوازِنُ:

ذلك أنَّ التأصيلَ العلميَّ يساعدُ على اتِّزانِ النَّشأةِ العلميةِ للطالبِ واستقرارِها،

---

(١) علق الشيخ محمد عُزير شمس حفظه الله على هذا الموضع بقوله:
«هذه طريقة الخائضين في العلوم العقلية التي تأثر بها المتأخرون منذ القرن الخامس، ولم يكن عليها المحدثون والفقهاء والمفسرون والأصوليون في القرون الأولى».
قلت (السـعيد): نعم، كانت القرون الأول من السـلف أهل العلـم والنظر على خلاف ما انتهجه المناطقة والمتكلمون في صناعة الحدِّ وتعسيره.
وإنمـا أوردت قول أبي المعالي إبـرازاً لأهمية الإحاطة بمقصد العلـم، ومادته، وحقيقته وحدِّه، ليكون انطلاق الطالب بحصيلة جُمْلية ثابتة يقيم عليها أودَ المعارف.

(٢) «البرهان» ١/ ٧٧.

(٣) «منظومة أصول الفقه وقواعده» ص ٤٠-٤٣.

وقد قيل: (إنَّ الانسيابَ الموزونَ وليدُ المركزِ الثابتِ).

فالارتسامةُ الأولى للبداياتِ تبقى انطباعاتُها وبصماتُها في ذهنِه وعقلِه، وفي مسالكِه.

٣- أنَّ «مثارَ التخبُّطِ في الفروعِ نِتاجُ التخبُّطِ في الأصولِ»[1]:

ذلك أنَّه على قدرِ إحكامِ الأصلِ يأتي صفاءُ الفروعِ، وعلى قدرِ التخبُّطِ هنا يكونُ التخبُّطُ هناكَ!

فالداخلُ في العلمِ كمُستفتِحٍ في بناءِ بيتٍ، والخطأُ في التصميمِ أو التأصيلِ يَئُولُ -لا محالةَ- إلى اختلالِه؛ إذْ سلامةُ النهايةِ وكمالُها من سلامةِ البدايةِ وإحكامِها. والمُتخبِّطُ في تأصيلِه سائرٌ في خطلةٍ وأدِ النفسِ؛ فإن (الداخل على بصيرةٍ في شيءٍ = أعقلُ من الداخلِ فيه على غيرِ بصيرةٍ)[2].

وأثرُ هذا التخبُّطِ يظهرُ بعدَ تسويدِ هذا الطالبَ إنْ ساد، أو حينَ التصدِّي لنشرِ جَعْبتِه بينَ الصيارفةِ ونُبهاءِ الطُّلابِ.

٤- حصولُ مَلَكةِ العلمِ:

إذْ مُحالٌ أنْ يأتيَ الإبداعُ العلمِي على وجْهِه، وصاحبُه خِلْوٌ من التركيزِ على أوّليَّاتِ العلمِ؛ فإن الإبداع بلا أصل متفق عليه طيش وتخبط لا ملكة وبراعة، إذ من المقرر أنه (إذا كانتْ أوائلُ العلمِ وأواخرُه حاضرةً عندَ الفكرةِ، مُجانِبةً للنسيانِ؛ كانتِ الملكةُ أيسرَ حصولًا، وأحكمَ ارتباطًا، وأقربَ صِبغةً)[3].

لذا فإنَّ (الحَذاقةَ والتَّفنُّنَ في العلمِ والاستيلاءَ عليه، إنَّما هو بحصولِ الملكةِ

---

(١) «المنخول» للغزالي، ص٣ بتصرُّفٍ.   (٢) «المدخل» لابنِ بدران، ص١٠٣.

(٣) «مقدمة ابن خلدون»، ٢/ ٣٤٨.

في الإحاطةِ بمبادِيه وقواعِدِه، والوقوفِ على مسائلِه، واستنباطِ فروعِه من أصولِه)[1].

ففقد التأصيل يؤول حتمًا إلى تناقض وأوهام علمية، وانظر إلى هذا التحليل للأصولي الفقيه أبي المظفر السمعاني رحمه الله، يقول: (والمناقضاتُ للقوم طبيعةٌ لا يمكن نزعُها منهم بحيلة، وما من أصل لهم في الأصول وفي الفروع إلا ولهم في ذلك من أصولهم لفروعهم مناقض، وهذا لأن القوم لم يبنوا فروعهم على أصول صحيحة، وإنما وضعوا المسائل على أشياء تراءت لهم، ثم تراءت لهم غيرها في مسائلَ أمثالِ المسائل الأُوَلة، فحكمها بغير تلك الأحكام، وراموا الفروق بالخيالات، وهيهات ثم هيهات! ما أبعدهم عن ذلك! فإن الآراء مستعصية على ما لم يسندها إلى أصول صحيحة. ومن أراد عد مناقضاتهم جاوز الألوف والألوف، وبلغ مبلغًا ينتهي دونه الحدُّ والعدُّ)[2].

وإلّا كان ما يُحصِّلُه دونَ فائدةٍ ظاهرةٍ.

يقولُ سيفُ الدِّينِ الآمِديُّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على كلِّ مَن حاوَل تحصيلَ علمٍ من العلومِ: أن يَتصوَّرَ معناه أوَّلًا بالحدِّ أو الرسمِ؛ ليكونَ على بصيرةٍ فيما يَطلُبُه، وأن يعرفَ موضوعَه؛ وهو الشيءُ الذي يبحثُ في ذلك العلمِ عن أحوالِه العارضةِ له؛ تمييزًا له عن غيرِه، وما هي الغايةُ المقصودةُ من تحصيلِه؛ حتى لا يكونَ سعيُه عبثًا، وما عنه البحثُ فيه من الأحوالِ التي هي مسائلُه؛ لتَصوُّرِ طلبِها، وما منه استمدادُه؛ لصحَّةِ إسنادِه عندَ رَومِ تحقيقِه إليه، وأن يَتصوَّرَ مبادئَه التي لا بدَّ من سبقِ معرفتِها فيه؛ لإمكانِ البناءِ عليها)[3].

(١) «كشف الظُّنون» ١/ ٤٣.
(٢) «القواطع» ٣/ ٨٩٨-٨٩٩.
(٣) «الإحكام في أصول الأحكام» ١/ ١٨.

٥- أنَّ فتحَ بابِ التأصيلِ قطعٌ للطريقِ على المُتعالِمِين:

فالتعالُم يكثُرُ في فئةٍ لم تختمِر العلومُ في قلوبهم، ولم تمس شغافَها بتمكُّنها وتأصيلِها وتثبيتِ قواعدها وتكرارها، وبفرطِ عجلتِهم وغرورِهم جرّوا على أمّتهم ويلات، وعلى تاريخِهم مخازيَ ينبو عنها الأريبُ، وشتّانَ بينَ عالِمٍ مُتأصّلٍ، هضَم البداياتِ واستحكَمها، وفرَّع عليها علمَه؛ وبينَ خِنْفشاريٍّ وَلْهانَ، يُرجِّحُ بلا مُرجِّحٍ، ويتكلمُ بغيرِ خِطامٍ ولا زمامٍ؛ فلا قاعدةَ تُثبِّتُ ارتكازَه، ولا أصولَ تشدُّ من أزرِ فهمِه! فهو قابضٌ على قطعةِ ثلجٍ في رمضاءَ، ذابتْ من فروجِ أصابعِه؛ إذْ أغرَتْه أشباهُ المعارفِ، وزجَّ به أشباحُ الطُّلَّابِ!!

٦- أنَّ فاقدَ التأصيلِ الكُلِّيِّ يَحصُلُ له التلفيقُ والتناقضُ:

وينعكسُ ذلك على مسالكِه العمليةِ والمنهجيةِ فيما بعدُ، فتراه مُتخبِّطًا في الفتوى، مُحتطِبًا في أرضِ السِّباعِ. وللأسفِ معَ اختلاطِ المفاهيمِ والمصطلحاتِ وتداخلِها، عدَّ بعضُ الطُّلَّابِ شذوذَهم تحقيقًا، وتخليطَهم ترجيحًا! والحقيقةُ أنَّه لا يخرجُ عن كونِه جهلًا أو ظلمًا.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه اللهُ:

(لا بدَّ أن يكونَ معَ الإنسانِ أصولٌ كُلِّيَّةٌ يَرُدُّ إليها الجزئياتِ؛ ليتكلمَ بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرفَ الجزئياتِ كيفَ وقعتْ، وإلَّا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئياتِ، وجهلٍ وظلمٍ في الكُلِّيَّاتِ؛ فيتولَّدُ فسادٌ عظيمٌ)[1].

حقيقةُ التأصيلِ العلميِّ

التَّأصيلُ مأخوذٌ مِن الأصلِ اللُّغويِّ لكلمةِ (أصْل)، وهي القاعدةُ التي يُبنَى

---

(١) «مِنهاج السُّنَّة النبوية» ٥/ ٨٣.

عليها، وفي تعبيرِ الفقهاءِ نجدُهم يقولون: (أصلُ المسـألةِ كذا)، فهو هنا ردٌّ لأصولِها وقواعِدِها الحاكمةِ لها.

وفي عُرفِ أهلِ العصرِ، نجدُ بعضَ العلماءِ يُطلِقونه قاصِدينَ به معنًى (إحكامِ العلمِ، وتمتينِ العمليةِ التعليميةِ)، لا المعنى اللغوي المذكور أعلاه، ومفادُه الردُّ إلى قواعِدِ العلومِ وأصولِها.

والتعريفُ المَرْضيُّ لمصطلحِ «التأصيلِ العلميِّ»، أنّه:

(احكامُ مُقدِّماتِ وأوَّليَّاتِ وقواعِدِ علمٍ ما في منهجٍ مدروسٍ).

إحكامُ التأصيلِ العلميِّ

يأتي الإحكامُ عبرَ التمكُّنِ في عدَّةِ محاورَ[1]:

المحورُ الأولُ: مصادرُ العلمِ:

والمقصودُ بها: (مصادرُه التي يُستَمَدُّ منها، ويُرجَعُ إليها في تحقيقِ مباحثِه، ودَرْكِ المواردِ التي تُنظِّمُ مادةَ العلمِ ومسائلَه).

ويتحقَّقُ التأصيلُ العلميُّ فيها من خلالِ:

- الأصولِ الشرعيةِ العامَّةِ.
- أصـولِ العلومِ الشـرعيةِ؛ [كلُّ علمٍ علـى حِدَةٍ؛ فالأصـولُ تختلفُ باختلافِ العلمِ].

(1) راجِعْ: «أبجد العلوم» لصِدِّيق حسـن خان القِنَّوجيِّ، ص٧٢، وما بعدَها، «كشف الظنون» ١/ ٤٣، «المحصول» لابـنِ العربيِّ المالكيِّ، ص٢٨، «مفهوم التأصيل العلمي وتطبيقاته» أبحاث حلقة النقاش العلمية الأولى لمركز التبيان، نشر: مركز التبيان للاستشارات.

المحورُ الثاني: مبادئُ العلمِ

والمقصودُ بهـا: (المبادئُ التي تُنظِّمُ علمًا من العلومِ الشرعيةِ؛ من مفاهيمَ، وتعريفاتٍ، وأصولٍ كُلِّيَّةٍ يقومُ عليها العلمُ).

ويُعبِّرُ المناطقةُ عن المفاهيمِ والتعريفاتِ بـ «المبادئ التَّصوُّريَّة».

وعن المسائلِ والأصولِ الكُلِّيَّةِ التي يقومُ عليها العلمُ بـ «المبادئ التَّصديقيَّة»، وهذا المحورُ يختصُّ بالتأصيلِ في فنٍّ مُعيَّنٍ.

فالمفاهيمُ والتعريفاتُ ينبغي تقديمُها قبلَ الشروعِ في العلمِ، أو في مسائلِه وأحكامِه؛ كالتعريفاتِ السابقةِ لبابٍ من أبوابِ الفقهِ، أو التعريفاتِ الضابطةِ لمصطلحِ الحديثِ، فلا بدَّ من إدراكِها قبلَ النظرِ في العلمِ، أو المسألةِ؛ باعتبارِ أنَّ الحُكمَ على الشيءِ فرعٌ عن تصوُّرِه.

وقد نظَمها البعضُ بقولِه:

إنَّ مَبادِي كُلِّ علمٍ عشَرة: الحدُّ، والموضوعُ، ثُمَّ الثَّمَرة
وفضلُـهُ، ونِسبةٌ، والواضعْ والاسمُ، الاستمدادُ، حُكمُ الشَّارعْ
مسائلٌ، والبعضُ بالبعضِ اكتفى ومَن درى الجميعَ حازَ الشَّرَفا

وهذه المبادئُ العامةُ إنما تُذكَرُ ضمنَ محاورِ التأصيلِ؛ لشدَّةِ اتصالِها بمسائلِ العلمِ التي هي حقيقةُ التعلمِ، وهي المقصودةُ منه، بل وتُعِينُ على فهمِه وجودةِ تصوُّرِه.

المحورُ الثالثُ: مسائلُ العلمِ

ويُعنَى بها: (مباحثُه، وقواعدُه، وجُزئيَّاتُه).

***

يقولُ ابنُ العربيِّ رحمه اللهُ: (حقٌّ على كلِّ مَن يحاولُ الخوضَ في فنٍّ من

العلومِ، إذا عَلِم مقصودَه منه: أن يحاولَ -بدءًا- الإحاطةَ بسوابقِه التي لا بدَّ له منها في معرفتِه، وشروطِه التي هي معونةٌ عليه)(1).

وقد تكلَّم الغزاليُّ -رحمه اللهُ- عن علومِ الشرعِ وقسَّمها، ثم قال:

(ولكلِّ واحدٍ منها مادةٌ منها استمدادُه، وإليها استنادُه، ومقصودٌ به يَتعلَّقُ قصدُ الطالبِ وارتيادُه؛ فلا بدَّ من التنبيهِ على مادَّتِه ليقتبسَ الخائضُ فيه منها مبلغَ حاجتِه، فيتوسَّلَ إلى بُغيتِه، ولا غنَى عن التنبيهِ على مَقصَدِه؛ لئلَّا يكونَ الطالبُ على عَمايةٍ من مطلبِه)(2).

(1) «المحصول» لابن العربي، ص٢٨.

(2) «المنخول» ص٣.

المرحلةُ الثانيةُ
استكمالُ التكوينِ العلميِّ

تأتي مرحلةُ اســتكمالِ التكوينِ العلميِّ كخطوةٍ بِنائيةٍ على أصلٍ وقاعدةٍ، فهي أشبهُ بتشــييدِ البناءِ بعدَ إرســاءِ قواعدِه، فبعدَ أن مرَّ الطالبُ بمتونٍ مُختصَرةٍ في علمِ التوحيدِ، والفقهِ، والأصولِ، والمصطلحِ، وأصولِ التفســيرِ، وأدبِ الطلبِ = يكونُ قد تأهَّل ليَتنسَّمَ العلمَ وعبيرَ أخبارِه، ويعرف عن ماذا كانوا يتحدثون؟ وكيف أتى لهم تقعيدُ تلك القواعدِ؟ وما هي أدلَّتُهم؟ وكيف يتمُّ دفعُ الخطأِ عنها؟

أهميةُ مرحلةِ استكمالِ التكوينِ:

تَبرُزُ من خلالِ أمورٍ، منها:

١- أنَّ الخائضَ في منهجٍ تأصيليٍّ دونَ استكمالِ التكوينِ العلميِّ = جامعٌ مِن كلِّ فنٍّ بطرَفٍ؛ فهو مُثقَّفٌ لا يخدمُه علمُه -في الأغلَبِ- عندَ ورودِ شُبهةٍ، أو ظهورِ إشكالٍ، أو تحقيقِ مناطٍ على الواقعِ العلميِّ.

والحقيقةُ أنَّ سكينةَ القلبِ، والطمأنينةَ في العلمِ والفتوى تتحققُ فيمَن أتمَّ مرحلتَي التأصيلِ واســتكمالِ التكوينِ؛ كما قال الزَّركَشــيُّ رحمه اللهُ: (والحكيــمُ إذا أراد التعليمَ، لا بدَّ له أن يجمعَ بينَ بيانَينِ: إجماليٍّ

تَتشوَّفُ إليه[1] النفسُ، وتفصيليٌّ تَسكُنُ إليه»[2].

٢- أنَّ التَّعالُمَ، والغـرورَ العلميَّ، والجُرْأةَ على طرحِ الرأيِ، مَنشـؤُه في طبقةٍ مرَّتْ على العلومِ، ولم تُتقِنْ آحادَهـا، فوهْمُ الإتقانِ والتحصيلِ يجدُ طريقَه عبرَ مساربِ المرحلةِ الأوَّليَّةِ في الطلبِ قبلَ اكتمالِ التأهيلِ العلميِّ.

٣- أنَّ كثيرًا ممَّن انـدرجَ في الطلبِ، وتفرَّغ لنَيلِـه، ممَّن خاض المرحلةَ الأولى واكتفَى بها = آلَ أمرُه إلى ضياعٍ علميٍّ، وتفريطٍ، وحسـرةٍ على حالِه. وأنتَ تجدُ هذا في أبناءِ جيلِكَ، وفي نفسِـكَ؛ فترى مَن انسـبَكَ في منهجِ التأصيلِ العلميِّ، ثُمَّ انقطَع ولم يُكمِلْ تأهيلَه، يجدُ مِن نفسِـه العجزَ والتشتُّتَ بينَ ثنايا الطلبِ، ويحتاجُ إلى مُعِينٍ، فهو عارفٌ إجمالًا تائهٌ تفصيلًا!

حقيقةُ استكمالِ التكوينِ:

تظهرُ حقيقةُ هذا المصطلحِ إذا نظَرْنا إليه باعتبارِ مُفرَدَيْه، وباعتبارِ إطلاقِه على مرحلةٍ علميةٍ مُعيَّنةٍ.

فبالأوَّلِ: باعتبارِ مُفرَدَيْه:

١- الاستكمالُ: أصلُه (كمُل)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمامِ الشيءِ[3].

---

(١) أفاد مُحقِّقُه أنَّ في نسخةٍ أخرى: (معه). وهذه تفيدُ معنًى رائقًا؛ كأنَّ النفسَ تتشوَّفُ أكثرَ معَ الخوضِ في التفصيلِ بعدَ مرحلةِ التأصيلِ الإجماليِّ.

(٢) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥-٦٦.

(٣) «مقاييس اللغة» ٥/ ١٣٩.

واستكمَل الشـيءَ: اسـتَتَمَّه[1]، ويُقالُ: تكامَل الشـيءُ، وأكمَلتُه أنا، وأكمَلتُ الشيءَ؛ أي أجمَلتُه وأتمَمتُه. وأكمَلَه هو، واستكمَله، وكمَّله: أتمَّه وجمله[2].

٢- التَّكوينُ:

أصلُ مادَّةِ (التكوين): إيجادُ شيءٍ مسبوقٍ بمادَّةٍ[3].

وقال ابنُ الأثيرِ: الكونُ: مصدرُ (كان) التَّامَّةِ. يُقالُ: كان يكونُ كونًا؛ أي وُجِد واستَقَرَّ[4]. ويُقالُ: كوَّنه فتكوَّن؛ أي أحدَثَه فحدَث[5].

وفي الحديثِ عن أبي سعيدِ الخُدريِّ -رضي اللهُ عنه-، سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «مَن رآني فقد رأى الحقَّ؛ فإنَّ الشَّيطانَ لا يَتكوَّنُني»[6]؛ أي يَتشبَّهُ بي، ويَتصوَّرُ بصورتي. وحقيقتُه: يصيرُ كائنًا في صورتي[7].

فمَدارُها على إحداثِ شيءٍ لم يكنْ، واستقرارِه.

وبالثاني: باعتبارِ إطلاقِه على المرحلةِ المُعيَّنةِ -استكمال التكوين العلمي-: (إتمامُ المُتعلِّمِ طريقَ التَّعلُّمِ، وثبوتُه عليه؛ للحصولِ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ).

فاستكمالُ التكوينِ -إذَنْ- إكمالٌ للتأهيلِ، وتصوُّرٌ دقيقٌ، واطِّلاعٌ واسـعٌ، وتمحيصٌ؛ للحصولِ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ.

(١) «المعجم الوسيط» ٢/ ٧٩٨.
(٢) «لسان العرب» (كمل) ١١/ ٥٩٨.
(٣) «تاج العروس» ٣٦/ ٧١.
(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» ٤/ ٢١١.
(٥) «مختار الصحاح» (كون) ٢٤٣.
(٦) رواه البخاريُّ رقم (٦٩٩٧).
(٧) «النهاية في غريب الحديث» ٤/ ٢١١.

المرحلةُ الثالثةُ
البحثُ العلميُّ والتصنيفُ

مرحلــةُ البحثِ العلميِّ تأتي كمَطلَــبٍ مُهِمٍّ لطالبِ العلمِ، بعــدَ إنهاءِ مرحلةِ التأصيلِ، وشــروعِ الطالبِ في اســتكمالِ التكوينِ، والاطِّلاعِ علــى مصادرِ العلمِ، والتعاملِ مع الكتبِ المبسوطةِ في الفنونِ المُختلِفةِ.

أهميةُ البحثِ لطالبِ العلمِ:

للبحثِ أهميةٌ كبرى لطالبِ العلمِ، منها:

١- وَثاقةُ العلمِ، واستِحكامُه:

فالبحثُ يُوثِّقُ أدلَّةَ الطالبِ، ويُحكِمُ نسجَ ذهنِه، وبه يَصلُبُ عُودُه، ويَثبُتُ قلبُه ويَمتُن، خلافًا لمَن كانت عمدتُه السماعَ، وأدلَّتُه «أظنُّ» و «أتوقَّعُ»!

يقول الخضر حسين رحمه الله: (الملكاتُ تقوى بالبحثِ في لُباب العلمِ أكثر مما تقوى بالمناقشةِ في ألفاظِ المؤلِّفين)[1].

٢- فتقُ عقلِ الطالبِ وأُفُقِه للعلومِ:

فالبحثُ يثيرُ لديه حبَّ الاطِّلاعِ والاستزادةِ، ومع إلفِ ذلك يعتادُ عقلُه البحثَ

(١) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦٤.

عن حقائقِ العلومِ وجذورِ القضايا.

٣- سلامةُ الطالبِ من الجمودِ والعصبيةِ:

فالجمودُ والعصبيةُ من أخطرِ ما تتوارثُه العقول، وللأسـف تشاعُ بين الطلابِ وتـروجُ تحت مسـمَّى الاتباعِ والثبات، وغيـر ذلك، فالبحثُ يحصـنُ الطالبَ من الإشاعاتِ والخُرافاتِ والتي قد تروجُ بأسماءٍ علمية ومصطلحاتٍ شرعية.

٤- الاطّلاعُ على دقائقِ العلمِ وحقائقِه.

الفرقُ بينَ البحثِ العلميِّ والتصنيفِ:

البحثُ العلميُّ لا ينفكُّ عنه طالبُ علمٍ، فإذا أمضى الطالبُ شـطرًا حسنًا في البحثِ، معَ اكتمالِ نظرتِه للعلمِ ودروبِه؛ تأهَّل للتصنيفِ.

فمرحلةُ التصنيفِ -في الواقعِ- تاليةٌ لمراحلِ: التأصيلِ، واستكمالِ التكوينِ، والبحثِ العلميِّ، وحقيقتُها هي حقيقةُ البحثِ العلميِّ، إلَّا أنّه يَعرِضُ علمَه على غيرِه مِن إخوانِه ومشايخِه؛ للإفادةِ، والتقويمِ، والنظرِ فيما آلَ إليه نظرُه وفحصُه. وقد ينشرُ الطالبُ بحثَه لإفادةِ العامَّةِ.

فائدةٌ:

حكَى ابـنُ الجوزيِّ -رحمه اللـهُ- عن الوزيـرِ يحيى بنِ محمدِ بـنِ هُبَيرةَ -رحمه اللهُ- أنه قال: (يحصُلُ العلمُ بثلاثةِ أشياءَ:

أحدُها: العملُ به؛ فإنَّ مَن كلَّف نفسَــه التكلُّـمَ بالعربيةِ؛ دعاه ذلك إلى حفظِ النحوِ، ومَن سأل عن المُشكِلاتِ ليعملَ فيها بمُقتضَى الشرعِ؛ تعلَّم.

والثاني: التعليمُ؛ فإنَّه إذا علَّم الناسَ؛ كان أدعَى إلى تعليمِه.

الثالثُ: التصنيفُ؛ فإنَّه يُخرِجُه إلى البحث، ولا يتمكنُ مِن التصنيفِ مَن لم يدركْ غورَ ذلك العلمِ الذي صنَّف فيه)[1].

(1) «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي ١/ ١٥٦-١٥٧.

إشاراتٌ للباحثِ والمصنِّفِ

البحثُ حياةُ الطالبِ والمعلِّمِ، وهذه إشاراتٌ يُرجَى منها النفعُ -إن شاء اللهُ- لمَن تأمَّلَها:

العلمُ بحرٌ لا ساحلَ له

فما من مسـألةٍ إلَّا وترتبطُ بها أخرى، ومَن خاض غمارَ التنقيبِ عن المسائلِ؛ أدرَكَ ذلك عِيانًا، فكلما أوغَلَ الباحثُ في بحث مسـألة؛ أدرَكَ أنَّ بينَها وبين مسـألة أخـرى صلة، ووجد قاعدةً تُحكِمُ أصلَها، أو فرعًا اسـتُمِدَّ منها، أو اختلافًا في ضبطِ الصورةِ، وتخليص محل الوفاق من مواضع النزاع.

والحالُ كما قيل لحمَّادٍ الرَّاويةِ: أمَا تشـبعُ من هذه العلومِ؟! فقال: اسـتفرَغْنا فيها المجهودَ، فلم نبلغْ منها المحدودَ، فنحنُ كما قال الشاعرُ:

إذا قطَعْنـا عَلَمًـا بدا عَلَمْ[1] ....

---

(١) «أدب الدين والدنيا» ص٣٧- ٣٨. وأصل هذا المثل كما قال البغدادي في «خزانة الأدب» ٥/ ١٦٧:

«وزاد أبو عبيد البكري بعد هذا في شرح أمالي القالي:

(قد طُويت بطونُها على الأدَمْ	إذا قطعن علمًا بدا عَلَمْ)
(فهنَّ بَحْثًا كمُضِلَّات الخدَمْ	حتى تناهينَ إلى باب الحكم)

العلمُ: الجبل. قال الزمخشري في «مستقصى الأمثال»: قوله:

إذا قطعن علما بدا علم

=

فلتكنْ -إذَنْ- باحثًا، لا هاويًا للتأليفِ، متى تَمَّ له الرصفُ، وظهر هيكلُ البناءِ توقّفتْ آلةُ النظرِ والإضافةِ، وظنَّ ذلك كافيًا!

نظرُ الباحثِ الحقيقيِّ على المسألةِ والفائدةِ

وقال الإمام أبو المظفر السمعاني رحمه الله تعالى: (وما يُشبَّه الفقيه إلا بغوّاص في بحر دُرٍّ كلما غاص في بحر فطنته استخرج دُرًّا، وغيره يستخرجُ آجرًا، وطالب الزيادة في منهج الزيادة معانٌ منصور، وطالب الزيادة على ما لا مزيدَ عليه مُبعدٌ مخذول، والله تعالى يفتح عين بصيرة من أحبَّ من عباده بطَوْلِه وفضلِه، ويُعمي عينَ من يشاء بقهره وعدله)[1].

فلا يَشْغَل فِكرَه بـ (متى الوصولُ إلى نهايتِها؟)، فمسألةٌ تُسلِمُه إلى أخرى، ونظرٌ يدعوه إلى نظرٍ آخرَ، وتأمُّلٌ يُؤدِّيه إلى تعقُّبٍ، وهكذا إلى أن يصطبغَ فؤادُه بخُلُقِ التَّروِّي والتأنّي والتحقيقِ العلميِّ.

وكم رأينا في الواقعِ مَن إذا طلَب منه مُعلِّمُه بحثًا في مسألةٍ؛ اغترَّ لذلك كثيرًا، بل يبدأُ في التفكيرِ في دارِ نشرٍ، فتسبحُ به أحلامُ اليقظةِ ليغوصَ في بحرِ أوهامٍ!!

البحثُ مهارةٌ وحُبٌّ

فمتى أعمَلَ الطالبُ فكرَه في البحثِ والتنقيبِ، وأُعِينَ بحبِّ العلمِ والنَّهَلِ منه؛

= مثَلٌ يضرب لمن يفرُغ من أمر فيعرِضُ له آخر.
وقوله: «فهن بحثًا» أي يبحثن بحثًا بمناسِمهنَّ الأرض، كما يبحث الـمُضِلّات خَلاخِيلَهنَّ في التراب.
والخَـدَم: جمع خَدَمَة بفتح الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة، هو الخلخال. والضِّئضِئُ بكسر الضادين المعجمتين والهمزة الأولى بينهما ساكنة: الأصل والجنس. والبُحبوح بضم الباءين والحاء المهملة الأولى بينهما ساكنة: الوسط».

(١) «القواطع» ١/ ٨٨.

مُكّن منه، وظَفِر بمطلوبِه؛ إذْ لا يُنالُ بتكلُّفٍ ولا مُحاكاةٍ دونَ مهارةٍ وحُبٍّ يدفعانِه إلى الاستزادةِ والوصولِ إلى حقيقةِ العلمِ في المسألةِ التي يَنشُدُها، ويرغبُ في اقتضاضِها وبلوغِ جَذرِها.

البحثُ حياةُ العالِمِ ووسيلةُ المتعلّمِ

البحـثُ حياةُ العالِمِ؛ إذْ هو وَقودُه، وماءُ حياتِه، وهو سـبيلُ الوصولِ إلى رتبةِ العالِميَّةِ والحفـاظِ عليها، فإذا ما توقَّفتْ آلةُ البحثِ؛ ضمَرَ العلمُ، وأُسـدِلَ حجابُ الجهلِ، وتطايَرَ المحفوظُ.

فلا مناصَ -إذَنْ- من البحثِ؛ إذْ لا تقدُّمَ في مدارجِ العلمِ، ولا رفعةَ للأُمَّةِ إلَّا بالبحثِ العلميِّ الجادِّ والنافعِ.

وليس أضرَّ علـى الأُمَّةِ من قالةٍ تهدُّ جبلَ العزيمةِ، وتطفـئُ نورَ الذهنِ، وُلِدتْ مِن رَحِمِ الظلامِ والبطالةِ، منهـا: قولُهم: (العلمُ موجودٌ في الكتبِ والبحوثِ، والمهمُّ مَن الذي يقرأُ)، أو (الناسُ شُـغِلتْ عن العلمِ، والآنَ جاء دَورُ الصورةِ والإعلامِ)؛ فهي عباراتٌ تحطُّ من قدرِ قائلِها، وتنقضُ عزمَ مستمعِها.

فَحْواها: تركُ النظرِ والبحثِ عن حكمِ اللهِ ورسـولِه ﷺ، والاستسلامُ لفسادِ أهلِ هذا الزمنِ، وانصرافُهم إلى خداعِ الصورةِ وبريقِ الفضائياتِ.

وإنْ لم يكنْ في الانشـغالِ بالعلمِ الشـرعيِّ، والبحثِ في الشريعةِ وما يتعلقُ بها، إلا إبرازُ الدَّورِ الشـرعيِّ، وتنزيلُ الأحكامِ، وفرضُ رؤيةٍ شرعيةٍ لحوادثِ العصرِ وتِقْنيّاتِه ومُلابَسـاتِه = لكفَى. وأين هؤلاء من النوازلِ العَقَديَّةِ، والسياسـيةِ، والطِّبِّيَّةِ، والاقتصاديةِ، وغيرِها؟!

كأنَّ المُرَدِّدَ لهذه العباراتِ تَسلَّلتْ إليه مادَّةُ هزيمةٍ من الواقعِ!!

ومن جميلِ المنقولِ ما ذكَره المُزَنيُّ، حيثُ قال: سمعتُ البُوَيطيَّ يقولُ: قلتُ للشافعيِّ: إنَّكَ تتعنَّى[1] في تأليفِ الكتبِ وتصنيفِها، والناسُ لا يلتفتون [إليكَ] ولا إلى تصنيفِكَ؟! فقال لي: (إنَّ هذا هو الحقُّ، والحقُّ لا يضيعُ)[2].

البحثُ اختِمارٌ

وهذا كما قال الإمامُ الزُّهْريُّ -رحمه اللهُ- فيما حكاه عنه يونسُ بنُ يزيدَ، حيثُ قال: قال لي ابنُ شهابٍ: يا يونسُ، لا تُكابِرْ هذا العلمَ؛ فإنَّما هو أوديةٌ، فأيُّها أخذتَ فيه قبلَ أن تبلغَه؛ قُطِعَ بكَ، ولكنْ خُذْه معَ الليالي والأيامِ[3].

البحثُ أمانةٌ

الباحثُ، والكاتبُ، والمؤلِّفُ، والمعلِّمُ = مِن خيرِ الوظائفِ وأشرفِ المهنِ، ألا وهي التوقيعُ عن ربِّ العالمينَ سبحانه، وتبليغُ الشرعِ، والنُّصحُ للأُمَّةِ الإسلاميةِ، وهذا يدعونا لاستشعارِ الأمانةِ في البحثِ والنقلِ؛ فما لم يكنِ الباحثُ أمينًا مُتجرِّدًا عن الهوى والأغراضِ؛ كان ما يَسطُرُه إفسادًا، وسعيًا في إضلالِ الخلقِ، وخيانةً للأُمَّةِ!

نستشعرُ هذه الأمانةَ في صنيعِ الإمامِ المزنيِّ؛ لنرى حرصَه على فهمِ الناسِ، وأن يباركَ اللهُ لهم في العلمِ، ويُعِينَهم عليه.

يقولُ الإمامُ المزنيُّ رحمه اللهُ: (بقيتُ في تصنيفِ هذا «المُختصَرِ» سِتَّ عشرةَ سنةً، وما صلَّيتُ للهِ فريضةً ولا نافلةً إلَّا سألتُ اللهَ البركةَ لِمَن تعلَّمه ونظَر فيه)[4].

---

(١) أفاد مُحقِّقُه أنَّ هذه اللفظةَ في «المُختصَرِ»: (تتعبنا). [ولعل الصواب: «تتعنَّى»]. (الشيخ محمد عزير شمس).

(٢) «تاريخ دمشق» ٥١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٤٣١، رقم ٦٥٢.

(٤) «خطبة الكتاب المؤمَّل» لأبي شامة، ص١٣٧.

ابحثْ فيما تحتاجُه أُمّتُكَ، لا أن تُجارِيَ موضةَ العصرِ

ذلك أنَّ الواقعَ يحملُ زخمًا كثيرًا، وسفاهاتٍ، وانصرافًا عن الجادَّةِ النافعةِ، هذا على الواقعِ الحياتي للناسِ. أمّا في الواقعِ العلميِّ؛ فإنَّ هوسَ الموضةِ، والكتابةَ للكتابةِ، وحديثَ المُجاراةِ هو الغالبُ؛ فـ (أبناءُ هذا الزمانِ لا تتوجَّهُ طبائعُهم إلى إدراكِ العلومِ ومبانيها، واقتباسِ فوائدِ الفنونِ ولو بفهمِ بعضِ معانيها، فضلًا عن أن يحيطوا بجميعِ المقاصدِ والغاياتِ، ويبلغوا من معرفتِها وضبطِها إلى النهاياتِ، إلَّا واحدًا من الألوفِ المُؤلَّفةِ، وفردًا من الأحزابِ المُتحزِّبةِ؛ ممَّن لهم همَّةٌ شامخةٌ، ورويةٌ داريةٌ في كسبِ المعارفِ والعلومِ، أو دولةٌ باذخةٌ، وقدرةٌ ساريةٌ في جمعِ المقسومِ؛ فإنَّه قد يرفعُ الرأسَ إلى معرفةِ العلمِ بدءًا وغايةً، وينحو إلى استعلامِ أمرِ الأولِ والنهايةِ.

وكلُّ الخلقِ وجلُّهم مغمورون في اللَّذّاتِ العاجلةِ الخاطئةِ الكاذبةِ الفانيةِ، ويُؤثِرونها -ولو كان بهم خَصاصةٌ- على النِّعَمِ الآجلةِ الدائمةِ الباقيةِ، إلَّا مَن عصَمه اللهُ تعالى.

فكأنَّ الناسَ كلَّهم قد صاروا أجناسًا بلا فصولٍ، أو إناثًا بلا فحولٍ! معَ أنَّ الإنسانَ إنَّما تميَّزَ عن الحيوانِ بالنطقِ والعلمِ والعرفانِ، ولو لم يكنِ العلمُ في البشرِ؛ لكانَ هو وجميعُ الحيواناتِ سواسيةً في كلِّ شانٍ! فإنَّا للهِ على ذَهابِ العلمِ وأهليه، وفشوِّ الجهلِ وعُلوِّ ذويه)[1].

والواجبُ على طالبِ العلمِ: أن يبتعدَ عن الخوضِ فيما يخوضُ فيه الناسُ، إلَّا أن يسعى لإصلاحِ الواقعِ وتقويمِه، ويختطَّ لنفسِه طريقًا إلى نفعِ الخلقِ وردِّهم إلى الجادَّةِ، فيبدأ بغاباتِ الأوهامِ ليحصدَها بمِعْوَلِ العلمِ الشرعيِّ، ويستفرغَ الوُسعَ في

(1) «أبجد العلوم» ص١٨.

إرشادِهم ودَلالتِهم على ما ينفعُهم في دينِهم ودنياهم. ولا شكَّ أنَّ ذلك يشقُّ على السالكِ أولَ أمرِه، لكنَّ اللهَ سيُعِينُه ويُوفِّقه.

البحثُ دُرْبَةٌ على استقلالِ الشخصيةِ العلميةِ

بناءُ الشخصيةِ العِلميةِ واستقلاليتُها من مَهمَّاتِ الطالبِ النابهِ، الحريصِ على إكمالِ تكوينِ نفسِه، وكذلك هي من مهماتِ المعلِّمِ الناصحِ؛ إذْ يتحتمُ عليه أن يعينَ الطالبَ على استقلالِ الشخصيةِ العلميةِ، ويأخذَ بيدِه ليقفَ على قدميه منفردًا معَ الكتبِ والبحثِ والتحليلِ والموازنةِ.

وقد قال الخطيبُ البغداديُّ رحمه اللهُ: (وكان بعضُ شيوخِنا يقولُ: مَن أراد الفائدةَ؛ فليكسرْ قلمَ النَّسخِ، وليأخذْ قلمَ التخريجِ)[1].

وصدَقوا، فبالجمعِ والبحثِ والتصنيفِ تُصقَلُ الشخصيةُ العلميةُ، وتُنالُ الفوائدُ بلا حدٍّ، ويأتيه العلمُ صافيًا غضًّا طريًّا مُبارَكًا، لم يُشَبْ بنقصٍ أو سوءِ فهمٍ أو تأويلٍ خاطئٍ.

وهنا مُفارَقةٌ عجيبةٌ بينَ حالِ المُقتصِرِ على النسخِ والقراءةِ دونَ الفحصِ والتحليلِ والبحثِ، وحالِ مَن خاض بحارَ البحثِ؛ فكأنَّ ذهنَ الأولِ جامدٌ، والآخرِ مُتَّقِدٌ.

ترى سِرَّ هذا المعنى كامنًا في عبارةِ الحافظِ ابنِ حجرٍ -رحمه الله-؛ إذْ يقولُ في ترجمةِ سراجِ الدينِ ابنِ المُلقِّنِ -رحمه الله-: (ومهَر في الفنونِ، وكان في أولِ أمرِه ذكيًّا فَطِنًا، رأيتُ خطوطَ فضلاءِ ذلك العصرِ في طباقِ السماعِ بوصفِه بالحفظِ ونحوِه من الصفاتِ العَلِيَّةِ. ولكنْ لمَّا رأيناه؛ لم يكنْ في الاستحضارِ ولا في التصرُّفِ

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢/ ٢٨٢.

بذلك؛ فكأنَّه لمَّا طال عمرُه استروَح وغلَبتْ عليه الكتابةُ، فوقَف ذِهنُه)[1].

البحثُ يُحرِّرُ الطالبَ من الجهلِ، ويُكمِّلُ أهليَّتَه

فالبحثُ يؤدِّي إلى اكتمالِ الأهليةِ بالتفتيشِ والتنقيبِ والمراجعةِ، كما أشار إلى ذلك ابنُ جَماعةَ؛ حيثُ قال: (فإنَّه يَطَّلِعُ على حقائقِ الفنونِ ودقائقِ العلومِ؛ للاحتياجِ إلى كثرةِ التفتيشِ والمطالعةِ والتنقيبِ والمراجعةِ، وهو كما قال الخطيبُ البغداديُّ: (يُثبِّتُ الحفظَ، ويُذكِي القلبَ، ويَشحَذُ الطبعَ، ويجيدُ البيانَ، ويُكسِبُ جميلَ الذِّكرِ وجزيلَ الأجرِ، ويُخلِّدُه إلى آخرِ الدهرِ)[2].

ونصُّ الخطيبِ كما في «الجامع»: (قَلَّ ما يَتمهَّرُ في علمِ الحديثِ، ويقفُ على غوامضِه، ويستثيرُ الخفيَّ من فوائدِه، إلَّا مَن جمَع متفرِّقَه، وألَّف مُتشتَّتَه، وضمَّ بعضَه إلى بعضٍ، واشتغَل بتصنيفِ أبوابِه وترتيبِ أصنافِه؛ فإنَّ ذلك الفعلَ ممَّا يُقوِّي النفسَ، ويُثبِّتُ الحفظَ، ويُذكِي القلبَ، ويشحذُ الطبعَ، ويَبسُطُ اللسان، ويجيدُ البيانَ، ويكشفُ المُشتبِهَ، ويُوضِّحُ المُلتبِسَ، ويُكسِبُ أيضًا جميلَ الذِّكرِ وتخليدَه إلى آخرِ الدهرِ)[3].

والبحثُ أيضًا تحريرٌ للطالبِ من الجمودِ، وإبعادٌ له عن التعصُّبِ للأقوالِ والمشايخِ والعلومِ والأفكارِ؛ لأنَّه في زيادةٍ، وحراكٍ فكريٍّ دؤوبٍ.

بالبحثِ والكتابةِ تَخلُدُ العلومُ

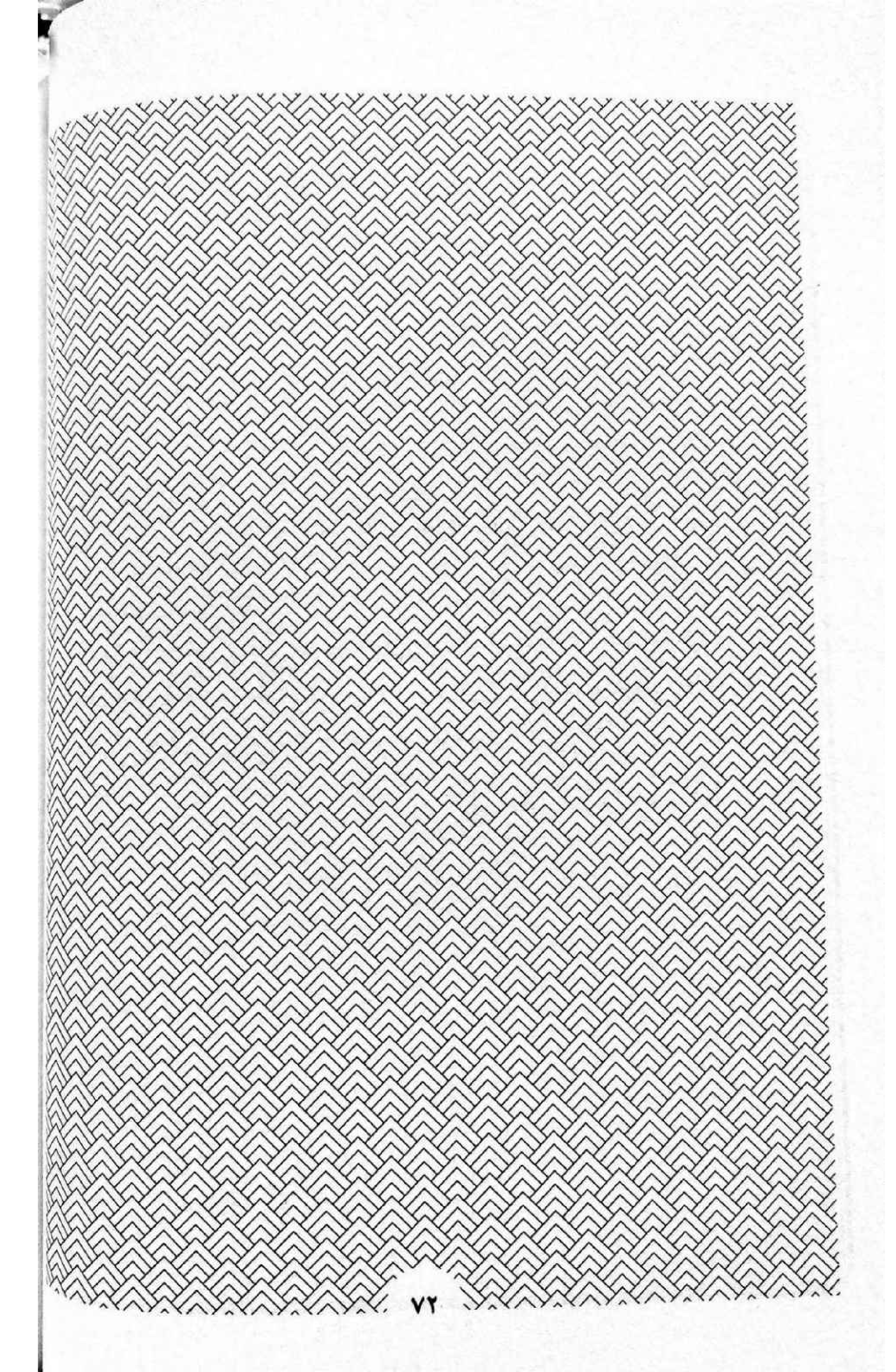
فبالبحثِ تبقى العلومُ، وتنتشرُ أحكامُ اللهِ ورسولِه ﷺ، وتُشاعُ بينَ الناسِ، فلا تصرِفنَّكَ عن البحثِ والكتابةِ والتنقيبِ سماسرةُ السياسةِ والإعلامِ.

(1) «ذيل الدُّرَر الكامنة» ص١٢٢.
(2) «تذكرة السامع والمتكلم» ص٥٩-٦٠.
(3) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ٢/ ٢٨٠.

التَّدرُّجُ التَّحصِيليُّ

لا يخـوضُ في فنٍّ حتَّى يسـتوفيَ الفنَّ الَّـذي قبلَه؛ فإنَّ العلـومَ مُرتَّبةٌ ترتيبًا ضروريًّا، وبعضُها طريـقٌ إلى بعضٍ، والمُوفَّقُ مَن راعَى ذلـك التَّرتيبَ والتَّدريجَ.. وليكنْ قصدُه في كلِّ علمٍ يَتحرَّاه التَّرقِّيَ إلى ما هو فوقَه..

أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه اللهُ



التَّدرُّجُ في نيلِ العلمِ من أبرزِ معالمِه وشـروطِه، وهو سُـنَّةٌ شـرعيةٌ وكونيةٌ، ومُراعاةٌ للنفسِ البشـريةِ. قال اللهُ تعالـى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسـراء: ١٠٦]. يقول العلَّامةُ عبدُ الرَّحمنِ السَّـعْديُّ رحمه اللهُ: على مهلٍ؛ ليَتدبَّروه ويَتفكَّروا في معانيه، ويستخرجوا علومَه.

ويقـولُ اللهُ تعالـى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وفي «صحيحِ البخاريِّ»: قال ابنُ عبَّاسٍ -رضي اللهُ عنهما-: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾: (حُلَماءَ فُقَهاءَ). ويُقالُ: (الرَّبَّانيُّ: الَّذي يُربِّي الناسَ بصِغارِ العلمِ قبلَ كِبارِه).

فالتَّدرُّجُ في مراقي التعلمِ: مُراعاةٌ لطبيعةِ النفسِ البشـريةِ في الترتيبِ الطبيعيِّ للمعاني والمعلوماتِ؛ إذِ البدءُ بفكرةٍ عامَّةٍ مُثيرٌ للذِّهنِ لولوجِ التفاريعِ شـيئًا فشـيئًا؛ ليَحصُـلَ حينَئذٍ ترتيبُ المعانـي الواردةِ عليه؛ فيكونَ أدعَى لرسـوخِه وثباتِه. أمَّا لو كان العكسُ حاصلًا؛ لأدَّى ذلك إلى خلطِ مسائلِ العلمِ، وتَحرُّرِها عن رباطٍ مُنسبِكٍ وعِقْدٍ مُتماسِـكٍ. فكان التدرجُ ضرورةً علميةً، رُوعِيتْ فيها طبيعةُ النفسِ، وحاجتُها إلى حصولِ المعاني شيئًا بعدَ شيءٍ.

حقيقةُ التّدرُّجِ التّحصيليِّ

يقولُ ابنُ فارسٍ: الدالُ والراءُ والجيمُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على: مُضِيِّ الشيءِ، والمُضِيِّ في الشيءِ.

مِن ذلك قولُهم: درَجَ الشيءُ؛ إذا مضَى لسبيلِه. ورجَعَ فلانٌ أدراجَه؛ إذا رجَعَ في الطريقِ الذي جاء منه. ودرَجَ الصبيُّ؛ إذا مشَى مشيتَه. قال الأصمعيُّ: درَجَ الرجلُ؛ إذا مضَى ولم يُخلِّفْ نسلًا. ومدارجُ الأكَمةِ: الطُّرُقُ المُعترِضةُ فيها.

قال الفيروزآباديُّ: كسَمِعَ: صَعِدَ في المراتبِ. وعلَّل الزَّبيديُّ: لأنَّ الدرجةَ بمعنى المنزلةِ والمرتبةِ[1].

وقال اللّيثُ: الدرجةُ: الرِّفعةُ في المنزلةِ. ودرجاتُ الجِنانِ: منازلُ أرفعُ[2].

فالمُختارُ من معاني (درَج): الصُّعودُ في المراتبِ العليَّةِ.

وأمّا في الاصطلاحِ:

فبعدَ النظرِ في مادَّتِها اللُّغويَّةِ، يظهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّها تصلحُ لمعنيَينِ مفيدَينِ هنا:

---

(١) «تاج العروس» ٥/ ٥٥٥.

(٢) «تهذيب اللغة» ١٠/ ٣٣٨.

الأوَّلُ: الترقِّي من الأسهلِ إلى المُركّبِ:

كالتَّرقِّي من إدراكِ أصولِ الشـيءِ وقواعدِه العامَّةِ، إلـى الجزئياتِ التي بُنيتْ عليها، أو الترقِّي من تصوُّرٍ عامٍّ إلى التصديقِ، أو صغارِ العلمِ قبلَ كبارِه.

ويمكـنُ أن يُعبِّرَ عنه -أيضًا- بالترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، أو من الأهمّ إلى المهمّ في علومٍ، والترقِّي يقعُ في كتبٍ ومسائلِ كلِّ فنٍّ؛ على حدِّ قولِ القائلِ:

إنَّ الأهمَّ علـى المُهِمِّ مُقدَّمٌ   راعِ التَّدرُّجَ عندَ أهلِ الشَّانِ

يقولُ أبو حامدٍ الغزالـيُّ رحمه اللهُ: (وليكنْ قصدُه في كلِّ علمٍ يتحرَّاه التَّرقِّي إلى ما هو فوقَه)[1].

الثاني: التعاقبُ:

(وهو الانتقالُ إلى مرحلةٍ بعدَ إمضاءِ ما يُقدَّم عليها)، فيشملُ:

١- تعاقـبَ العلومِ؛ كعلومِ الغايةِ ثُـمَّ علومِ الآلةِ، والأهمَّ من العلـومِ ثُمَّ المهمَّ؛ كالتَّوحيدِ ثُمَّ الفقهِ.

٢- تعاقبَ المراحلِ: من مبتدئٍ فمُتوسِّطٍ فمُنتهٍ.

٣- تعاقبَ الكتبِ: وذلك في المرحلةِ بعينِها من كتبٍ تخرُّجٍ إلى استكمالِ التكوينِ إلى إثراءٍ معرفيٍّ.

فالطالبُ مُترقٍّ في مدارجِ العلومِ؛ يختارُ منها أنسبَ الكتبِ وأوفاها بالمقصودِ، ويتعلمُ أهمَّ ما فيها ويتقنُه، ويَعقُبُ ذلك تدرُّجٌ في المسائلِ، ثُمَّ العلومِ الأخرى، مُتنقِّلًا بيـنَ الكتبِ الأصليةِ فيها، وتركيـزُه على الانتقالِ من الأسـهلِ إلى الأصعبِ، ومن صغيرِها إلى كبيرِها.

(١) «إحياء علوم الدين» ص٦٤.

فالتدرجُ منهـجٌ أصيلٌ ونَفَسٌ طويـلٌ يُفضِي إلى مُكنةِ التحصيلِ، وهو سُنَّةٌ مباركةٌ، خلافًا لقفزِ المسـافاتِ أو الترددُّدِ بينَ سبلِ العلمِ، وتعجُّلِ النهاياتِ بلا منهجٍ مُتانٍ مُرتَّبٍ لن يصلَ صاحبُه لشيءٍ ذي بالٍ، ومِثلُه أيضًا عاجزُ الهمَّةِ المُتعلِّلُ بالتدرُّجِ في الطلبِ ليجعلَه مُتكأً تسويغيًا يُحلِّلُ به تأخُرَه في التحصيلِ وتخلُّفَه في العلمِ، فهذا في الحقيقةِ تدرُّكٌ وليس بتدرُّجٍ!

فالمـدارجُ والرُّتَـبُ ضرورةٌ فـي الطلـبِ؛ لأنَّ عوائقَ الفهمِ، ولغـةَ العلمِ، والمصطلحاتِ العلميةَ، والنقاشاتِ تَصُدُّه من قريبٍ، والسائرُ في منهجٍ مُتدرِّجٍ يُوقَّى هذه العثرةَ، ويَسهُلُ عليه فهمُ وتصوُّرُ العلمِ وعباراتِه، ودَرْكُ النِّسَبِ بينَ فروعِ العلمِ؛ لأنَّه ابتدأَ الفنَّ عاميًّا، ثُمَّ ترقَّى فيه، فترتَّبتْ لديه المسائلُ والأفكارُ، فتهيَّأَ لحملِ الأمانةِ العلميةِ، ومِثلُه خليقٌ بأن يُستأمَنَ على تراثِ الأُمَّةِ العِلميِّ.

يقولُ الشَّـوكانيُّ رحمه اللهُ: (فإنَّكَ إذا ترقَّيتَ مـن البدايةِ التَّصوُّريَّةِ إلى العِلَّةِ الغائيَّةِ -التي هـي أولُ الفِكرِ، وآخرُ العملِ-؛ كنتَ فردَ العالَمِ، وواحدَ الدهرِ، وقريعَ الناسِ، وفخرَ العصرِ، ورئيسَ القرنِ.

وأيُّ شرفٍ يُسامِي شرفَكَ، وأيُّ فخرٍ يُدانِي فخرَكَ، وأنتَ تأخذُ دِينَكَ عن اللهِ وعن رسـولِه ﷺ، لا تُقلِّدُ في ذلك أحدًا، ولا تقتدي بقولِ رجلٍ، ولا تقفُ عندَ رأيٍ، ولا تخضعُ لغيرِ الدليلِ، ولا تُعوِّلُ على غيرِ النَّقدِ)[1].

قال ابنُ حجرٍ رحمه اللهُ: (تعليمُ العلمِ، ينبغي أن يكونَ بالتدريجِ؛ لأنَّ الشـيءَ إذا كان في ابتدائِه سهلًا؛ حُبِّبَ إلى مَن يدخلُ فيه، وتلقاه بانبساطٍ، وكانت عاقبتُه غالبًا الازديادَ، بخلافِ ضدِّه)[2].

---

(١) «أدب الطلب ومنتهى الأرب» للشوكاني، ص١٣٠.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر ١/ ١٦٣.

فمَن راعَى هذه الرُّتَبَ والدرجاتِ؛ تأهَّل وحصَّل المرجوَّ من هذا العلم النافع، وقد ذكَر المُحِبِّـــيُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ أحدِ أعيانِ القرنِ الحادي عشَرَ: (ولازم والـــدَه في الفنونِ العلميَّةِ، وأخذ عمَّن عاصَره من أكابـــرِ العلماءِ، حتَّى رَقِيَ المراتبَ العليَّةَ، وجدَّ في التحصيلِ، واشتغَل بالعلومِ على الأنماطِ الحسنةِ، وسلَك في الطلبِ الطريقَ الأقومَ؛ وبدأ بما هو الأقدمُ؛ فشرَع في العلومِ الشرعيةِ، ثُمَّ صرَف الهمَّةَ للقيامِ بخدمتَيِ التدريسِ والإفتاءِ، والانتصابِ لجوابِ مَن سأل واستفتَى)[1].

---

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمُحِبِّيِّ ٣/ ١٦١.

ما يُعارِضُ التّدرُّجَ التّحصيليّ

يُعارِضُه أمورٌ، منها:

١- الإغراقُ في الجزئيّاتِ في مقامِ ضبطِ البداياتِ:

والأَوْلى ضبطُ الأصولِ قبلَ الشروعِ في الفروعِ، والتركيزُ في متنٍ مُختصَرٍ قبلَ الغوصِ في تفاريعِ التصانيفِ.

٢- حرصُ المبتدئِ على المجالسِ التي تُعنَى بالتفصيلِ والإسهابِ:

فيقطعُ الفيافيَ والأوقاتِ؛ حرصًا على التّتلمُذِ على العالمِ المُسهِبِ في الشّروحِ، قبلَ إدراكِ الأصولِ وأوائلِ العلومِ؛ وهذا يُضيِّعُ وقتَه، ويَغُرُّ نفسه!

كما يجبُ على العالِمِ ألّا يستوعبَ جميعَ ما بحثه في مجالسِه، أو يذكرَ كلَّ ما أدّاه إليه بحثُه؛ فالعالمُ إنّما يُعطِي ما يحتاجُ إليه السامعُ، ولا يعطي ما هو فوقَ مقدارِه.

والأَوْلى بالعالمِ أن يكتفيَ بالتسهيلِ والتفهيمِ وذكرِ القواعدِ، ويحرصَ على منحِ الآلةِ العلميةِ وملكتِها للطالبِ، شيئًا بعدَ شيءٍ، مُستعمِلًا التدرجَ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾، والرّبّانيُّ هو الذي يُربِّي الناسَ بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه.

وقد كان كثيرٌ من العلماءِ لا يُعلِّقُ على المتنِ إلّا بكلماتٍ يسيرةٍ، أو ذكرِ استشكالٍ يثيرُ ذِهنَ الطالبِ، ولا يُخرِجُه عن رُوحِ الكتابِ ولُبِّه، وإنّما يثيرُ مسائلَ تأتي على عرضِ الكتابِ؛ لأنّ مقصدَ العالمِ إنّما هو تفهيمُ الطالبِ، لا حشوُ ذهنِه بجميعِ

مسائلِ العلمِ في هذه المجالسِ؛ ذلك أنَّ استعراضَ محفوظاتِ الصُّدورِ ومضنوناتِ السطورِ تختلفُ أسلوبًا وصورةً عن مجالسِ التعليمِ والإفادةِ.

ومن عجيبِ الأمورِ، وآسَفِها: أن تُحمَّلَ المتونُ اليسيرةُ -المُفترَضُ فيها أن تدلَّ على حقيقةِ العلمِ بكلماتٍ قليلةٍ- آصارَ الخلافِ؛ فتدخلُ ورقاتُ المتنِ اليسيرِ مُعترَكَ الصراعِ لغةً واشتقاقًا، وترهقُ الأذهانَ نحوًا وإعرابًا، فيأتي مَن أراد تعلُّمَ متنِ «الورقاتِ» في أصولِ الفقهِ للجُوَينيِّ ليدرسَها في جلساتٍ، فإذا هي سنواتٌ، قد ملأها سوءُ التقديرِ للمتنِ وحاجةِ الطلابِ، وعدمُ البصيرةِ بحالِ التعليمِ! وكأنَّ الشارحَ والمعلِّمَ أخطآ، فظنَّ أنَّه يشرحُ «البرهانَ» لا «الورقاتِ»، ويريدُ أن يرى تطبيقاتِه الأصوليةَ على الفروعِ الفقهيةِ فيُدخِلَ الطالبَ في «نهايةِ المطلبِ»، وإذا تعلَّقتِ المسألةُ الأصوليةُ بامتدادٍ كلاميٍّ أو عَلاقةٍ بأصولِ الدِّينِ ذهَب إلى «الإرشادِ» للجوينيِّ؛ ليَتحرَّرَ له، أو يقرأها ويراجَعها سريعًا في «المسائلِ المُشترَكةِ» للشَّيخِ العروسيِّ!

يقولُ أبو حيَّانَ التَّوحيديُّ: (وإدخالُ العويصِ في المكانِ الذي يُحتاجُ فيه إلى رفعِ اللَّبسِ وزوالِ الإشكالِ = مُداجاةٌ في العلمِ[1]، وخيانةٌ للحكمةِ، وجنايةٌ على المُستنصِحِ)[2].

والحقيقةُ أنَّه لمَّا كثُرتِ الاستفاضةُ، ويُولِعَ في الحواشي والشُّروحِ؛ عزُب عن الطالبِ دَرْكُ مرامِ المصنِّفِ، وفهمُ عباراتِ المصنِّفِ.

---

(١) يقال: «فلان يُدَاجِي فلانًا»: مأخوذ من الدُّجية، وهي الظلمة أي يُساتره بالعداوة ويخفيها عنه. ينظر: أدب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محي الدين عبدالحميد، ص٤٠.
ولعل مقصد أبي حيان بالمداجاة في العلم: إخفاؤه وكتمه، فهي تحمل معنى الخداع وإظهار خلاف ما يبطن.

(٢) «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيَّانَ التوحيديِّ، ص٤٥١-٤٥٢.

ويمقارنةٍ يسـيرةٍ بينَ مَن تصدَّى لشرحِ الكتبِ بإسـهابٍ وإطالةٍ على حسابِ التأصيـلِ والإتقانِ -اللَّذينِ هما هـدفُ الطالبِ الأوَّلُ-، وبينَ مَن شـرَحه في عدَّةِ مجالسَ = تجدُ أنَّ مجالسَ الشـيخِ الأولِ [المُسـتفيضِ] قد خرَج عن لُبِّ الكتابِ، وأنفاسِ المصنِّفِ ونكهةِ مؤلِّفِه. وأمَّا مَن حصَره فكان مسـلكُه حسنًا؛ حيثُ نبَّه على غوامضِ المعاني ودقيقِ المباني، ووضَّح ما يَعسُرُ فهمُه، ويَعِزُّ ضبطُه، ولم يُسهِبْ إلَّا تفهيمًا أو اعتراضًا أو استدلالًا.

يقول الفيروزآباديُّ رحمه الله: (ومن شـأنِ الأستاذِ الكاملِ أن يرتبَ الطالبَ الترتيبَ الخاص بذلك العلم، ويؤدِّبه بآدابِه، وأن يقصدَ إفهامَ المبتدئِ تصورَ المسائلِ، وأحكامَها فقـط، وأن يثبتَها بالأدلةِ إن كانَ العلمُ مما يُحتاج إليه عند مَنْ يَسـتحضرُ المقدمات، وأما إيرادُ الشُّبهِ -إن كانت- وحلُّها فإلى المتوسطين المحققين)[1].

والخلاصةُ أنَّ (المقصودَ فـي كلِّ علمٍ مُدوَّنٍ: بيانُ أحـوالِ موضوعِه؛ أعني أحوالَه التي توجدُ فيه، ولا توجدُ في غيرِه، ولا يكونُ وجودُها فيه بتوسُّطِ نوعِ مُندرِجٍ تحتَـه؛ فإنَّ ما يوجدُ في غيرِه لا يكونُ من أحوالِه حقيقةً، بل هو من أحوالِ ما هو أعمُّ منه)[2].

والمتعلِّمُ بهذه الطريقةِ الجادَّةِ التأصيليةِ، تقوَى نفسُـه على المواصلةِ، وتتطلعُ همَّتُه إلى الزيادةِ، ولا يهابُ العلومَ هيبةً مانعةً من الاقترابِ منها، وما فاته من التفصيلِ والاستطرادِ (وسياسةِ العلمِ) في هذه المجالسِ = فسوف يُحصِّلُها في الكتابِ الآخَرِ.

وعلى مُعلِّمِه أن يُكلِّفَه بالاستزادةِ من القراءةِ في الشُّروحِ ومُراجَعتِها، على أن يكونَ جهدًا ذاتيًا بحثيًا، ولـو بعقدِ اختبارٍ له بعد إتمامِ جزءٍ منَ الكتابِ مثلًا؛ ليتمكن

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٥٠.

(٢) «أبجد العلوم» ص٥٤.

من إتقان ما علم، وتحصيل ما فاته بسبب الاختصار، والأهم هو: أن يزول عنه رُهابُ الكتبِ التأصيليةِ.

وهنا يَبرُزُ فارقٌ كبيرٌ بينَ عالِمينِ ومنهجيَّتينِ:

الأول: عالِمٌ مُرَبٍّ ينقلُ الملكةَ، ويُسلِّمُ مفاتيحَ العلومِ.

والثاني: عالِمٌ مركـزيٌّ، لا مصدرَ للطالبِ غيرُه، ولا مُرجِّحَ لديه إلَّا ما رجَّحه هو. فأوَّلُ أمرِه إلى التقليدِ لا محالةَ، وغربتُه بين كتبِ ومصادرِ الإسلامِ مُتحقِّقةٌ!

وإذا ابتُلِيَ الطالبُ ببعضِ ذلك؛ فلا يحزنْ، وليثقْ بأنَّ اللهَ سـيَتداركُه برحمتِه، فيجبُ عليه البحثُ عن مُعلِّمينَ آخرينَ، ويشـامُّ حُذَّاقًا ربَّانيِّينَ؛ يَترقَّوْنَ بالطُّلابِ في مدارجِ العلمِ بتأصيلٍ (أوَّليٍّ)، ثُمَّ استكمالِ تكوينٍ (تكميليٍّ)، ثُمَّ مِراسٍ وبحثٍ (نُقْلةٍ للعالِميَّةِ، وتدريبٍ على استقلالِ الشخصيةِ)؛ إذِ العلمُ هبةٌ وفضلٌ من اللهِ، ولا يحتكرُه أحدٌ من الأنامِ، وهو -سبحانه- يختصُّ به مَن شاء من عبادِه فضلًا وكرمًا.

***

وإليكَ يا شـاديَ العلمِ هذه النَّفْثةَ التي تستشـعرُ فيها حرَّ أنفـاسِ ابنِ بدرانَ -رحمه اللهُ-، وحرارةَ نبضاتِ قلبِه، وهو يشتكي ما نُدَندِنُ حولَه:

(اعلَمْ أنَّ كثيرًا من الناسِ يقضون السِّـنينَ الطِّوالَ في تعلُّمِ العلمِ، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يَحصُلونَ منه على طائلٍ، ورُبَّما قضَوا أعمارَهم فيه، ولم يرتَقوا عن درجةِ المبتدئين! وإنَّما يكونُ ذلك لأحدِ أمرينِ:

أحدُهما: عدمُ الذَّكاءِ الفِطريِّ، وانتفاءُ الإدراكِ التَّصوُّريِّ. وهذا لا كلامَ لنا فيه، ولا في علاجِه.

والثاني: الجهلُ بطرقِ التعليمِ. وهذا قد وقَع فيه غالبُ المعلِّمينَ؛ فتراهم يأتي

إليهم الطالبُ المبتدئُ ليتعلَّمَ النحوَ مثلًا، فيَشغلونه بالكلامِ على البسملةِ، ثُمَّ على الحمدلةِ أيّامًا بل شهورًا؛ ليُوهِموه سعةَ مداركِهم، وغزارةَ علمِهم!

ثُمَّ إذا قُدِّرَ له الخلاصُ من ذلك؛ أخذوا يُلقِّنونه متنًا أو شرحًا بحواشيه، وحواشي حواشيه، ويَحشُرون له خلافَ العلماءِ، ويَشغلونه بكلامِ مَن ردَّ على القائلِ، وما أُجيبَ به عن الرَّدِّ، ولا يزالون يضربون له على ذلك الوترِ، حتّى يرتكزَ في ذهنِه أنَّ نوالَ هذا الفنِّ مِن قبيلِ الصعبِ الذي لا يصلُ إليه إلّا مَن أوتِي الولايةَ، وحضَر مجلسَ القُربِ والاختصاصِ! هذا إذا كان المُلقِّنُ يفهمُ ظاهرًا من عباراتِ المُصنِّفينَ.

وأمّا إذا كان من أهلِ الشغفِ بالرُّسومِ، أُشِيرَ إليه بأنَّه عالمٌ، فموَّه على الناسِ، وأنزَل نفسَه منزلةَ العلماءِ المُحقِّقينَ، وجلس للتعليمِ، فيأتيه الطالبُ بكتابٍ مُطوَّلٍ أو مُختصَرٍ، فيَتلقّاه منه سردًا؛ لا يفتحُ له منه مُغلَقًا، ولا يَحُلُّ له طِلَّسْمًا، فإذا سأله ذلك الطالبُ المسكينُ عن حلِّ مُشكِلٍ؛ انتفَخ أنفُه ووَرِم، وقابَله بالسَّبِّ والشتمِ، ونسَبه إلى البهائمِ، ورماه بالزندقةِ، وأشاع عنه أنَّه يطلبُ الاجتهادَ!

ومِن أولئكَ مَن لا يرومُ الحماقةَ، لكنَّه يقولُ: إنَّنا نقرأُ الكتبَ للتبرُّكِ بمُصنِّفيها! وأكثرُ هؤلاءِ هم الذين يتصدَّرون لإقراءِ كتبِ المُتصوِّفةِ؛ فإنَّهم يُصرِّحون بأنَّ كتبَهم لا يفهمُها إلّا أهلُها، وأنَّهم إنَّما يَشغلون أوقاتَهم بها تبرُّكًا! ولَعَمْري لو تبرَّكَ هؤلاءِ بكتابِ اللهِ المُنزَّلِ؛ لكان خيرًا لهم من ذلك الفضولِ، وهؤلاءِ كالمُنبَتِّ لا أرضًا قطَع ولا ظهرًا أبقى.

ومنهم مَن يكونُ داريًا بالمسائلِ وحلِّ العباراتِ، ولكنَّه مُتعاظِمٌ في نفسِه، فإذا جاءه طالبُ علمِ الفقهِ؛ أحاله على «شرحِ مُنتهى الإراداتِ» إنْ كان حنبليًّا، وعلى «الهدايةِ» إن كان حنفيًّا، وعلى «التُّحفةِ» إنْ كان شافعيًّا، وعلى «شرحِ مختصرِ خليلٍ»

للحطَّابِ إنْ كان مالكيًّا. ثُمَّ إن كان مبتدئًا؛ صاح قائلًا: إلى المُلتقَى يومَ الدِّين. وإن كان ممَّن زاوَل العربيَّةَ، وأخذ طرَفًا من فنِّ أصولِ الفقهِ؛ انتفَع انتفاعًا نسبيًّا لا حقيقيًّا»[1].

(١) «المدخل» ٤٨٥-٤٨٧.

أصالةُ مادةِ العلمِ وجادته

ولا بدَّ أن يكونَ سـلوكُ هذا الطريقِ خلفَ أئمَّةِ أهلِـه المُجمَعِ على هدايتِهم ودرايتِهم..

الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمه اللهُ

مادَّةُ العلمِ: ميراثٌ نبويٌّ.

وجادَّتُه: سبيلٌ مسلوكةٌ، تضافَرتْ عليها أذهانُ العلماءِ والفقهاءِ، وحَظِي باهتمامٍ عبرَ القرونِ، وتلاقَحتْ فيه العقولُ تهذيبًا وتنقيحًا فصارتْ مطروقةً، تواطَأتْ عليه الخُطَا؛ فلا يتأتَّى لمُتأخِّرٍ عنهم بمثلِ ما أُتُوا -تأصيلًا أو تفريعًا- إلَّا أن يكونَ مِن طريقِهم، ومِن فهمِه لسُنَّتِهم في التعلُّمِ.

فالتعلُّمُ -إذَنْ- سلفيٌّ المصدرِ والمادَّةِ، سلفيٌّ الوسيلةِ والجادَّةِ.

وإذا تقرَّر هذا؛ فلا انفكاكَ لمَن أراد فهمَ الشريعةِ وبلوغَ الاجتهادِ عن الاطِّلاعِ والنظرِ فيما سطَره السلفُ مِن آثارٍ، وترسُّم مواقعَ أقدامِهم.

يقولُ أبو شامةَ رحمه اللهُ: (فلا عذرَ لهم -ولا سيَّما الشافعيةُ منهم- في تجنُّبِ الاشتغالِ بهذه الكتبِ أو ببعضِها، وكثرةِ النظرِ فيها، وسماعِها، والبحثِ عن فقهِها ومعانيها، ومُطالَعةِ الكتبِ النفيسةِ المصنَّفةِ في شروحِها وغريبِها، بل أفنَوْا زمانَهم وعمرَهم في النظرِ في أقوالِ مَن سبَقهم من المتأخِّرين، وتركوا النظرَ في نصوصِ نبيِّهم المعصومِ من الخطأِ ﷺ، وآثارِ الصحابةِ الذين شَهِدوا الوحيَ وعايَنوا المصطفى ﷺ، وفَهِموا أنفاسَ الشريعةِ. فلا جَرَمَ حُرِمَ هؤلاءِ رتبةَ الاجتهادِ، وبقوا مُقلِّدينَ على الآبادِ)[1].

---

(1) «خطبة الكتاب المؤمَّل» ص١٢٤.

فكما أنَّ للسلفِ طُرُقًا لتقريرِ العقائدِ وتبيينِ الأحكامِ الشرعيةِ، فإنَّ لهم طرقًا ومناهجَ كذلك لتحصيلِ العلومِ وتأصيلِ الطُّلابِ. وهذا يتَّضحُ جليًّا عندَ الاطِّلاعِ على تراجِمِهم، وكتبِهم التي ألَّفوها لتنشئةِ طلابِ العلمِ وتيسيرِ سبلِه.

لذا فإنَّ الفكرةَ هنا -في التأصيلِ العلميِّ كقاعدةٍ تأسيسيةٍ، واستكمالِ التكوينِ كبناءٍ عليها- قائمةٌ على جادَّةِ السلفِ المُتوارَدِ عليها في التلقِّي، وليس اختراعَ طرقٍ مُحدَثةٍ، ومناهجَ مُصطنَعةٍ، تأثَّرتْ بمذاهبِ الحداثةِ لتجدَ سبيلًا للتموضُعِ بينَ مَدارجِ التعلمِ.

والمناهجُ العصريةُ لا تخرجُ عن حالتينِ:

الأولى: أن تكونَ مُستمَدَّةً ومُستقاةً من كتبِ السلفِ.

الثانية: أن تكونَ تجربةً جديدةً تضمُّ أخلاطًا ومادَّةً غريبةً عن قانونِ العلمِ.

فأمَّا ما استُمِدَّ من كتبِهم؛ فلا حاجةَ إليه، إلَّا أن يكونَ تسهيلًا وتفهيمًا، أو إفادةً في حوادثَ نازلةٍ؛ لأنَّ كتبَ الأوائلِ توارَدتْ عليها الشُّروحُ والتعقُّباتُ والاختصاراتُ، ولغتُها أقربُ إلى حقيقةِ العلمِ، وتكسبُ ملكتَه، ففيها غُنْيةٌ عن المتأخِّرِ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فكُلُّ خيرٍ من المتأخِّرين ففي المتقدِّمين ما هو خيرٌ منه، وكلُّ شرٍّ في المتقدِّمين ففي المتأخِّرين ما هو شرٌّ منه)[1].

وأمَّا ما كان مُختَرَعًا جديدًا؛ فإنْ كان نأيًا عن التعليمِ والتنشئةِ على منهجِ السلفِ؛ فلا وألفُ لا؛ إذِ العلمُ قديمٌ، وقواعدُه قديمةٌ، راسخةٌ في كلامِهم وشروحِهم وفتاواهم، وتكشفُ حقائقَ العلمِ بعيدًا عن لُكْنةِ الإعلاميِّين، وهَوسِ كثيرٍ من الكُتَّابِ و(المُفكِّرينَ).

(١) «منهاج السنة النبوية» ٦/ ١٥٠.

وأنت تجدُ الفرقَ ظاهرًا بينَ ما كتَبَ السابقون وما كتَبَه المتأخِّرون؛ فتجدُ الضَّعفَ الظاهرَ، وطولَ العبارةِ، وعدمَ السَّبكِ، إلا القليلَ ممَّن كان من أهلِ التمسُّكِ والاطِّلاعِ الواسعِ على كتبِ أهلِ العلمِ السابقينَ.

ومِن مناطاتِ تفضيلِ السابقِين: قُوَّةُ الأسلوبِ، وإحكامُه؛ فـ(كلَّما قَوِي الأسلوبُ، وصعُب على الطالبِ؛ فهذا الذي يُربِّي فيه مَلَكةَ الأخذِ والرَّدِّ والنِّقاشِ، وهو الذي يَفتُقُ ذِهنَه.

أمَّا المعاصرون؛ فإنَّهم يكتبون بلُغةِ العصرِ، وهذه ليس فيها إشكالٌ في الجملةِ؛ إذ هي واضحةٌ سهلةٌ، ولا تحتاجُ إلى شرحٍ، ويفهمُها الطالبُ وحدَه، فعليه أن يتمرَّنَ على كتبِ المتقدِّمين؛ لأنَّه إذا سار على الدربِ والجادَّةِ المسلوكةِ، وحصَّل من العلمِ ما يُؤهِّلُه لتعليمِ الناسِ، أو القضاءِ وفصلِ الخصوماتِ، أو إفتائِهم؛ فلا يأمنُ أن يُعيَّنَ في بلدٍ ليس فيه غيرُه ممَّن ينتسبُ إلى العلمِ، فقد يحتاجُ إلى مراجعةِ هذه الكتبِ -ولم يتعودْ على أساليبِ المتقدِّمين فيها-، فيصعبُ عليه الإفادةُ منها، بخلافِ كتبِ المتأخِّرين.

وهذا واضحٌ وظاهرٌ في الدِّراسةِ النِّظاميَّةِ؛ إذْ نجدُ كثيرًا من الطلابِ الذين اعتمَدوا على المُذكِّراتِ التي يكتبُها الأساتذةُ، يصعبُ عليهم كلُّ شيءٍ من العلمِ، ولا يستطيعون التعاملَ معَ كتبِ أهلِ العلمِ، بينَما الذين تربَّوا على الكتبِ التي ألَّفها المتقدِّمون بأساليبَ قويَّةٍ متينةٍ، هم الذين -في الغالبِ- حصَّلوا واستفادوا؛ لأنَّه من اليسيرِ جدًّا أن تنزلَ من الصعبِ إلى السهلِ، لكنَّ العكسَ صعبٌ)[1].

ومن الإشكالاتِ التي تكشفُ عن تخوُّفٍ حقيقيٍّ على الناشئةِ: تعلُّقُهم بكتبِ مُعلِّميهم ومَن يعرفونهم أو يُتابِعونهم، ويتمركزون حولَ ما يُدَنْدِنون حولَه، لفَرْطِ الثقةِ

(١) «شرح الورقات» للشيخ عبد الكريم الخضير -بتصرُّفٍ- من الشرح المكتوب، ونحوُه: «أليس الصُّبحُ بقريبٍ؟» للطاهر ابن عاشور، ص١٥٧.

فيهم. وهذا خطيرٌ من ناحيةِ المآلِ؛ يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (وكم من الناسِ مَن يَرُدُّ ما يُعلَمُ بالدلائلِ السمعيةِ والعقليةِ، ويقبلُه إذا رأى منامًا يدلُّ على ثبوتِه، أو قاله مَن يُحسِنُ به الظَّنَّ؛ لثقةِ نفسِه بهذا أكثرَ من هذا! وكم ممَّن يَرُدُّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ حتى يقولَ ما يُوافِقُها شيخُه أو إمامُه، فيقبلُها حينئذٍ؛ لكونِ نفسِه اعتادتْ قبولَ ما يقولُه ذلك المُعظَّمُ عندَه، ولم يَعتَدْ تلقِّيَ العلمِ من الكتابِ والسُّنَّةِ)[1].

ومن صورِ ذلك التعلُّقِ: التَّعلُّقُ بالكُتَّابِ الشَّبابِ، الذين يُحسِنون مُخاطَبتَهم، وجذبَ أبصارِهم، ممَّا يُفضِي -في الأغلبِ- إلى قطعِ الصِّلةِ عن أُمَّهاتِ الكتبِ ومصادرِ العلمِ الأصيلِ، إلَّا مَن اتَّقى اللهَ منهم في هؤلاءِ الشبابِ، واعتنَى بهم، وملأ قلوبَهم بتعظيمِ السلفِ، وحفظِ الحرمةِ، والدَّلالةِ على أصلِ العلمِ.

يقولُ الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمه اللهُ: (ومَن سلَكَ طريقةَ طلبِ العلمِ على ما ذكَرْناه؛ تمكَّنَ مِن فهمِ جوابِ الحوادثِ الواقعةِ غالبًا؛ لأنَّ أصولَها تُوجَدُ في تلك الأصولِ المُشارِ إليها، ولا بدَّ أن يكونَ سلوكُ هذا الطريقِ خلفَ أئمَّةِ أهلِه المُجمَعِ على هدايتِهم ودرايتِهم؛ كالشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ، وأبي عُبَيدٍ، ومَن سلَكَ مسلكَهم؛ فإنَّ مَن ادَّعى سلوكَ هذا الطريقِ على غيرِ طريقِهم؛ وقَع في مفاوزَ ومهالكَ، وأخذ بما لا يجوزُ الأخذُ به، وترَكَ ما يجبُ العملُ به)[2].

قد يُشكِلُ على البعضِ هذا الثناءُ الواسعُ على سَعةِ علمِ العلماءِ السابقين وإحاطتِهم، مُقارَنةً بمَن أتى بعدَهم، لكنَّ هذا الإشكالَ يزولُ إذا عَلِم واطَّلع على إحاطتِهم بالعلمِ، وتفاصيلِه، ودقائقِه، معقولِه ومنقولِه، وضمِّهم علومًا كثيرةً، مع توافرِ هِمَمِهم على تحقيقِ أكثرَ مِن فنٍّ والتصنيفِ فيه.

(1) «درء تعارض العقل والنقل» ٤/ ١٤٣.
(2) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

وقد تناوَل هذه المسألةَ الشيخُ حسنٌ العطَّارُ الشافعيُّ (ت١٢٥٠) رحمه اللهُ، حاكيًـا حال العلماءِ السـابقينَ وعلومَهم وإحاطتَهم بمقاصدِ العلـمِ، ثُمَّ ذكرَ عصرَه وما آلَ إليه مِن تأخُّرٍ، فقال:

(كانوا -معَ رسـوخِ قدمِهم في العلومِ الشرعيةِ والأحكامِ الدِّينيةِ- لهم اطِّلاعٌ عظيمٌ علـى غيرِها من العلـومِ، وإحاطةٌ تامَّـةٌ بكُلِّيَّاتِها وجزئياتِهـا، حتَّى في كتبِ المُخالِفيـنَ في العقائدِ والفروعِ، يدلُّ على ذلك: النقـلُ عنهم في كتبِهم، والتصدِّي لدفعِ شُبَهِهم، وأعجبُ من ذلك: تجاوزُهم إلى النظرِ في كتبِ غيرِ أهلِ الإسلامِ؛ فإنِّي وقفتُ على مُؤلَّفٍ للقرافيِّ ردَّ فيه على اليهودِ شُبَهًا أورَدُوها على الملَّةِ الإسلاميةِ، لم يأتِ في الردِّ عليهم إلا بنصوصِ التوراةِ وبقيَّةِ الكتبِ السـماويةِ، حتَّى يَظُنَّ الناظرُ في كتابِه أنَّه كان يحفظُها عن ظهرِ قلبٍ!

ثُمَّ هم معَ ذلك ما أخلُّوا في تثقيفِ ألسنتِهم، وترقيقِ طباعِهم من رقائقِ الأشعارِ ولطائفِ المُحاضَراتِ...

فـإنَّ قُصارَى أمرِنا: النقلُ عنهم بدونِ أن نخترعَ شـيئًا مِن عندِ أنفسِـنا، وليتَنا وصَلْنـا إلى هذه المرتبةِ! بل اقتصَرْنا على النظرِ في كتبٍ محصورةٍ، ألَّفها المتأخِّرون المُستمِدُّون مِن كلامِهم، نُكرِّرُها طولَ العمرِ، ولا تطمحُ نفوسُنا إلى النظرِ في غيرِها، حتَّى كأنَّ العلمَ انحصَر في هذه الكتبِ!

فلَزِم مِن ذلك أنَّه إذا ورَد علينا سـؤالٌ من غوامـضِ علمِ الكلامِ؛ تخلَّصْنا عنه بأنَّ «هذا كلامُ الفلاسـفةِ، ولا ننظرُ فيه»، أو مسـألةٌ أصوليةٌ قُلْنا: لم نَرَها في «جمعِ الجوامعِ»، فلا أصلَ لها، أو نُكتةٌ أدبيةٌ قُلْنا: هذا مِن علومِ أهلِ البطالةِ، وهكذا، فصار العذرُ أقبحَ من الذَّنبِ!

وإذا اجتمَع جماعةٌ مِنَّا في مجلسٍ؛ فالمُخاطَباتُ مُخاطَباتُ العامَّةِ، والحديثُ

حديثهم، فإذا جرى في المجلسِ نكتةٌ أدبيةٌ رُبّما لا نتفطّنُ لها، وإن تَفطّنّا لها بالَغْنا في إنكارِها، والإغماضِ عن قائلِها إن كان مُساوِيًا، وإيذائِه بشناعةِ القولِ إن كان أدنى، ونَسَبْناه إلى عدمِ الحشمةِ وقلّةِ الأدبِ!

وأمّا إذا وقعتْ مسألةٌ غامضةٌ مِن أيِّ علمٍ كان، عندَ ذلك تقومُ القيامةُ، وتكثرُ القالةُ، ويتكدّرُ المجلسُ، وتمتلئُ القلوبُ بالشحناءِ، وتغمضُ العيونُ على القَذى! فالمرموقُ بنظرِ العامّةِ، الموسومُ بما يُسمّى العلمَ: إمّا أن يتسترَ بالسكوتِ حتّى يُقالَ: إنّ الشّيخَ مُستغرِقٌ. أو يهذي بما تَمُجُّه الأسماعُ، وتنفرُ عنه الطِّباعُ.

وقالوا: سَكِرْنا بحُبِّ الإلهِ ... وما أسكَر القومَ إلّا القِصَعْ[1]

فحالُنا الآنَ كما قال ابنُ الجوزيِّ في مجلسِ وعظِه ببغدادَ:

ما في الدِّيارِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُه ... حديثَ نجدٍ ولا خِلٌّ نُجارِيهِ[2]

ومِن أهمِّ الأمورِ التي يجبُ أن يُعنَى بها طالبُ المدارجِ، ممّا يتعلّقُ بسُنّةِ السلفِ في التلقّي: التفقُّهُ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ.

التّفقُّهُ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ

المرادُ بالتّفقُّهِ عبرَ المذاهبِ المتبوعةِ: سلوكُ المُتفقِّهِ أحدَ المذاهبِ المتبوعةِ في تعلُّمِ الفقهِ؛ ليَتخرَّجَ عليها.

وغايتُه: اكتمالُ نظرةِ الطالبِ لمسائلِ الفقهِ، وضبطُ المسائلِ والدّلائلِ.

(١) القَصعةُ: الصَّحْفةُ الضَّخمةُ التي تُشبِعُ عشَرةً. وجمعُها: قِصَعٌ، وقِصَاعٌ، وقَصَعاتٌ. انظر: «المصباح المنير» ٢/٥٠٦، «تاج العروس» ٢٢/١٧.

(٢) «حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع» للشيخ حسن العطار الشافعي ٢/٢٤٧-٢٤٨ باختصارٍ يسيرٍ.

فيكونُ التمذهبُ للدِّراسةِ، لا للتعصُّبِ والتقليدِ؛ فإنَّ طالبَ الملكةِ الفقهيةِ والاجتهادِ لا بدَّ أن يكونَ نظرُه مُسلَّطًا على الأدلةِ دائمًا، وللتعصُّبِ والتقليدِ مُجانِبًا. ومَن تأمَّلَ كلامَ الراسخين وعباراتِهم؛ وجَد هذا حالَهم، فلم يكنِ التمذهبُ داعيًا لنبذِ الدليلِ الثابتِ أبدًا.

ويتلخصُ هذا الأمرُ في جوابِ أحدِ فقهاءِ الحنابلةِ في هذا العصرِ -وهو الشيخُ ابنُ جَبْرينَ رحمه اللهُ-؛ إذْ سألتُه يومًا: هل أنت حنبليٌّ؟ فأجاب -رحمه اللهُ- بقولِه: (درَسْنا مذهبَ الحنابلةِ، وإنْ بدا الحقُّ في غيرِه اتَّبَعْناه).

فعلى طالبِ العلمِ أن ينطلقَ في أوَّلِ أمرِه مِن أحدِ المذاهبِ المُتَّبَعةِ، والجادَّةِ المطروقةِ، فيُتقِنَ مسائلَه وفروعَه وأدلَّتَه، ثُمَّ يجمعَ إليه المذاهبَ الأخرى، ويُناقِشَ الأدلَّةَ والمسائلَ، معَ الإلمامِ والإتقانِ لأصولِ الفقهِ، والاطِّلاعِ على السُّنَنِ والآثارِ المرويَّةِ؛ فتكثُرُ استفادتُه، ويُحسِنُ الاستدلالَ، ويُتقِنُ المسائلَ؛ كما أنَّ المُتفقِّهَ على كتبِ المذاهبِ المُصنَّفةِ للترقِّي في مدارجِ العلمِ يُرزَقُ سريعًا لغةَ الفقهاءِ واصطلاحَهم، ويُحاكيهم في الاستدلالِ والترجيحِ في المسائلِ الفقهيةِ والنوازلِ وغيرِها.

وإذا تأمَّلْنا واقعَ العلماءِ والمجتهدين الذين كانت لهم الرِّيادةُ والذِّكرُ في علمِ الشريعةِ بعدَ اشتهارِ المذاهبِ الأربعةِ؛ نجدُ أنَّهم لم يَخْلُ أحدٌ منهم عن التخرُّجِ على أحدِ المذاهبِ الأربعةِ: الحنفيِّ، والمالكيِّ، والشافعيِّ، والحنبليِّ؛ فابنُ حزمٍ مثلًا تخرَّج أوَّلَ أمرِه على مذهبِ الشافعيةِ، وابنُ تيميَّةَ تخرَّج على مذهبِ الحنابلةِ، والشاطبيُّ تخرَّج على مذهبِ المالكيةِ، وهي طريقةٌ عامَّةٌ للمُتفقِّهينَ الذين كانت لهم إمامةٌ في الدِّينِ.

أركانُ التَّعلُّمِ

فالآلاتُ مُتهيئَةٌ لِذِي طلبٍ صادقٍ، وهِمَّةٍ، وذكاءٍ، وفِطْنَةٍ..

أبو شامةَ رحمه اللهُ

للتَّعلُّمِ أركانٌ أربعةٌ:

الرُّكنُ الأوَّلُ
نيَّةٌ خالِصةٌ

طلبُ العلمِ مِن أجلِّ العباداتِ التي تحتاجُ إلى نيَّةٍ، فالنيَّةُ أوَّلُ العلمِ، ووسطُه، وآخِرُه، وهي ركنٌ مُصاحِبٌ، وثمرةٌ حُلْوةٌ يجنيها المُخلِصُ إذا لقي اللهَ تعالى.

والنيةُ الخالصةُ وقودٌ ومُحرِّكٌ نحوَ الاستمرارِ والثباتِ في الطلبِ، ولا انفكاكَ لطالبِ العلمِ عنها، وما من مُوفَّقٍ إلا وله مـعَ النيةِ والإخلاصِ مواقفُ ومُجاهَداتٌ: في بيتِه وصلاتِه، ومعَ مشـايخِه وأقرانِه وطُلَّابِه، وفي كتابتِه وبحثِه، لكنَّها تحتاجُ إلى مجاهدةٍ شديدةٍ في أوَّلِ الأمرِ، ثُمَّ رعايةٍ وسقيٍ. وحَرِيٌّ بمَن جاهَد قلبَه وراقَب عملَه أن يصلَ، وأن يُهدَى؛ فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وتشتدُّ الحاجةُ إلى النيةِ في مواطنَ:

١- خروجُه من بيتِه مُتوجِّهًا لطلبِ العلمِ.

٢- العملُ بالعلمِ.

٣- حلقةُ شيخِه ومُعلِّمِه.

٤- المكتبةُ: يقرأُ ويبحثُ ويُراجِعُ.

٥- المُناقَشةُ، والمُحاوَرةُ.

٦- التعليمُ، والدعوةُ إلى اللهِ.

٧- التصنيفُ.

الرُّكنُ الثّاني
هِمَّةٌ عاليةٌ

تواتَرتْ نصوصُ الوحيينِ بالحضِّ على طلبِ العلمِ الشرعيِّ ونيلِه، وعلى فضلِ أهلِه والرِّضا عن طالبِه. ولمّا كانت لأهلِه المنزلةُ العاليةُ، والرِّفعةُ في الدّارين؛ صارتْ هِمَمُ أشرافِ الناسِ مُتعلِّقةً بتحصيلِه، وأضحتْ عزائمُ الرجالِ عليه مُتضافِرةً.

فرفَع المُجِدُّونَ والنابهونَ منهم شعارَ الجِدِّ، وتقلَّدوا وسامَ العزيمةِ، ورأَوُا العلمَ ثقيلًا متينًا، غاليًا نفيسًا، تحوطُه المكارهُ، ولمثلِه تُبذَلُ المُهَجُ والأنفاسُ، ولنيلِه تُبْذَلُ النفائسُ وتُهدَى أبكارُ العرائسِ! حينَئذٍ أصبح التعبُ ديدنَهم، والسهرُ رفيقَهم، والتماسُ حلقاتِ العلمِ مَقصَدَهم؛ فجابوا البلادَ، وتَتبَّعوا العلماءَ.

قال ابنُ عَزُّوزٍ المالكيُّ رحمه اللهُ: (فإنَّ المُحقِّقينَ ما نالوا حقائقَ العلومِ إلا بالشَّوقِ إليها، والنَّهمةِ فيها بحُرقةٍ تجمعُ أطرافَ الفكرِ إلى ما هو بصددِه، وهي حرقةُ نورٍ لا حرقةُ نارٍ)[1].

وحَرِيٌّ بمَن صدَق وشمَّر بعزمٍ أن يُقِرَّ اللهُ عينَه بمرادِه من العلمِ النافعِ، فكما قال الخطّابيُّ رحمه اللهُ: (مَن صدَقتْ حاجتُه إلى شيءٍ؛ كثُرتْ مسألتُه عنه، ودام طلبُه له، حتّى يُدرِكَه ويُحكِمَه)[2].

---

(1) «هيئة الناسك» ص٥٣.

(2) «معالم السُّنن» ٤/ ٢٨٨- ٢٨٩.

وكما قال الجُنَيدُ رحمه اللهُ: (ما طلَب أحدٌ شيئًا بصدقٍ وجِدٍّ، إلّا ناله، فإن لم يَنَلْه كُلَّه نال بعضَه).

ولو أنَّ ما أسعَى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلُبْ، قليلٌ مِن المالِ

ولكنَّما أسعَى لِمَجْدٍ مُؤثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المُؤثَّلَ أمثالي

ويقولُ العِمادُ الأصفهانيُّ رحمه اللــهُ: (العلومُ النافعةُ، والأعمالُ الصالحةُ، نسلُ الهِمَمِ الشريفةِ، وذُرِّيَّةُ الفِطَنِ اللَّطيفةِ).

الرُّكنُ الثَّالثُ
المُعلِّمُ النَّاصحُ

دعَتِ الضَّرورةُ إلى وجوبِ التَّروِّي والنظرِ في حالِ مَن يُؤخَذُ عنه العلمُ، ولئِنْ كان البحثُ عن الأُمِّ الصالحةِ للابنِ أمرًا مطلوبًا؛ فإنَّ أُبوَّةَ العلمِ آكَدُ من الأبوَّةِ الطِّينيةِ، والاختيارَ لمادَّةِ العلمِ أَوْلى من الاختيارِ لنُطَـفِ الأولادِ؛ لأنَّ مواريثَ الأخلاقِ مِن أشدِّ الأشياءِ لصوقًا وتسلُّلًا إلى الطِّباعِ.

قال سَـحْنونُ رحمه اللـهُ: (يُؤخَذُ هذا العلـمُ من الموثوقِ بهـم في دينِهم المحسـوسِ بخيرِهم؛ فإنْ أخَذوا بالتشـديدِ فعن علمٍ، وإن أخَـذوا بالرُّخصِ فعن علمٍ)[1].

ومَن تأمَّلَ حالَ الباحثِ عن الدِّينِ الحقِّ -سلمانَ الفارسيِّ، رضي اللهُ عنه- فـي التماسِ الراهبِ الذي يصحبُه ويتعلمُ منه، وكلمـا حضَرتِ الوفاةُ راهبًا ذهب إلى آخرَ = وجَد الحالَ تتشـابهُ كثيرًا معَ ما نُدَنـدِنُ حولَه؛ وهو البحثُ عن المعلِّمِ الناصحِ.

وفي سِيَرِ السـلفِ نجدُ مَن نفَّر عن العلماءِ، وبحـث عن مواطنِهم، ولزمهم؛ حتى صارت سُـنَّةً لهم، وكانوا يُطيلـون التردُّدَ عليهم. يقولُ أبـو عُبَيدةَ رحمه اللهُ:

---

(1) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض ٤/ ٣٩٣.

(اختلَفتُ إلى يونسَ أربعينَ سنةً، كُلَّ يومٍ أملأُ ألواحي من حفظِه)[1]. رحمهم اللهُ، وجعَلَنا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ.

(١) «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه» لأبي هلال العسكري، ص٧٠.

الركنُ الرابعُ
المنهجُ العلميُّ المُتقَنُ

ما زال أهـلُ العلمِ يُركِّزون على أهميةِ المنهجيةِ، وأن يكونَ السَّـيرُ في أوديةِ العلمِ ببصيـرةٍ وترتيبٍ لمراحلِ الطلـبِ، بعيدًا عـن الأذواقِ والانتقائيةِ في اختيارِ المنهـجِ، حتى كان التخلِّي عن هذه الخُطَّةِ إزهاقًا لحياةِ الطالبِ العلميةِ، والأدهى أنَّ السالكَ قد يظنُّ نفسَـه أنَّه يُحصِّلُ وينمو علميًّا، وفي الحقيقةِ هو مُشتَّتٌ تائهٌ، يحضرُ هذا المجلسَ تـارةً ويتركُه أخرى، ويتعلمُ عندَ هذا المعلِّمِ تـارةً ويتركُه أخرى، يبدأُ فـي هذا الكتابِ ليقرأَ مُقدِّمتَه ويتركُ باقيَه، يختارُ هـذا العلمَ لأهميتِه، فتُثارُ قضيةٌ هنا أو هناك فيقرأُ فيها ويُمضِي سـنواتٍ فيها ليزعمَ معرفـةَ فقهِ الواقعِ، ثُمَّ تنتهي القضيةُ، ويفوتُه التأصيلُ، ويخطئُ السَّيرَ في السبيلِ المُمنهَجةِ المُرتَّبةِ!

فمرجعُ الخللِ هنا قد يكونُ واحدًا من هذه الأسبابِ:

١- عدمُ المنهجيَّةِ.

٢- ضعفُ المنهجيةِ، أو عدمُ الاقتناعِ بها وبأهميتِها؛ ممَّا يُؤثِّرُ على العزيمةِ وعلى الجِدِّ فيها.

٣- كثرةُ البداياتِ؛ فكثرةُ البداياتِ والانقطـاعِ مُثبِّطةٌ ومُرهِقةٌ، وتئولُ إلى فتورٍ ومللٍ وانتكاسـاتٍ، وقد سـارتْ في ذلك عبارةٌ شـهيرةٌ، وهي قولُهم: (كثرةُ البداياتِ مِن المُثبِّطاتِ)، وهي مفيدةٌ لمَن تدبَّرها.

٤- كثـرةُ التَّنقُّلِ بينَ المناهجِ العلميةِ ومشـاريِها: وهو ضربٌ من ضروبِ التَّشتُّتِ والعشوائيةِ.

وهـذه الأركانُ السـابقةُ [النيَّةُ، والعزيمـةُ، والمعلِّمُ، والمنهـجُ] تُؤمِّلُ مَن استجمَعها، والأمرُ كما قال أبو شامةَ رحمه اللهُ: (فالآلاتُ مُتهيِّئةٌ لذي طلبٍ صادقٍ، وهِمَّةٍ، وذكاءٍ، وفطنةٍ)[1].

(١) «خطبة الكتاب المُؤَمل» ص١٢٥.

شروطُ المنهجِ العلميّ

للمنهجِ المسلوكِ شروطٌ يجبُ على الطالبِ استيفاؤها، وهي:

الأول: التِماسُ المعلِّمِ ذي المنهجيةِ الواضحةِ الصحيحةِ:

فالمُتعيِّنُ على الطالبِ: بذلُ الوسعِ في التماسِ وصحبةِ مَن عُرِفَ باهتمامِه بتنشئةِ طُلَّابِ العلمِ بطريقةٍ منهجيةٍ، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإنْ لم يجدْ؛ فليَتخيّرْ طالبَ علمٍ مُتقدِّمًا سبقَه في التلقِّي المنهجيِّ، شَهِد له أساتذتُه بذلك، وكانت سِيماه وأحوالُه في الجملةِ تُشبِهُ سمتَ أهلِ العلمِ.

يقولُ النَّوويُّ رحمه اللهُ: (ولا يكفي في أهليَّةِ التعليمِ أن يكونَ كثيرَ العلمِ، بل ينبغي -معَ كثرةِ علمِه بذلك الفنِّ- كونُه له معرفةٌ في الجملةِ بغيرِه من الفنونِ الشرعيةِ؛ فإنَّها مرتبطةٌ، ويكونُ له دُرْبةٌ، ودِينٌ، وخُلُقٌ جميلٌ، وذِهنٌ صحيحٌ، واطِّلاعٌ تامٌّ)[1].

الثاني: أن يكونَ المنهجُ وَفقَ الإمكاناتِ، لا الآمالِ الطامحة:

فيبدأُ بأوَّلِيّاتِ العلمِ، والمدخلِ العامِّ، والمُقدِّماتِ المُيسَّرةِ له، ليتنقَّلَ من التصوُّرِ الإجماليِّ إلى الإدراكِ التفصيليِّ.

---

(١) «المجموع شرح المهذب» ١/ ٦٦.

الثالثُ: أن يكونَ موضوعًا لمراتبِ المتعلّمينَ ومدارجِ التلقّي:

وهذا من أهمّ الأشياءِ التي يجبُ التنبُّهُ لها، بأن يكونَ المنهجُ قائمًا على الكتبِ التي ألّفها أصحابُها بما يوافقُ مراتبَ المتعلِّمين، لا أن تكونَ مادّةُ الدرسِ أبحاثًا ودراساتٍ لا تُعنَى بتنشئةِ طالبِ العلمِ على الجادَّةِ المطروقةِ في التلقّي؛ من الإحاطةِ بالفنِّ وتقسيمِه وشرحِه، ويكونَ فيها من تواردِ العلماءِ عليه بالحواشي والتعقُّباتِ والاختصارِ والشُّروحِ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ ممَّا يُسهِمُ إيجابًا في نقلِ فكرةِ الفنِّ، وأبوابِه ومسائلِه، وأصولِه وفروعِه.

بَضماتُ المعلِّمين ونَقْشُ العقولِ

(وقلَّ مَــن قرأ عليه ولم يَنْبُهْ! ولــم أرَ مِثلَه في مبادئِ التعليــمِ؛ كان يُفتِّق أُذْنَ المُشتغِلِ، ويوضِّحُ له طرقَ الاشتغالِ)

[الصلاحُ الصَّفَديُّ، عن شيخِه: حسنِ بنِ محمدِ الصَّفَديِّ الخطيبِ]

للمُعلِّمِ في عقولِ طلابه بصماتٌ، وله في سـلوكِهم آثارٌ؛ فالأمر إذَنْ: نقشٌ في العقولِ، ونحتٌ على جُذُرِ الأذهانِ.

وليس كلُّ مُتصدٍّ للنقشِ على العقولِ بخليقٍ أن تُثنَى أمامَه الرُّكَبُ؛ فشتَّانَ شتَّانَ بينَ رُبَّانٍ فنَّانٍ يجيدُ التعليمَ ويُحسِـنُ صقلَ الأذهانِ، ومَن جعَل عقلَ الطُّلابِ موضعَ تجارِبَ، ينقل إليهم تَشتُّتَه، ويعبُر بهم إلى أخلاطِ علومٍ وأخلاقٍ!!

وفي سِيَرِ السلفِ تجدُ عبارةً دوَّارةً بنصِّها وإشارتِها، تحكي أسرارًا أودَعها اللهُ بعضَ عبادِه، فتُثمِرُ أجيالًا تنتفعُ وتَتخرَّجُ عليه؛ إنَّها (البركةُ في التعليمِ).

فها هو أبو الحسينِ ابنُ أبي يَعلَى الفرَّاءُ (ت٥٢٦) رحمه اللهُ، يقولُ في ترجمةِ أحدِ الفقهاءِ: (وكان مُبارَكَ التعليمِ؛ لم يَدرُسْ عليه أحدٌ إلا أفلَح وصار فقيهًا)[1].

وذكَر أبو العباسِ الغِبْرِينيُّ (ت٧١٤) -رحمه اللهُ- ابنَ مخلوفٍ المالكيَّ رحمه اللهُ، فقال: (له عُكُوفٌ على التَّدريسِ، دؤُوبٌ عليه؛ كان له درسٌ بالغداةِ، ودرسٌ بينَ الصلاتينِ، ودرسٌ بينَ العِشـاءينِ، وكلُّها دروسٌ مشـهورةٌ، وأوقاتٌ باستفادةِ العلمِ مقصـودةٌ. دأَب على هذا مُدَّةً طويلةً من عمرِه، واقتصَر بعدَه على تدريسِ درسـينِ: أحدُهما في مسجدِه بالغداةِ... والآخَرُ بالجامعِ الأعظمِ بينَ الصلاتينِ.

---

(١) «طبقـات الحنابلة» ٢/ ٢٤٦، وانظـر أيضًا: «التاج المُكلَّل من جواهـر مآثر الطِّراز الآخِر والأول» للقِنَّوجيِّ ص ١٧٨.

وكان مُبارَكَ التعليمِ، ميمونَ النَّقِيبةِ في التفهيمِ، درّس عليه العلمَ خلقٌ كثيرٌ، وانتفعوا به. وكان أكثرَ الناسِ أصحابًا، وألينَهم جنابًا، وكان سليمَ الصدرِ، لا يعرفُ شيئًا من الشرِّ)[1].

وذكر ابنُ عبد الملكِ المَرَّاكُشيُّ (ت٧٠٣) -رحمه اللهُ- ابنَ الفخّارِ -رحمه اللهُ-، فقال: (وكان مُبارَكَ التعليمِ، حسنَ الإلقاءِ، صادقَ القصدِ في الإفادةِ، فنفع اللهُ به خلقًا كثيرًا ممّن تردّد للاستفادةِ منه رجالًا ونساءً، ولم يَزَلْ دأبُه ذلك إلى أن تُوُفِّي)[2].

ويقولُ شمسُ الدِّينِ السَّخاويُّ (ت٩٠٢) -رحمه اللهُ- في ترجمةِ أحدِ العلماءِ: (وكان مُبارَكَ التعليمِ؛ ما قرأ عليه أحدٌ إلا وانتفع)[3].

وقال أيضًا في ترجمةِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ رُوزْبَةَ الكازَرُونيِّ رحمه اللهُ: (انتفع به جماعةٌ؛ لمزيدِ شفقتِه، وصبرِه، وحسنِ تعبيرِه، واحتمالِه لمَن يُجافيه، وإحسانِه لمَن يُسِيءُ إليه، كلُّ ذلك مع مُداوَمتِه على العبادةِ بحيثُ لم يَتفرَّغْ للتَّصنيفِ معَها)[4].

فتأمَّلْ في عباراتِ العلماءِ: كيف ذكَروا البركةَ في التعليمِ، وحسنَ التفهيمِ، وانتفاعَ الطُّلابِ بهم. غيرَ أنَّ البركةَ وحسنَ التَّعليمِ لا تتأتّى إلا بطلبٍ وجِدٍّ واستعانةٍ باللهِ تعالى.

مِن هنا، ينبغي قصدُ المعلِّمِ المُبارَكِ التَّعليمِ، الَّذي تخرَّج عليه طلابٌ أكفاءُ؛ فالتَّحرِّيَ التَّحرِّيَ يا طالِبَ الرُّقيِّ والمدارِجِ.

(١) «عنوان الدِّراية فيمَن عُرِف من العلماءِ في المائةِ السَّابعةِ ببِجايةَ» للغُبْرِينيِّ ص٦٣.
(٢) «الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصِّلة» ٤/ ١٢٠.
(٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ١٠/ ٨٩.
(٤) «التُّحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للسَّخاويِّ ١/ ١٣٦.

إذا نظَرْنا إلى بصمةِ المعلِّمِ في المتعلِّمِ؛ وجَدْناها دائرةً بينَ أمرينِ، كلاهما من الأهميةِ بمكانٍ:

الأمرُ الأولُ: خُلُقٌ أو سلوكٌ يَتسلَّلُ إليه كأنموذجٍ مُرضٍ، أو علمٍ ومَلَكةٍ يكتسبُها منه.

وبيانُه كالآتي:

أولًا: الأثرُ الخُلُقيُّ والسلوكيُّ:

(الصُّحبةُ)، و (المُلازَمةُ)، و (المُجاوَرةُ) = جسورٌ تعبُرُ منها الأخلاقُ والطِّباعُ إلى الصاحبِ والمُجاوِرِ، وعبرَها يَتضمَّخُ القرينُ بخُلُقِ المُقارَنِ وهَدْيِه، فإنْ لم تَتغيَّرِ الطِّباعُ تَسلَّلَتْ إليه منه عدوى المُجاوَرةِ وريحُها؛ فهو الدورانُ -شئتَ أم أبيتَ- بينَ قصدِ المُحاكاةِ أو اصطباغٍ قَهْريٍّ؛ فبهما تَتلوَّنُ أحلامُ الطالبِ، ويَتَّشِحُ أُفُقُه وسماؤُه برُؤَى الشيخِ وميولِه؛ ليميلَ بميلِه، ويرى العالَمَ بعينِه.

ومن ذلك مثلًا: (التعصبُ)؛ فكم رأَينا من عالمٍ أورَد طلابَه مَعاطِنَ التعصبِ والجمودِ لآرائِه والتحزُّبِ لها، بل عقدِ الولاءِ والبراءِ عليها! معَ أنَّه مِن أبعدِ الناسِ -على أقلِّ تقديرٍ: في نظرِ نفسِه- عن الحزبيةِ، فلم يُربِّهم على الانقيادِ للدليلِ، والدورانِ في فلكِ التجرُّدِ والحيادِ لضمانِ الوصولِ إلى الحقِّ في الجملةِ.

وكم من عالمٍ ربَّى الطلابَ بسَمْتِه وحُسنِ دَلِّه؛ فسَمَتْ أخلاقُهم، وعَلَتْ حتى إنَّها تُحاكي مَن تقدَّم من العلماءِ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يشاءُ.

ثانيًا: الأثرُ العِلميُّ:

حصولُ العلمِ هو المُؤمَّلُ عندَ الطلبِ، ومحطُّ أنظارِ الطلابِ حينَ البحثِ عن المعلِّمين، لكنَّ الأثرَ المَعْنيَّ هنا هو: مهارةُ العلمِ وسياستُه، فهي هي إنْ كانت وتمَّت؛

فالمعلوماتُ وفكُّ ألغازِ المتونِ قد يُحصِّلُهـــا الطالبُ، بخلافِ (التمهُّرِ) و (الحِذْقِ) و (المَلَكةِ)، وهذه هي الثمرةُ على الحقيقةِ.

وفي دنيا الصُّنَّاعِ -مثــلًا- تجدُ انخراطَ المبتدئِ في صناعةٍ مــعَ مُعلِّمِه مُدَدًا طويلةً، يُنقَــلُ إليه من المعلِّمِ أثرٌ فــي ماهيَّةِ الصنعةِ وأنماطِها، بل وتَثِبُ إلى نفسِ أخلاقيَّاتُه في الصنعةِ وأنماطُ تفكيرِه.

كذلك الطالبُ، لا بدَّ أن تتأثَّرَ ذِهنيتُه بصبغةٍ علميةٍ لسياســةِ العلمِ يكتسبُها في مجلسِ أستاذِه، وإلا فهو لم يَســتفِدْ منه على الحقيقةِ، ولو حصَّل المعلوماتِ حينَها من كتابٍ لكان أَوْلى وأضبطَ.

ومن الأنماطِ المرجوِّ تَسرُّبُها إلى نفسِ الطالبِ -مثلًا-: استثمارُ المعلومةِ في البحثِ، واستيلادُ الفائدةِ من الكلامِ، وطريقةُ الاستفادةِ منها، وطريقةُ نقدِها، ومهارةُ التقعيدِ، ومهارةُ التفريعِ، وفنُّ الاستنباطِ، وغيرُ ذلك.

فقلَّما ترى عالمًا يكتبُ -أو يشرحُ في مجلسٍ- إلا وفي أسلوبِه امتزاجٌ بأنماطِ مُعلِّمِه ومِدادِه، وتجدُ أنفاسَ أســتاذِه حاضرةً في تعبيرِه، خاصةً مَن كان يَعرِضُ على أستاذِه، وطالتْ مُدَّةُ تلقِّيه عنه.

لذا كان التحرِّي والتنقيبُ عن الشــيخِ النَّفَّاعِ المُعتني بــأدبِ العلمِ وأخلاقِه، الحريصِ على نقلِ المَلَكةِ والمهارةِ، الفاتقِ لأذهانِ الطلابِ.

وأختِمُ هذا المبحثَ بهذينِ النَّصَّينِ، اللَّذينِ ســطَرَهما صلاحُ الدِّينِ الصَّفَديُّ (ت٧٦٤) رحمه اللهُ:

١- قال -رحمه اللهُ- عندَ ذكرِه مآثرَ شيخِه نجمِ الدِّينِ أبي محمدٍ حسنِ بنِ محمدٍ الصَّفَديِّ الخطيبِ رحمه اللهُ: (وتَخرَّج به جماعةٌ فُضلاءُ، وقلَّ مَــن قرأ عليه ولم يَنْبُــه؛ ولم أرَ مِثلَه في مبادئِ التعليــمِ؛ كان يُفتِّقُ أذْنَ

المُشْتغِلِ، ويوضِّحُ له طرقَ الاشتغالِ، ولم أرَ مثلَه في تنزيلِ قواعدِ النحوِ على قواعدِ المنطقِ، وكان يحبُّ إفسادَ الحدودِ والمُؤاخذةَ فيها والرَّدَّ عليها والجوابَ عنها)[1].

٢- وقال في ترجمةِ الكمالِ ابنِ الزَّمْلكانيِّ رحمه اللهُ: (وكان الشيخُ من بقايا المجتهدين، ومن أذكياءِ أهلِ زمانِه، تخرَّج به الأصحابُ، وانتفع به الأئمَّةُ. لم يُرَ مِثلُ كرمِ نفسِه، وعلوِّ همَّتِه، وتجمُّلِه في ملبسِه ومأكلِه، لم تَزَلْ تلاميذُه الخواصُّ على مائدتِه. يحبُّ الطالبَ الذكيَّ ويجذبُ بضَبْعِه[2] من ورطةِ الخمولِ ويُكبِرُه، ويُعظِّمُه ويُزهِرُه[3] له، ويسيرُ إليه في البحوثِ، ويُصوِّبُ ما يقولُ، ويُحسِّنُه، ويُعجِبُ الحاضرين منه، فعَل ذلك بجماعةٍ... وكان لا يَتعَبُ على التلميذِ، بل إذا رأى الطالبَ في دروسِه وذهنُه جيِّدٌ وقد تَعِب على نفسِه؛ اجتَذَبه إليه، ونوَّه به، وعرَّف بقدرِه؛ فيُعرَفُ به ويُنسَبُ إليه. وإذا جاءه مبتدئٌ ليقرأ عليه؛ يقولُ له: رُحِ الآنَ إلى الشيخِ كمالِ الدِّينِ ابنِ قاضي شُهْبَةَ، وإلى الشيخِ

(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٣٥.
ووجهُ الإفادة من مثل هذا المعلم اكتساب نباهة الذهن ودقة الفكر، بمناكفة المعترض، وإفساد الحدِّ، والدربة على المعارضة؛ ليرتاض ذهنُه وينشط لاستخرج الفائدة وتحليلها.
ولا يعني أن يكون مسلك المُعلم والطالب في آحاد المسائل إفساد الحدود وإدخال المنطق على النحو أو عكسه، أو الاشتغال بالإبطال والاعتراض؛ لئلا يلحقه العنت والحيدة عن السَّوية، والشغل بالحواشي عن المتون؛ فالمذموم الديمومة، والمحمود منها أن ينال منها حظًا يفيد في التمكن والتمهر وارتياض الذهن.
والطالب النَّابه يحصد ثمرات نتائج العقول، ويحسن الاستفادة من كل من لقيه من المُفيدين، «ولكل وجهةٌ هو موليها».
(٢) أي: بعَضُدِه.
(٣) في نسخة: (ويزهرُ له).

شمسِ الدِّينِ ابنِ النقيبِ، وإلى مجدِ الدِّينِ التُّونُسيِّ، وإلى نجمِ الدِّينِ القَحْفازيِّ، فإذا تنبَّهت فَعُدْ إليَّ»[1].

(١) «أعيان العصر» ٤/ ٦٣٠ باختصار.

حِليةُ المُعلِّمِ

للمُعلِّـمِ حِليةٌ تُميِّزُه؛ وصفاتٌ وهيئاتٌ تدلُّ عليـه، وما لم تتحققْ إحداها عاد عليه وعلى طلابِه بالنقصِ، فمنها:

١- أن يكونَ عالِمًا بالكتابِ والسُّنَّةِ:

يقولُ ابنُ الماجشونِ رحمه اللهُ: (كانوا يقولون: لا يكونُ إمامًا في الفقهِ مَن لم يكنْ إمامًا في القرآنِ والآثارِ، ولا يكونُ إمامًا في الآثارِ مَن لم يكنْ إمامًا في الفقهِ)[1].

٢- أن يكونَ ممَّن حصَّل الملَكةَ العِلميَّةَ:

فالملكةُ غايةُ مراحلِ الطلبِ، وزُبْدةُ مسـيرةِ العالِمِ، وهي الصفةُ الكسبيةُ التي بها يكونُ العالمُ فقيهًا في أحكامِ الشـريعةِ أصولِها وفروعِها، ولا يكونُ له ذلك إلا إذا تحقَّـق بالعلمِ، وصار له كالوصفِ المجبولِ عليه، وفَهِم عـن اللهِ مُرادَه؛ ومعناه: أنَّه تفرَّغ لاكتسـابِ العلمِ وطلبِه، وقطَع كلَّ أشواطِ الطلبِ حتى تحقَّق بالصفةِ تحققًا لم يَعُدْ له فيها من كُلْفةٍ؛ أي أنَّه صـار مُتمكِّنًا من المنهجيةِ العلميةِ في البحثِ والتفكيرِ، حتى صار يمارسُ ذلك بنـوعٍ من التِّلْقائيَّةِ. وهي المُعبَّرُ عنها عنـدَ الفقهاءِ بالملكةِ، وإنَّما هي: خِبْرةٌ منهجيةٌ في مُعالَجةِ النصوصِ الشـرعيةِ فهمًا واسـتنباطًا، وتحقيقُ مناطاتِها تنزيلًا، وهو معنى (الفقه في الدِّين) بمعناه الكُلِّيِّ فهمًا وتطبيقًا، كما ورد في

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٨١٨ رقم (١٥٣٠).

حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا، يُفقِّهْهُ في الدِّينِ»[1].

ويقولُ الإمامُ الشـاطبيُّ في وصفِ العالِم: (ويَتحقَّقُ بالمعاني الشرعيةِ مُنزَّلةً على الخصوصيَّاتِ الفرعيةِ، بحيثُ لا يَصُدُّه التبحُّرُ في الاستبصارِ بطرَفٍ عن التبحُّرِ في الاستبصارِ بالطرَفِ الآخرِ؛ فلا هو يجري على عمومٍ واحدٍ منهما دونَ أن يَعرِضَه علـى الآخرِ، ثُمَّ يلتفتُ -معَ ذلـك- إلى تنزُّلِ ما تلخَّص له على مـا يليقُ في أفعالِ المُكلَّفينَ... وهـذه الرُّتبةُ لا خلافَ في صحَّةِ الاجتهادِ مِـن صاحبِها، وحاصلُه أنَّه مُتمكِّنٌ فيها، حاكمٌ لها، غيرُ مقهورٍ فيها... وكُلُّ رتبةٍ حكَمتْ على صاحبِها دلَّتْ على عدمِ رسوخِه فيها، وإنْ كانتْ محكومًا عليها تحتَ نظرِه وقهرِه؛ فهو صاحبُ التمكينِ والرسوخِ، فهو الذي يسـتحقُّ الانتصابَ للاجتهادِ، والتعرُّضَ للاستنباطِ... ويُسمَّى صاحبُ هذه المرتبةِ: الرَّبَّـانيَّ، والحكيمَ، والراسـخَ في العلـم، والعالمَ، والفقيهَ، والعاقلَ؛ لأنَّه يُربِّي بصغارِ العلمِ قبلَ كبارِه، ويُوفِّي كلَّ أحدٍ حقَّه حسَبَما يليقُ به، وقد تحقَّق بالعلمِ، وصار له كالوصفِ المجبولِ عليه، وفَهِم عن اللهِ مُرادَه من شريعتِه.

ومِن خاصِّيَّتِه أمرانِ:

أحدُهمـا: أنَّه يجيبُ السـائلَ على ما يليقُ به في حالتِـه على الخصوصِ، إن كان له في المسـألةِ حكمٌ خاصٌّ... والثاني: أنَّه ناظـرٌ في المآلاتِ قبلَ الجوابِ عن السُّؤالاتِ)[2].

٣- أن يكونَ سائرًا بالمنهجيةِ العلميةِ:

بأن يكونَ المعلِّمُ مهتمًّا بتنشئةِ الطُّلابِ بالمنهجيةِ العلميةِ، سالكًا جادَّةَ العلماءِ في التدريسِ.

(١) مستفاد من «مفهوم العالمية» للأستاذ فريد الأنصاري، ص٦٣.

(٢) «الموافقات» ٥/ ٢٣٢-٢٣٣.

فكم من عالـمٍ مُتمكِّنٍ في العلمِ، طـارت بمؤلَّفاتِه الرُّكبـانُ، وذاع صِيتُه في المعمورةِ، لا يسـتطيعُ أن يُربِّيَ طلابَ العلمِ، أو يُؤهِّلَ طالبًا لدرجةِ الراسـخينَ في العلمِ! لذا فإنَّ تربيةَ الطُّلابِ، وتهيئتَهم للرسـوخِ في العلمِ = ملكةٌ وقدرةٌ أودَعها اللهُ بعضَ الخلقِ، وحرَم منها الكثيرَ.

وقد أشـار ابنُ بدرانَ[1] إلى أنَّ اختيارَ شيخٍ جاهلٍ بطرقِ التعليمِ = من أسبابِ ضياعِ عمرِ طالبِ العلمِ بلا ثمرةٍ.

فإذا تقرَّر أنَّه يجبُ على طالبِ العلمِ الناصحِ لنفسِه، المُعتني بمشروعِه العلميِّ أن يلتمسَ الشـيخَ الناصحَ المُربِّيَ، السـائرَ على المنهجيةِ العلميةِ؛ فَلْيَفِرَّ إلى الذين تحقَّقوا بعلمِ الكِتابِ والسُّـنَّةِ بفهمِ السـلفِ، وبذَلوا نفيسَ الأعمـارِ تفقُّهًا وتفقيهًا، وليهرُبْ من المُختلِطينَ.

والواجـبُ على الطالـبِ دومًا: التماسُ مَـن يفيدُه، والبحـثُ عنهم في كلِّ حاضرةٍ، والتحقُّقُ من عالِميَّتِهم ورسوخِهم، والحذرُ من التلقِّي عن الأصاغرِ من أهلِ البدعِ، أو الذين ملكوا آلةَ البيانِ والخطابةِ بلا علمٍ تأصيليٍّ مُنضبِطٍ؛ فإنَّ أُسَّ الفسـادِ ومنشأَه من تسـاهلِ الطالبِ في اختيارِ مُعلِّمِه ومُربِّيه، فينشأُ على منهجِه، ويُربَّى على مثلِ أخلاقِه، فيُورَّثُ صورةً عن العلمِ مُختلِفةً عمَّا كان عليه الأوائلُ، ويُعقَدُ قلبُه على سفاسفَ يَحسَـبُها كنوزًا من العلمِ، وإذا بها كريحٍ لا وزنَ له، أو أشباحٍ لا حقيقةَ لها، وللأسفِ هؤلاءِ كثيرونَ!

وهذا أوضحُ ما يكونُ عندَ رؤيةِ أثرِ غرسِ هؤلاءِ في الناشـئةِ والشبابِ؛ لأنَّهم تربَّوا على (مَن أحسـنَ دغدغةَ عواطفِهم...)[2]، لا مَن أرشَدهم بالدليلِ والحُجَّةِ من القرآنِ والسُّنَّةِ.

---

(1) «المدخل» ص٤٨٥.

(2) «مفهوم العالِمية» ص٢١.

فيطيرون إلى أصحابِ الأصواتِ العاليةِ والخَطاباتِ الحماسيةِ، لا أهلِ الرسوخِ والتروِّي؛ فتراهم لمجالسِ الحماسِ مُندفِعينَ، ولحلقاتِ التفقُّهِ والتعليمِ مُجافِينَ، وولعُهم بالقُرَّاءِ والخطباءِ والنجومِ يفوقُ رغبتَهم في لقاءِ العلماءِ الراسخينَ!

ومكمنُ الخطرِ في التلقِّي عن غيرِ ذوي الرسوخِ: تهميشُ دَورِ العلماءِ، وإقصاءُ مجالسِهم، كما أنَّ فيها إشهارًا لغيرِ الناضجينَ علمًا وفكرًا؛ لأنَّهم تربَّوا تربيةً ناقصةً، وأخذوا حكمةَ الشبابِ لا حكمةَ الشُّيوخِ، تُحرِّكُهم العواصفُ لا الأدلةُ، وتُوجِّهُهم العامَّةُ والدَّهماءُ لا فتاوى العلماءِ.

تنبيهٌ:

دعت الضرورةُ إلى طلبِ العلمِ عندَ مَن وُصِف بسوءِ الخُلُقِ والسريرةِ مِن المُعلِّمينَ ممن عُرف بالتمكُّنِ، وليكنْ على حذرٍ وحيطةٍ في ذلك، فإنَّ العِرقَ دسَّاسٌ.

وقد يُتعلَّلُ لتجويزِ ذلك بأنَّ فسادَ الخُلُقِ والسريرةِ يقدحُ في المعلِّمِ وذَوْقِه وأدبِه، لا في أدبيَّاتِ ومسائلِ العلمِ ومِراسِه، ومعَ هذا التعليلِ أيضًا يبقى التخوُّفُ مِن تسلُّلِ سوءِ أدبِه إلى أجيالٍ من الطُّلابِ.

٤- أن يكونَ حسنَ التعليمِ.

ملكةُ التعليمِ رزقٌ للعالمِ والمتعلِّمِ، وهِبةٌ لأبناءِ جيلِه لا تُقدَّرُ بثمنٍ؛ فأولُ صلاحِ الأُمَّةِ عالمٌ حسنُ التعليمِ، ينقلُ الدِّيانةَ، وينشرُ الخيرَ والعلمَ في ربوعِ الأُمَّةِ، وبه يصلُ الحقُّ، ويحسنُ تصوُّرُه؛ لذا تعيَّن التماسُ المعلِّمِ الذي يجيدُ التعليمَ، ويحرصُ على إيصالِ المعلومةِ بأسلوبٍ سهلٍ مُرتَّبٍ.

وفي تراجمِ أعيانِ السلفِ نجدُ المدحَ بـ (حُسْنِ التعليمِ) شائعًا ذائعًا في التعريفِ بفضائلِهم، ولو خُيِّرَ الطالبُ بينَ مُعلِّمينِ؛ كان عليه أن يلتمسَ حسنَ التعليمِ؛

يلازمُه ويتابعُه في شروحِه ودروسِه.

فقد ذكر الإمامُ السخاويُّ -رحمه اللهُ- أحدَ أعيانِ القرنِ التاسعِ، فقال: (أخذ عنه خلقٌ من المبتدئين وغيرِهم، حتى بمكةَ في مُجاوَرتِه، في الفقهِ وأصولِه، والعربيةِ وغيرِها؛ لكونِه كان حسنَ التعليمِ، لا لطولِ باعِه في العلمِ، وصار فيمَن تَلْمَذَ له غيرُ واحدٍ من الأعيانِ)[1].

٥- أن يكون حريصًا على طلابه:

مما يذُكر في الشفقة على الطلاب، ما حُكي عن أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى، حيث يقول: (مَنْ قرأ عليَّ فهو ولدي).

وخاطب طلبتَه، فقال: (الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل بعلمه فالجاهل ما يرجو من نفسه، فالله الله يا أولادي! نعوذ بالله من علم يصير حجة علينا)[2].



(١) «الضوء اللامع» ١٠/ ١٣٩.

(٢) «طبقات الشافعية» ٤/ ٢٢٦.

وقد أوقفني عليه أخي الشيخ الدكتور مازن بن عيسى، وفقه الله تعالى.

طرقُ اجتلابِ ملَكةِ التعليمِ

تُجتلَبُ بأمورٍ، منها:

١- تقريبُ الأشـياءِ المعقولةِ بالأشـياءِ المحسوسةِ؛ كقولِه ﷺ: «كالرَّاعِي يَرعَى حولَ الحِمَى، يُوشِكُ أن يقعَ فيه».

٢- تنويعُ الأسلوبِ بينَ الإجمالِ والتفصيلِ:

وهذا ما أشـــار إليه الزَّركشـــيُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (والحكيمُ إذا أراد التعليمَ لا بدَّ له أن يجمعَ بينَ بيانينِ: إجماليٍّ تتشوفُ إليه النفسُ، وتفصيليٍّ تسكنُ إليه)[1].

يقـــول عبدالقاهر الجرجاني: (والواجب في قضايا المراتب أن نبدأ بالعام قبل الخاص)[2].

والتعليم النافع إنما يكون بقرن الصور المفصلة بالصورة المجملة، إذ بالتفصيل تعرف المسائل، وبالإجمال تحفظ في العقل، وبهذه الطريقة يجمع بين العلم والعمل الذي يثبت به العلم[3].

٣- ضربُ المثالِ لتقريبِ المعاني إلى الأذهانِ:

---

(١) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥-٦٦.

(٢) «أسرار البلاغة»، ص ٢٢.

(٣) مقدمة محمد رشيد رضا على «أسرار البلاغة» للجرجاني، ص (ي).

فعن عبد اللهِ بنِ مسـعودٍ -رضي اللهُ عنه- قال: خَطَّ النبـيُّ ﷺ خطًّا مُربَّعًا، وخَطَّ خطًّا في الوسَـطِ خارجًا منه، وخطَّ خُطُطًا صِغارًا إلى هذا الَّذي في الوسَطِ من جانبِه الَّذي في الوسَطِ، وقال: «هذا الإنسانُ، وهذا أَجَلُه مُحِيطٌ به -أو: قد أحاط به-، وهـذا الَّذي هو خارجٌ أَمَلُه، وهذه الخُطُطُ الصِّغارُ الأعراضُ، فإنْ أخطأَه هذا نَهَشَه هذا، وإنْ أخطأَه هذا نَهَشه هذا»[1].

قال ابنُ هُبَيرةَ -رحمه اللهُ-: (في هذا الحديثِ من الفقهِ: حسنُ التعليمِ، والتوصُّلُ في تفهيمِ الحكمـةِ لمَن لا يفهمُها إلا بضربِ المثالِ والتشـكيلِ، وهذا أصلٌ لغيرِه من الصُّوَرِ ممَّا يتوصلُ الإنسانُ في تفهيمِ الناسِ له بضربٍ من الأمثالِ والأشكالِ)[2].

٤- إعطاءُ الحديثِ حقَّه:

يقولُ سفيانُ بنُ عُيَينةَ رحمه اللهُ: (العالِمُ: الذي يُعطِي كلَّ حديثٍ حقَّه)[3].

٥- حُسنُ التَّشجيعِ:

فمِن جميلِ ما حُكِي عن سياسـةِ شـيخِ الإسـلامِ ابنِ تيميَّةَ -رحمه اللهُ- في التعليمِ: حُسنُ التَّشجيعِ؛ فقد كان يتفرَّسُ في تلميذِه ابنِ مُفلِحِ النَّجابةَ، ويُباسِطُه قائلًا: (ما أنتَ ابنَ مُفلِحٍ، أنتَ مُفلِحٌ).

٦- التدرُّجُ في التعليمِ:

فيبـدأُ المعلِّمُ الحاذقُ بتعليمِ صغـارِ العلمِ قبلَ كبـارِه، ومبادئِه وأصولِه قبلَ تفاريعِه.

---

(١) رواه البخاريُّ رقم (٦٤١٧).
(٢) «الإفصاح عن معاني الصحاح» ٢/ ٩٣.
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٨١٦ رقم (١٥٢٧).

وذَهَب ابنُ خَلْدونَ -وتابَعه عليه ابنُ بدرانَ- إلى أنَّ الأَوْلى في تعليمِ المبتدئِ: أن يُجنبَه أُستاذُه إقراءَ الكتبِ الشديدةِ الاختصارِ، العَسِرةِ على الفهمِ؛ كـ«مُختصَرِ الأصولِ» لابنِ الحاجبِ، و «الكافيةِ» له في النحوِ؛ لأنَّ الاشتغالَ بمثلِ هذينِ الكتابينِ المُختصَرينِ إخلالٌ بالتحصيلِ؛ لِمَا فيهما وفي أمثالِهما من التخليطِ على المبتدئِ بإلقاءِ الغاياتِ من العلمِ عليه وهو لم يَستعِدَّ لقبولِها بعدُ، وهو مِن سوءِ التعليمِ، ثُمَّ فيه -معَ ذلك- شغلٌ كبيرٌ على المتعلِّمِ بتتبُّعِ ألفاظِ الاختصارِ العويصةِ للفهمِ بتزاحمِ المعاني عليها، وصعوبةِ استخراجِ المسائلِ من بينِها؛ لأنَّ ألفاظَ المُختصَراتِ تجدُها لأجلِ ذلك صعبةً عويصةً، فينقطعُ في فهمِها حظٌّ صالحٌ من الوقتِ[1].

١- أن يلزمَ المعلِّمَ الذي يلتزمُ الكتابَ، ولا يخرجَ عنه إنْ وُجِد.

٢- أن يلزمَ المعلِّمَ الذي يلتزمُ بإنهاءِ الكتابِ.

ومما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الصدد: (وليس كلُّ من وجدَ العلم قدرَ على التعبير عنه والاحتجاج له، فالعلمُ شيءٌ، وبيانه شيءٌ آخر، والمناظرةُ عنه وإقامةُ دليله شيءٌ ثالثٌ، والجواب عن حجة مخالفِهِ شيءٌ رابعٌ)[2].

ونحوه هذا ما قرَّره الإمام الشاطبي -رحمه اللهُ- يجمعُ فيه أبرزَ صفاتِ المعلِّمِ، فيقولُ: (كثيرًا ما كنتُ أسمعُ الأستاذَ أبا عليٍّ الزَّواويَّ يقولُ: قال بعضُ العقلاءِ: لا يُسمَّى العالِمُ بعلمٍ ما عالِمًا بذلك العلمِ على الإطلاقِ، حتى تتوفرَ فيه أربعةُ شروطٍ:

أحدُها: أن يكونَ قد أحاط علمًا بأصولِ ذلك العلمِ على الكمالِ.

---

(١) يُنظَر: «المقدمة» لابن خلدون، ٢/ ٣٤٦، «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩٠.

(٢) «جواب الاعتراضات المصرية»، ص ٤٤. [وقد أفادني هذا النقل الشيخ محمد عزير شمس وفقه الله].

والثاني: أن تكونَ له قدرةٌ على العبارةِ عن ذلك العلمِ.

والثالثُ: أن يكونَ عارفًا بما يلزمُ عنه.

الرابعُ: أن تكونَ له قدرةٌ على دفعِ الإشكالاتِ الواردةِ على ذلك العلمِ»[1].

(١) «الإفادات والإنشادات» ص١٠٧.

أقسامُ المعلِّمينَ

يحتاجُ الطالبُ إلى معرفةِ أقسامِ المعلِّمينَ؛ ليُقرِّرَ أكثرَهم نفعًا له، وأَوْلاهم بالتقديمِ والمُتابَعةِ، لا أن يكونَ مَدْعاةً للحطِّ عليهم وازدراءِ جهودِهم؛ فإنَّ طرقَ التعليمِ تتفاوتُ، وحسنُ التعليمِ رزقٌ. وإذا كانت مشاربُ الخلقِ وميولُهم تتنوعُ؛ فإنَّها تختلفُ كذلك عندَ المعلِّمينَ. وحَسْبُنا هنا أن نستكشفَ طرائقَ الناسِ وأساليبَهم بشكلٍ إجماليٍّ؛ ليُقرِّرَ الطالبُ أكثرَهم نفعًا ليلحقَ به، ويلزمَه في طريقِ التعلمِ.

والتقسيمُ هنا اعتباريٌّ، ومُعتبرٌ فيه نفعُ الطالبِ.

أولًا: باعتبارِ الالتزامِ بإنهاءِ الكتابِ:

القسمُ الأولُ: المُشتِّتُ:

المُشتِّتُ: يُفكِّرُ في أشياءَ كثيرةٍ في آنٍ واحدٍ؛ فكُلَّما جاءته فكرةٌ، أو أُثِيرَ موضوعٌ؛ هرع إلى كتابٍ، ثُمَّ يعودُ لكتابٍ آخرَ، ثُمَّ يفتتحُ كتابًا ثالثًا ولم يُنْهِ الأوَّلَينِ؛ فهو كالمُتذوِّقِ للمناهجِ العلميةِ المختلِفةِ!

القسمُ الثاني: المُلتزِمُ بإنهاءِ الكتابِ:

فهو إذا شرعَ في كتابٍ أتمَّه، وهو يُكسِبُ تلميذَه الالتزامَ، وطولَ النَّفَسِ، والتركيزَ على الهدفِ، بخلافِ المُشتِّتِ بينَ الكتبِ، ويكتسبُ منه طُلَّابُه قوةَ النفسِ والصبرَ.

وهذا القسمُ يجبُ التماسُه في برنامجِ التأصيلِ العلميِّ.

(٢) باعتبارِ الالتزام بمادّةِ الدرسِ:

القسمُ الأول: مَن يغلبُ عليه الطابَعُ الرّوائيُّ والإخباريُّ:

وهذا القسمُ وَلِعٌ بالأخبارِ والحكاياتِ، ويكثرُ خروجُ صاحبِه عن مادّةِ الكتابِ والدرسِ، ليحكيَ قصّةً ولطيفةً، ولقاءَ شخصيًّا وموقفًا، وبعضُهم يجعلُ ورودَ الأسماءِ مُوجِبًا للوقوفِ على سِيَرِ أصحابِها، فيتوقفُ عندَ كُلِّ موضعٍ ورَد اسمُ إمامٍ فيه، ليتوسعَ، ويحكيَ مجيئَه وذهابَه ونحوَ ذلك!

وإذا نظَرْنا إلى ما يحتاجُه الناسُ الآنَ؛ وجَدْنا حاجتَهم الماسّةَ إلى معرفةِ الشريعةِ، وما يتعلقُ بها من مسائلِ التوحيدِ والإيمانِ، وشرائعِ الإسلامِ، وأركانِه، وما يتعلقُ بمُعامَلاتِه، وأنتَ تجدُ هذا في نصوصِ الأئمّةِ كثيرًا.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رحمه اللهُ: (وإنّما بُدِّلتْ بعضُ ألفاظِ الخَبَريَّاتِ [أي من الأناجيلِ]، وبعضُ معاني الأَمْرِيَّاتِ، كما نُؤمَرُ نحنُ أن نعملَ بأحاديثِ الأحكامِ المعروفةِ عن النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ العلماءَ اعتنَوْا بضبطِها أكثرَ مِن اعتنائِهم بضبطِ الخبرياتِ كأحاديثِ الزُّهدِ والقصصِ والفضائلِ ونحوِ ذلك؛ إذْ حاجةُ الأُمَمِ إلى معرفةِ الأمرِ والنَّهيِ أكثرُ من حاجتِهم إلى معرفةِ التفاصيلِ بالخبرياتِ التي يُكتفَى بالإيمانِ المُجمَلِ بها. وأمّا الأمرُ والنهيُ؛ فلا بدَّ من معرفتِه على وجهِ التفصيلِ)[1].

فما ظنُّكَ بأخبارِ الناسِ وسِيَرِهم؟!

ولا يُفهَمُ من هذا التقريرِ التحقيرُ، بل الكلامُ في التفاضلِ؛ فعندَ التَّزاحُمِ يجبُ تقديمُ الأَوْلى، ولا مانعَ من الاكتفاءِ باليسيرِ من ذلك عندَ سدِّ الحاجةِ في الأهمِّ والضروريِّ لإقامةِ دينِ العبادِ.

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ٣/ ٣٤.

القسمُ الثاني: مُولَعٌ بالواقعِ والأحداثِ الجاريةِ:

فهذا القسمُ تكثرُ إسقاطاتُه على الأحداثِ الجاريةِ، وإن لم يكنْ مُتعلِّقًا بالدرسِ وموضوعِـه، يلجأُ إلى المُلَحِ والنّكاتِ فرارًا من ضعفِ المُذاكَرةِ والتحضير للدرس، أو لاشتغال ذهنه بالواقع وأحداثه!.

القسمُ الثالثُ: مَن يلتزمُ الكتابَ والمادّةَ، ولا يخرجُ عن ذلك:

فيُوضِّحُ عبارةً، ويُنبِّهُ على خطإٍ، ويَحُلُّ مُشكِلًا، ويضربُ مثالًا.

فالحاصلُ إذَنْ:

أنَّ مَن رَغِب في إنهاءِ برنامجِه ليتأهلَ لِمَا بعدَه؛ فعليه بالقسمِ الثالثِ، وهو مَن يلتزمُ الكتابَ ومادَّةَ الدرسِ ولا يخرجُ عنها، ولا يَحرِمْ نفسَه بابَ الاستفادةِ من الأولِ والثاني إفاداتٍ عامَّةً؛ استرواحًا أحيانًا، أو استفادةً ممَّا عندَهم من خبرةٍ وسياسةٍ للعلمِ ونحوِها، ولكنْ لا يجعلْهُما عماد تحصيلِه، وإلا فلن يَبرَحَ مكانَه!

فقد أثبَت الواقعُ والتجـاربُ أنَّ مَن كان لزومُه لهذينِ القسـمينِ الأوَّلَينِ من المعلِّمينَ، ولا يخرجُ عنهما؛ لن يكونَ مُوَصَّلًا إلا إذا صحَّح المسـارَ، والتزَم منهجًا بينَه وبينَ نفسِـه يلتزمُ فيه التأصيلَ؛ لأنَّ المُعتمِدَ على هذينِ القسمينِ غالبًا ما تفوتُهم حقيقةُ العلمِ، ولا يسـتندُ إلى تحقيقِهم؛ لأنَّ تَخرُّجَهم كان علـى غيرِ منهجٍ تأصيليٍّ مُركَّزٍ، يستتبعُ منهجًا لاستكمالِ التكوينِ العلميِّ، والبحثِ العلمي الجاد.

موقفُ المتعلِّمِ من زلّةِ المعلِّمِ

إذا كان الخطأُ واردًا على سائرِ البشرِ؛ فإنَّه -بلا شكٍّ- واقعٌ على المعلِّمِ أيضًا؛ فيخطئُ كغيرِه، ويتعثرُ كما هي عادةُ البشرِ. وقد تكلَّم بعضُ الأعلامِ على مسألةِ ورودِ الخطإِ على العالِمِ، ومن ذلك ما ذُكِر عن بعضِهم: أنَّ اللهَ يجريه على لسانِه؛ لئلَّا يغلوَ الطُّلابُ فيه، وليعلمَ الناسُ أنَّه بشرٌ، يخطئُ كما يخطئون، وينسى كما ينسَوْن.

فهذا التقريرُ مهمٌّ، ويُبنَى عليه مسـألةٌ أهمُّ -وهي المقصودةُ هنا- وهي منهجُ التعاملِ معَ هذا الخطإِ.

وهنا يفترقُ الطُّلابُ أقسامًا:

١- قسمٌ يلتزمُ الشناعةَ لوقوعِ الخطإِ منه.

٢- قسمٌ يكابرُ في الحقِّ بعدَما تبيَّن، ويدَّعي عصمةً له وإن لم يُصرِّحْ بها.

٣- قسـمٌ يعرفُ قدرَ معلِّمِه، وينصرُ الحقَّ، فلا يجعلون وقوعَ الخطإِ تُكَأَةً للحطِّ منه.

والواجبُ على الطالبِ عندَ ورودِ الخطإِ أن تكونَ له هذه الأمورُ الثلاثةُ، وهي:

١- حفظُ حُرمتِه، ومُراعاةُ فضلِه.

٢- ردُّ الخطإِ، وعدمُ قبولِه.

٣- الاستفادةُ منه.

والأَوْلى بالمعلِّم أن يشكرَ الطالبَ الذي أبرَز له الخطأَ، ويُثنيَ عليه؛ فهذا دليلُ ديانةٍ وعقلٍ. وقد حكى أصحابُ التراجمِ عن عبد الغنيِّ بنِ سعيدٍ الأزديِّ -رحمه اللهُ- أنـه قال: (لمَّا ردَدتُ على أبي عبد اللهِ الحاكمِ الأوهامَ التي في «المَدْخَلِ»؛ بعَث إليَّ يشكرُني، ويدعو لي؛ فعلمتُ أنَّه رجلٌ عاقلٌ)[1].

ومِـن جميلِ ما وقَـع في ذلك: قصَّـةٌ حكاها الإمـامُ ابنُ العربـيِّ المالكيُّ -رحمه اللهُ- تُبـرِزُ فنَّ التعاملِ، والأدبَ معَ المعلمِ، معَ حفظِ حُرمتِه، والاسـتفادةِ منه، معَ ردِّ الخطأِ، يقولُ رحمه اللهُ:

أخبرَنـي محمدُ بنُ قاسـمٍ العثمانيُّ غيرَ مرَّةٍ: وصَلتُ الفسـطاطَ مرَّةً، فجئتُ مجلسَ الشيخِ أبي الفضلِ الجوهريِّ، وحضَرتُ كلامَه على الناسِ، فكان ممَّا قال في أوَّلِ مجلسٍ جلَستُ إليه: إنَّ النَّبيَّ ﷺ طلَّق، وظاهَر، وآلَى.

فلمَّا خرَج تَبِعتُه حتى بلَغتُ معَه إلى منزلِه في جماعةٍ، فجلَس معَنا في الدِّهْليزِ، وعرَّفهم أمري، فإنَّه رأى إشـارةَ الغُربةِ، ولم يعرفِ الشـخصَ قبلَ ذلك في الوارِدينَ عليه، فلمَّا انفَضَّ عنه أكثرُهم قال لي: أراكَ غريبًا؛ هل لكَ من كلامٍ؟

قلتُ: نعم.

قال لجلسائِه: أفرِجُوا له عن كلامِه.

فقاموا، وبقيـتُ وحدي معَه، فقلتُ له: حضَرتُ المجلسَ اليومَ مُتبرِّكًا بكَ[2]، وسـمعتُكَ تقولُ: آلَى رسـولُ اللهِ ﷺ، وصدَقتَ، وطلَّق رسولُ اللهِ ﷺ، وصدَقتَ، وقلتَ: وظاهَرَ رسـولُ اللهِ ﷺ، وهذا لـم يكنْ، ولا يصحُّ أن يكونَ؛ لأنَّ الظِّهارَ مُنكَرٌ من القولِ وزورٌ؛ وذلك لا يجوزُ أن يقعَ من النبيِّ ﷺ!

(١) «سير أعلام النبلاء» ١٧/ ٢٧٠.

(٢) لعلَّه يقصدُ بهذه العبارةِ: التَّبرُّكَ بعلمِه والخيرِ الذي ينشرُه.

فضمَّني إلى نفسِه، وقبَّل رأسـي، وقال لي: أنا تائبٌ من ذلك، جزاكَ اللهُ عنِّي مِن مُعلِّمٍ خيرًا.

ثُمَّ انقلبْتُ عنه، وبكَّرتُ إلى مجلسِـه في اليومِ الثاني، فألفيتُه قد سبقَني إلى الجامعِ، وجلَس على المنبرِ، فلمَّا دخَلتُ من بابِ الجامعِ ورآني؛ نادَى بأعلى صوتِه: مرحبًا بمُعلِّمي، أفسِحوا لمُعلِّمي.

فتطاوَلتِ الأعناقُ إليَّ، وحدَّقتِ الأبصارُ نحوي، وتعرفُني يا أبا بكرٍ [يشيرُ إلى عظيمِ حيائِه؛ فإنَّه كان إذا سلَّم عليه أحدٌ أو فاجأه خَجِل لعظيمِ حيائِه، واحمرَّ حتَّى كأنَّ وجهَه طُلِي بجُلَّنارَ]، قال: وتبادَر الناسُ إليَّ يرفعونني على الأيدي ويتدافعونني حتى بلغـتُ المنبرَ، وأنا لِعِظَمِ الحياءِ لا أعرفُ في أيِّ بقعةٍ أنا من الأرضِ، والجامعُ غاصٌّ بأهلِه، وأسـالَ الحياءُ بدني عرقًا، وأقبَل الشـيخُ على الخلقِ فقال لهم: أنا مُعلِّمُكم، وهذا مُعلِّمي؛ لمَّا كان بالأمسِ قلتُ لكم: آلَى رسـولُ اللـهِ ﷺ وطلَّق، وظاهَر. فما كان أحـدٌ منكم فقُه عنِّي، ولا رَدَّ عليَّ، فاتَّبَعَني إلى منزلي، وقال لي كذا وكذا -وأعاد ما جرى بيني وبينَه-، وأنا تائبٌ عن قولي بالأمسِ، وراجعٌ عنه إلى الحقِّ؛ فمَن سَمِعه ممَّن حضَر فلا يُعـوِّلْ عليه، ومَن غاب فليُبلِّغْه مَن حضَر؛ فجـزاه اللهُ خيرًا. وجعَل يَحفِلُ في الدُّعاءِ، والخلقُ يُؤمِّنون.

ثُمَّ قال ابنُ العربيِّ رحمه اللهُ: فانظُروا -رَحِمكم اللهُ- إلى هذا الدِّينِ المتينِ، والاعترافِ بالعلمِ لأهلِه على رؤوسِ الملأِ، مِن رجلٍ ظهَرتْ رياسـتُه، واشـتهَرتْ نفاستُه، لغريبٍ مجهولِ العينِ، لا يُعرَفُ مَن، ولا مِن أينَ، فاقتَدُوا به تَرشُدوا[1].

---

(١) «أحكام القرآن» ١/ ٢٤٨-٢٤٩. يقولُ الشـيخُ محمدٌ الخضرُ حُسَـين -رحمه اللهُ- عن خُلُقِ «الإنصاف الأدبي»: (والراسـخون في فضيلةِ الإنصافِ لا يُبالُونَ أن يكونَ رجوعُهم عـن الخطإِ أمامَ مَن خالَفهم وحدَه، أو بمَحضرِ جمعٍ كبيرٍ لم يشـعروا بالخلافِ ولا بخطإِ المخطئِ أو إصابـةِ المُصيبِ. وها هو ذا التاريخُ يُحدِّثُنا عن رجالٍ مِن علماءِ الإسلامِ =

وممَّن نبَّه على هذه المعاني أيضًا أبو شـامةَ -رحمه اللهُ- حيثُ يقولُ: (ينبغي لمَن يطلبُ العلمَ أن يكونَ أبدًا في طلبِ ازديادِ علمٍ ما لم يعلمْه مِن أيِّ شـخصٍ كان، فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ، أينما وجَدها أخذها، وعليه الإنصافُ، وتركُ التقليدِ، واتِّباعُ الدليلِ؛ فكُلُّ أحدٍ يخطئُ ويصيبُ، إلا مَن شَهِدتْ له الشريعةُ بالعصمةِ، وهو النبيُّ ﷺ وإجماعُ الأُمَّةِ)[1].

ويقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ: (نعوذُ باللهِ -سبحانه- ممَّا يُفضِي إلى الوقيعةِ فـي أعراضِ الأئمةِ، أو انتقاصِ أحـدٍ منهم، أو عدمِ المعرفـةِ بمقاديرِهم وفضلِهم، أو مُحادَّتِهم وتـركِ محبَّتِهم ومُوالاتِهم، ونرجو من اللهِ -سـبحانه- أن نكونَ ممَّن يُحِبُّهم ويُواليهم، ويعرفُ مِن حقوقِهـم وفضلِهم ما لا يعرفُه أكثرُ الأتباعِ، وأن يكونَ نصيبُنا من ذلك أوفرَ نصيبٍ وأعظمَ حظٍّ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

لكنَّ دينَ الإسلامِ إنَّما يتمُّ بأمرينِ:

أحدُهما: معرفةُ فضـلِ الأئمةِ وحقوقِهم ومقاديرِهم، وتـركُ كلِّ ما يجرُّ إلى ثَلْبِهم.

والثاني: النصيحةُ للهِ -سبحانه- ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم،

= بلَغوا هـذه الغايةَ من الإنصافِ؛ قال عبـدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ: ذاكَرتُ القاضـيَ عُبيدَ اللهِ بنَ الحسـنِ في حديثٍ -وهو يومَئـذٍ قاضٍ-، فخالَفنـي فيه، فدخلتُ عليـه بعدُ وعندَه الناسُ سِـماطَينِ [أي صفَّينِ]، فقال لي: ذلك الحديـثُ كما قلتَ أنتَ، وأرجعُ أنا صاغرًا. فعُبيدُ اللهِ بنُ الحسنِ قد أحسَنَ إلى نفسِه؛ إذْ أخذها بفضيلةِ الإنصافِ، وأحسَنَ إلى الناسِ؛ إذْ علَّمهم كيفَ يعترفون بالخطأِ إذا أخطَئوا، ولا يتلبَّثون في الرُّجوعِ إلى الحقِّ ولو عَظُمتْ مناصبُهم، وعلَتْ أقدارُهم). مقال: «الإنصاف الأدبي» ضمنَ «مقالات لكبار كُتَّاب العربيَّة في العصر الحديث» للحمَد ١/ ٦٣- ٦٤.

(١) «خطبة الكتاب المؤمل» ص١٤١.

وإبانةُ ما أنزَل اللهُ -سبحانه- من البيِّناتِ والهدى.

ولا مُنافاةَ -إن شاء اللهُ سبحانه- بينَ القسمينِ لمَن شرَح اللهُ صدرَه، وإنَّما يضيقُ عن ذلك أحدُ رجلينِ: رجلٌ جاهلٌ بمقاديرِهم ومعاذيرِهم، أو رجلٌ جاهلٌ بالشريعةِ وأصولِ الأحكامِ.

وهذا المقصودُ يتلخصُ بوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ الرجلَ الجليلَ الذي له في الإسلامِ قَدَمٌ صالحٌ وآثارٌ حسنةٌ، وهو من الإسلامِ وأهلِه بمكانةٍ عليا، قد يكونُ منه الهفوةُ والزَّلَّةُ، هو فيها معذورٌ، بل مأجورٌ، لا يجوزُ أن يُتَّبَعَ فيها، معَ بقاءِ مكانتِه ومنزلتِه في قلوبِ المؤمنين.

واعتبِرْ ذلك بمناظرةِ الإمامِ عبد اللهِ بنِ المباركِ، قال: كُنَّا بالكوفةِ، فناظَروني في ذلك -يعني النَّبيذَ المُختلَفَ فيه- فقلتُ لهم: تعالوا فَلْيَحتجَّ المُحتجُّ منكم عمَّن شاء من أصحابِ النبيِّ ﷺ بالرُّخصةِ، فإنْ لم نُبيِّنِ الرَّدَّ عليه عن ذلك الرجلِ بشدَّةٍ صحَّتْ عنه، فاحتَجُّوا، فما جاؤوا عن أحدٍ برُخصةٍ إلَّا جئناهم بشدَّةٍ، فلمَّا لم يَبْقَ في يدِ أحدٍ منهم إلا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، وليس احتجاجُهم عنه في شدَّةِ النَّبيذِ بشيءٍ يصحُّ عنه، إنَّما يصحُّ عنه أنَّه لم يُنبَذْ له في الجرِّ الأخضرِ.

قال ابنُ المباركِ: فقلتُ للمُحتَجِّ عنه في الرُّخصةِ: يا أحمقُ! عُدَّ أنَّ ابنَ مسعودٍ لو كان ههنا جالسًا، فقال هو لكَ: حلالٌ. وما وصَفْنا عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه في الشِّدَّةِ= كان ينبغي لكَ أن تحذَرَ، أو تَجبُنَ، أو تخشى!

فقال قائلُهم: يا أبا عبد الرحمنِ، فالنَّخَعيُّ، والشعبيُّ -وسمَّى عِدَّةً معهما- كانوا يشربون الحرامَ؟

فقلتُ لهم: دَعُوا عندَ الاحتجاجِ تسميةَ الرِّجالِ؛ فرُبَّ رجلٍ في الإسلامِ مناقبُه كذا وكذا، وعسى أن يكونَ منه زلَّةٌ، أَفَلِأحدٍ أن يحتجَّ بها؟! فإنْ أبَيْتم، فما قولُكم في

عطاءٍ، وطاووسٍ، وجابرِ بنِ زيدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعكرمةَ؟

قالوا: كانوا خِيارًا.

قلتُ: فما قولُكم في الدِّرهمِ بالدِّرهمينِ يدًا بيدٍ؟

فقالوا: حرامٌ.

فقال ابنُ المباركِ: إنَّ هؤلاءِ رأَوْه حلالًا، فماتوا وهم يأكلون الحرامَ؟

فبُهِتوا، وانقطَعتْ حُجَّتُهم[1]!

(١) «بيان الدليل على بطلان التحليل» ص ١٣٩-١٤١، و«الفتاوى الكبرى» ٦/ ٩٢-٩٣.

فَنُّ الشَّرحِ وإيصالِ العلومِ

(حريصًا على التَّعليـــمِ، مُجتهِدًا على التَّفهيمِ، يُعِيدُ الـــدَّرسَ للطَّالبِ مرَّاتٍ، ويُطالِبُه بإعادتِه كرَّاتٍ، ويسمّعُ على المُشتغِلينَ الماضيَ الَّذي تقدَّم، ويُقيمُ بالمُذاكَرةِ مِن رُبُوعِ العلمِ مـــا تهدَّم، لو أمكَنه صوَّر الدَّرسَ للطَّالبِ في الخارجِ، ورقَّاه في فهمِه على المعارجِ، وانتفَع عليه بذلك جماعةٌ...)

[صلاحُ الدِّينِ الصَّفَديُّ -رحمه اللهُ- واصفًا ابنَ قاضي شهْبةَ رحمه اللهُ]

أهمية الشروح والحاجة إليها

كتَب العلماءُ في أهميةِ الشُّروحِ، ومسيسِ الحاجةِ إليها والاعتناءِ بها، وتناثَر الحديثُ عنها في جموعِ مُؤلَّفاتِهم، غيرَ أنَّ جماعَ مقاصدِ الشُّروحِ تتفرَّعُ على حاجاتٍ حقيقيةٍ تعترضُ الطالبَ، لا أمورًا مُستحسَنةً. فتعاطي المتونِ خاصَّةً، والولوجُ في الفنونِ دونَ تلقِّي شرحٍ فيه على شيخٍ أو كتابٍ شارحٍ = قد يقفُ عائقًا دونَ أصلِ الفهمِ أو كمالِه، وقد يكونُ سببًا في تسرُّبِ سوءِ تصوُّرٍ عن العلمِ، فيتعاظمُ الخطأُ دونَ وعيٍ أو إدراكٍ له؛ فالحاجةُ إليها -إذَنْ- مُلجِئةٌ، وذلك لأمورٍ:

الأمرُ الأولُ: كمالُ مهارةِ المصنِّفِ:

فإنَّ المؤلِّفَ -لجودةِ ذهنِه، وحُسنِ عبارتِه- يتكلمُ على معانٍ دقيقةٍ بكلامٍ وجيزٍ كافٍ في الدَّلالةِ على المطلوبِ، وغيرُه ليس في مرتبتِه؛ فرُبَّما عَسُر عليه فهمُ بعضِها أو تعذَّر، فيحتاجُ إلى زيادةِ بسطٍ في العبارةِ؛ لتظهرَ تلك المعاني الخفيَّةُ، ومِن ههنا شرَح بعضُ العلماءِ مصنفاتهم.

الأمرُ الثاني: حذفُ بعضِ مُقدّماتِ الأقيسةِ:

وذلك اعتمادًا على وضوحِها، أو لأنَّها من علمٍ آخرَ، أو أهمَل ترتيبَ بعضِ الأقيسةِ فأغفَل عِلَلَ بعضِ القضايا، فيحتاجُ الشارحُ إلى أن يذكرَ المُقدِّماتِ المُهمَلةَ، ويُبيِّنَ ما يمكنُ بيانُه في ذلك العلمِ، ويُرشِدَ إلى أماكنَ فيما لا يليقُ بذلك الموضعِ من المُقدِّماتِ، ويُرتِّبَ القياساتِ، ويعطيَ عللَ ما لم يُعْطِ المصنِّفُ.

الأمرُ الثالثُ: احتمالُ اللفظِ لمعانٍ تأويليةٍ أو لدقةِ المعنى، أو استعمالِ الألفاظِ المجازيةِ والدّلالةِ الالتزاميةِ:

فحينئذٍ يَعمِدُ الشارحُ إلى بيانِ غرضِ المصنِّفِ وترجيحِه.

الأمرُ الرابعُ: وقوعُ الغلطِ في بعضِ التصانيفِ:

فذلك ما لا يخلو البشرُ عنه مِن السـهوِ، والغلطِ، والحذفِ لبعضِ المُهِمَّاتِ، وتكرارِ الشيءِ بعينِه بغيرِ ضرورةٍ، إلى غيرِ ذلك، فيحتاجُ أن يُنبَّهَ عليه[1].

---

(١) راجع: «كشف الظنون» ١/ ٣٦-٣٧.

مبادئُ الرُّؤوسِ الثَّمانيةِ في شرحِ الكتابِ

(الـرُّؤوسُ الثَّمانيـةُ)[1]: مُصطلَحٌ أطلَقه بعضُ العلمـاءِ على: (مجموعةٍ من المبادئِ الهامَّةِ التي تُعتبَرُ خطوةً في سبيلِ التَّأصيلِ العلميِّ).

ومـن الممكنِ أن تُعرَّفَ بأنها: (مبادئُ أساسـيَّةٌ يجبُ أن يتعرضَ لها شـارحُ الكتابِ قبلَ الشروعِ في المقصودِ منه)، وهي:

(١) الغرضُ من تدوينِ العلمِ أو تحصيلِه:

أي الفائدةُ المُترتِّبةُ عليه؛ لئـلَّا يكونَ تحصيلُه عبثًا في نظرِه، والمرادُ بالغرضِ هنـا: بيانُ وجهِ الحاجةِ إليه؛ كحاجةِ الناسِ إلى الفقـهِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي كلِّ ما يُلابِسُهم.

(٢) المنفعةُ:

المراد بها الفائدةُ المُعتَدُّ بها ليتحمَّلَ المشقَّةَ في تحصيلِ هذا الفنِّ أو الكتابِ، ولا يَعرِضَ له فتورٌ في طلبِه فيكونَ عبثًا.

وقيل: إنَّ المرادَ بالغرضِ هو العِلَّةُ الغائيَّةُ؛ فإنَّ ما يترتبُ على فعلٍ يُسمَّى فائدةً ومنفعةً وغايةً، فإن كان باعثًا للفاعلِ على صدورِ ذلك الفعلِ منه؛ يُسمَّى غرضًا وعِلَّةً

---

(١) ما سيأتي في هذا المبحثِ منقـولٌ باختصارٍ وتصرُّفٍ من: «أبجـد العلوم» ص٥٨-٦١، و«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزيِّ ١/ ٩.

غائيَّةً، وذكرُ المنفعةِ إنَّما يجبُ إن وُجِدتْ لهذا العلمِ منفعةٌ ومصلحةٌ سوى الغرضِ الباعثِ، وإلَّا فلا. وبالجملةِ، فالمنفعةُ قد تكونُ بعينِها الغرضَ الباعثَ.

(٣) السِّمَةُ:

السِّمةُ هي عنوانُ العلمِ، والمرادُ منه تعريفُ العلمِ برسمِه، أو بيانُ خاصَّةٍ[1] من خواصِّه ليحصلَ للطالبِ علمٌ إجماليٌّ بمسائلِه، ويكونَ له بصيرةٌ في طلبِه.

(٤) المُؤلِّفُ:

وهو مُصنِّفُ الكتابِ؛ ليركنَ قلبُ المتعلِّمِ إليه في قبولِ كلامِه، والاعتمادِ عليه؛ لاختلافِ ذلك باختلافِ المُصنِّفينَ. وأمَّا المُحقِّقون؛ فيعرفون الرِّجالَ بالحقِّ لا الحقَّ بالرِّجالِ، ولَنِعمَ ما قيل: (لا تنظرْ إلى مَن قال، وانظرْ إلى ما قال).

ومِن شرطِ المصنِّفين: أن يحترزوا عن الزيادةِ على ما يجبُ، والنقصانِ عمَّا يجبُ، وعن استعمالِ الألفاظِ الغريبةِ المُشتَرَكةِ، وعن رداءةِ الوضعِ؛ وهي تقديمُ ما يجبُ تأخيرُه، وتأخيرُ ما يجبُ تقديمُه.

(٥) مِن أيِّ علمٍ هو؟

أي مِن اليقينيَّاتِ أو الظَّنِّيَّاتِ، مِن النَّظريَّاتِ أو العمليَّاتِ، مِن الشَّرعيَّاتِ أو غيرِها؛ ليطلبَ المتعلِّمُ ما تليقُ به المسائلُ المطلوبةُ.

(٦) مِن أيِّ مرتبةٍ هو؟

أي بيانُ مرتبتِه بينَ العلومِ: إمَّا باعتبارِ عمومِ موضوعِه أو خصوصِه، أو باعتبارِ

---

(١) المرادُ هنا تمييزُ العلمِ ببيانِ خواصِّه وأعراضِه التي تُميِّزُه، والتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه من العلومِ الأخرى.

توقُّفِه على علمٍ آخرَ أو عدمِ توقُّفِه عليه، أو باعتبارِ الأهميةِ أو الشرفِ؛ ليُقدَّمَ تحصيلَه على ما يجبُ أو يُستحسَنُ تقديمُه عليه، ويُؤخَّرَ تحصيلَه عمَّا يجبُ أو يُستحسَنُ تأخيرُه عنه.

(٧) القِسْمةُ:

وهي بيانُ أجزاءِ العلمِ وأبوابِه؛ ليطلبَ المتعلِّمُ في كلِّ بابٍ منها ما يتعلقُ به، ولا يُضيِّعَ وقتَه في تحصيلِ مطالبَ لا تتعلقُ به، كما يُقالُ: «أبوابُ الفقهِ تسعةٌ: كذا وكذا...». وهذا قسمةُ العلمِ. وقسمةُ الكتابِ كما يُقالُ: «كتابُنا هذا مُرتَّبٌ على: مُقدِّمةٍ، وبابينِ، وخاتمةٍ». وهذا الثاني كثيرٌ شائعٌ لا يخلو عنه كتابٌ.

(٨) الأنحاءُ التَّعليميَّةُ:

وهي أنحاءٌ مُستحسَنةٌ في طرقِ التعليمِ.

أحدُها: التقسيمُ، وهو: التكثيرُ مِن فوقُ إلى أسفلُ؛ أي مِن أعمَّ إلى ما هو أخصُّ؛ كتقسيمِ الجنسِ إلى الأنواعِ، والنوعِ إلى الأصنافِ، والصِّنفِ إلى الأشخاصِ.

وثانيها: التحليلُ، وهو عكسُه؛ أي التكثيرُ مِن أسفلُ إلى فوقُ؛ أي مِن أخصَّ إلى ما هو أعمُّ؛ كتحليلِ (زيدٍ) إلى: الإنسانِ، والحيوانِ، وتحليلِ (الإنسانِ) إلى: الحيوانِ، والجسمِ.

وثالثُها: التحديدُ:

أي فعلُ الحدِّ: أي إيرادُ حدِّ الشيءِ؛ وهو ما يدلُّ على الشيءِ دَلالةً مُفصَّلةً بما به قِوامُه، بخلافِ الرَّسمِ فإنَّه يدلُّ عليه دلالةً مُجمَلةً.

ورابعُها: البرهانُ:

أي الطريقُ إلى الوقوفِ على الحقِّ أي اليقيــنِ إن كان المطلوبُ نظريًّا، وإلى الوقوفِ عليه والعملِ به إن كان عمليًّا.

وهذه أمورٌ استحسانيَّةٌ، لا يلزمُ مِن تركِها فسادٌ، ويُستفادُ منها في الشَّرحِ.

الملَكةُ العِلميَّة

الحصولُ على الملَكةِ الرَّاســخةِ = همُّ الطالبِ الأوَّل، وما مِن سائرٍ في مدارجِ التعلمِ إلَّا وهو ينشــدُها، والحقيقة أنه ليس كلُّ سالكٍ ودارسٍ بمنعوتٍ بها مُستجمِعٍ مهاراتِها؛ إذْ دونَ تحقيقِها سُــلَّمٌ طويلٌ ومُمارَساتٌ؛ لِتَنفِيَ عنها المُقصِّرَ في شروطِها ورســومِها، وتَصْقُلَ ذِهــنَ الدَّائبِ في طلبِها؛ حتى لا يكادَ يظفــرُ بها إلا الواحدُ بعدَ الواحدِ، فهُمْ في الحقيقةِ أفرادٌ قلائلُ من المُنتسِبينَ إلى العلمِ.

ثُمَّ إنَّ المُتحقِّقينَ بها على درجاتٍ: ماهرٌ فيها، ومُتوسِّطٌ.

وتجدُ أيضًا أدعياءَ يدَّعونها يَحســبُهم البعضُ من ذوي الملكةِ لفرطِ جرأتِهم وإحكامِ الدعاوى، لكن تناقضهم سيُكذِّبُ دعواهم.

يدفعُ الطالبَ لتحصيــلِ الملَكةِ كونُها (مناعةً علميَّــةً)، و (حَصانةً)؛ فأهمُّ ما يمكنُ أن يُجتنَى مِن تعلُّمٍ مُنظَّمٍ مُرتَّبٍ ممزوجٍ بمراسٍ مناعةٌ وحصانةٌ.

والسِّــرُّ في تلك المناعةِ: رســوخُ أبجديَّاتِ العلمِ، وقوانينِه، وقواعدِه؛ وهذه ثمرةٌ ما بعدَها ثمرةٌ، وفائدةٌ تَقصُرُ دونَها كلُّ فائدةٍ.

ومنشأُ ذلك الرسوخِ: التَّكرارُ، والمراسُ الدَّؤوبُ.

حقيقةُ الملَكةِ العِلْميّةِ

قال ابنُ فارسٍ: الميمُ واللامُ والكافُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُوَّةٍ في الشيءِ وصحَّةٍ.

يُقالُ: أَملَكَ عَجِينَه: قوَّى عجنَه وشدَّه. وملَّكتُ الشيءَ: قوَّيتُه.

ثُمَّ قيل: ملَكَ الإنسانُ الشيءَ، يَملِكُه، مَلْكًا. والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يدَه فيه قويَّةٌ صحيحةٌ.

فالمِلكُ: ما مُلِك من مالٍ. والمملوكُ: العبدُ. وفلانٌ حسنُ الملَكةِ؛ أي حسَنُ الصنيعِ إلى مُمالِكِيه[1].

فمَدارُها مادَّتها: (قوَّةٍ في الشيءِ وصحَّةٍ).

وأمَّا في الاصطلاحِ:

فصفةٌ راسخةٌ في النَّفسِ، أو استعدادٌ عقليٌّ خاصٌّ لتناولِ أعمالٍ مُعيَّنةٍ بحِذْقٍ ومهارةٍ؛ مثلَ الملَكةِ العدديَّةِ، والملَكةِ اللُّغويَّةِ[2].

قال الجُرْجانيُّ: وتحقيقُه أنَّه تحصلُ للنَّفسِ هيئةٌ بسببِ فعلٍ من الأفعالِ، ويُقالُ لتلك الهيئةِ: «كيفيَّةٌ نفسانيَّةٌ»، وتُسمَّى «حالةً» ما دامت سريعةَ الزَّوالِ، فإذا

---

(1) «مقاييس اللُّغة» ٥/ ٣٥٢- ٣٥٣.

(2) «المعجم الوسيط» ٢/ ٨٨٦.

تكرَّرتْ ومارَســتْها النَّفسُ حتى رسَــختْ تلك الكيفيةُ فيها وصارتْ بطيئةَ الزَّوالِ؛ فتصيرُ «ملكةً»، وبالقياسِ إلى ذلك الفعل عادةً وخلقًا[1].

فمُصطلَحُ «الملكةِ» إذَنْ يدلُّ على صفةٍ راســخةٍ غُرِستْ في النَّفسِ، ورسَختْ باطِّلاعٍ ومِراسٍ، حتى اصطبَغتْ بها النفسُ، ولا تنفكُّ عنها.

ومن معاني الملكةِ:

السَّجِيَّةُ:

قال الزَّبيديُّ: هي الملكةُ الرَّاسخةُ في النَّفسِ التي لا تقبلُ الزوالَ بسهولةٍ[2].

وقال مُحمَّدٌ الطَّاهرُ ابنُ عاشــورٍ رحمه اللهُ: ونعنــي بالملكةِ: أن يصيرَ العملُ بتعليماتِ العلمِ كسجيَّةٍ للمُتعلِّمِ، لا يحتاجُ معَها إلى مُشايَعةِ القواعدِ إيَّاه[3].

---

(١) «معجــم التَّعريفات» ص١٩٣. وانظــر أيضًا: «دســتور العلماء» [أو «جامــع العلوم في اصطلاحات الفنون»] ٣/ ٢٢٨.

(٢) «تاج العروس» ٣٨/ ٢٤٨.

(٣) «أليس الصُّبحُ بقريبٍ؟» ص١٥٣.

علامةُ حصولِ الملَكةِ العلميّةِ

علامتُها اجتماعُ أربعِ خصالٍ:

الأولى: المعرفةُ بأصولِ العلمِ، وما يُبنَى عليه ذلك العلمُ، وما يَلزَمُ عنه.

الثانيةُ: القدرةُ على التعبيرِ عن مقصَدِ هذا العلمِ.

الثالثةُ: دفعُ الشُّبَهِ الواردةِ على هذا العلمِ[1].

الرابعةُ: طردُ قواعدِه في فروعٍ ومسائلَ جديدةٍ.

---

(١) «بدائع السلك في طبائع الملك» لابن الأزرق ٢/ ٧٤٥.

مراحلُ الملَكةِ

للحصولِ على الملكـةِ لا بدَّ للطالبِ من الترقِّي فـي مراحلَ ثلاث؛ وعبرَها تتكوّنُ في نفسِ صاحبِها، وتتّسعُ، وتطَّرد.

الأولى: تلقينُ أستاذٍ حاذقٍ.

الثانية: اطِّلاعٌ على الكتبِ المُتقَنةِ في قوانينِ الفنِّ وقواعدِه.

الثالثةُ: جهدٌ ومِراسٌ.

فالأسـتاذُ الحاذقُ: مِفتاحُ الملكةِ، وقادحُ شَرَرِها في قلبِ الطالبِ، خاصَّةً مَن كان أهلًا لذلك، ومُتحليًا بحسنِ الملكةِ في التعليمِ؛ فيبتدئُ المتعلِّمُ معَه دربَ الملكةِ العلميةِ، ثم يُنيرُها فكرُ الطالبِ وذكاؤه، ويُشـعِلُ فتيلَها اطِّلاعٌ جادٌّ على كتبِ أصولِ العلمِ وقوانينِه وقواعدِه الكُلِّيَّةِ، ثم ممارسـةٌ دؤوبـةٌ وجهدٌ مبذولٌ؛ فإنَّ (الملكة التي تَحصُلُ إمَّا عن قوانينَ تُتعلَّمُ، أو عن أفعالٍ تُعتادُ)[1].

فالجهدُ والمِـراسُ يُجلِّي للطالبِ مَقصَدَ العلمِ، ويكشـفُ له سِـرَّ الصِّناعةِ العلميةِ، ليُحسِـنَ اسـتعمالَ مادَّةِ العلمِ. وهذه هي الغايةُ من تقعيدِ القواعدِ وتأصيلِ الأصولِ.

يقولُ الحَجْويُّ رحمه اللهُ: (وصيَّروا هـذه الأصولَ علومًا وصناعاتٍ تحتاجُ

(١) «المنطق» لابن سينا [نسخة إلكترونية] ٢/ ١٥٨.

لمزيدِ المُمارَساتِ؛ لينضبطَ بذلك الفقهُ، وينتظمَ أمرُ الاجتهادِ الذي يَتوقَّفُ عليه تقدُّمُ الأُمَّةِ وصَونُ حقوقِها)[1].

ويقولُ ابنُ عاشــورٍ رحمه اللهُ: (انقطاعُ العملِ -أي التَّمرينِ- عن التعليم قد محَــا رُوحَ العلمِ من الأذهانِ، فصيَّر العلمَ قواعــدَ واصطلاحاتٍ لا يُهتَمُّ فيها بعملٍ، ولا يُمــرَّنُ صاحبُها، حتى إذا بحَث أو انتقَد؛ فإنَّما ذلك في مُعارَضةِ قاعدةٍ أخرى)[2].

وما لم تجتمعِ الثلاثُ: (التَّلقيــنُ)، و (الاطِّلاعُ)، و (الجهدُ والمِراسُ) = عاد النقصُ على الطالبِ، وتسلَّل الخللُ إلى ملكتِه.

(١) «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» ٢/ ٣.
(٢) «أليس الصبح بقريب؟» ص١٥٧.

سُلَّمُ الملَكةِ

سُلَّمُها خمسُ درجاتٍ[1]، وفيها تفصيل لمراحل الملكة (التلقين- والاطلاع- والمراس):

الدَّرجةُ الأولى: تلقينُ أستاذٍ حاذقٍ في الفنِّ:

فأوَّلُ درجاتِ الملكةِ درجةٌ يتلقَّاها الطالبُ في محرابِ التعلُّمِ والدَّرسِ، ففيه تتَّسعُ مداركُه. وإذا أجرَيْنا نظرًا استقرائيًّا على مصادرِ العلمِ والمعرفةِ عندَ الناسِ؛ فإنَّنا سنجدُ أنَّ حصولَ الملكاتِ على المباشرةِ والتلقينِ أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدرِ كثرةِ الشُّيوخِ يكونُ حصولُ الملكةِ ورسوخُها، خاصَّةً في المراحلِ الأولى من الطلبِ، ليَتبَعَ ذلك جهدٌ شخصيٌّ مبنيٌّ على القراءةِ والممارسةِ.

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: الاطِّلاعُ والمُمارَسةُ:

وفيها تنقدحُ في ذاتِ المتلقِّي صفةٌ وأثرٌ، لكنَّ ذلك غيرُ راسخٍ.

الدَّرجةُ الثَّالثةُ: اطِّلاعٌ ثانٍ ومُمارَسةٌ ثانيةٌ:

وفيها يَقِرُّ في النفسِ منه أثرٌ وحالٌ -وهي صفةٌ غيرُ راسخةٍ- تحتاجُ إلى تعاهدٍ

(١) مُستفادٌ من مباحثَ مُتنوِّعةٍ لابنِ خَلدونَ في «المُقدِّمة» ٢/ ٣٤٧-٣٤٨، و«أبجد العلوم» ص١٤٧-١٥٨. وانظر: «التعريفات» للجرجاني، ص١٩٣ -بتصرُّف- و«كشف الظنون» ١/ ٤٢-٤٣.

آخَرَ وسقيٍ.

الدّرجةُ الرّابعةُ: مُمارَساتٌ مُتكرِّرةٌ:

وفيها يتحولُ المُطَّلِعُ من حالٍ إلى ملكةٍ راسخةٍ، تَقِرُّ في النفسِ، وتُؤتِي ثمارَها، وبها يستطيعُ التعاملَ معَ مادَّةِ العلمِ ويُحسِنُ استعمالَه بحسِّ الاجتهاد، فيُحسِنُ التصوُّرَ، ويَمهَرُ في التصديقِ والحُكمِ على المسائلِ، ويجيدُ الاستعمالَ في جزئياتٍ جديدةٍ.

وهذه الدرجاتُ قد تنقسمُ إلى: مبتدئٍ، ومُتوسِّطٍ، ومُنتَهٍ، ويرقى بها في درجاتِ الملكةِ رُقيَّه في درجاتِ التعلُّمِ.

ومن الحديثِ عن الملكةِ يظهرُ أثرُ «التَّكرارِ»؛ إذِ الملكاتُ لا تحصلُ إلا بتكرارِ الأفعالِ؛ لأنَّ الفعلَ يقعُ أوَّلًا وتعودُ منه لِلذَّاتِ صفةٌ، ثم تتكررُ فتكونُ حالًا، ومعنى الحالِ: أنها صفةٌ غيرُ راسخةٍ. ثم يزيدُ التَّكرارُ، فتكونُ ملكةً؛ أي صفةً راسخةً.

فالمتكلِّمُ من العربِ -حين كانت ملكةُ اللُّغةِ العربيَّةِ موجودةً فيهم- يسمعُ كلامَ أهلِ جيلِه، وأساليبَهم في مُخاطَباتِهم، وكيفيةَ تعبيرِهم عن مقاصدِهم، كما يسمعُ الصَّبيُّ استعمالَ المفرداتِ في معانيها فيُلقَّنَها أوَّلًا، ثم يسمعُ التراكيبَ بعدَها فيُلقَّنَها كذلك، ثم لا يزالُ سماعُهم لذلك يتجددُ في كلِّ لحظةٍ، ومن كلِّ مُتكلِّمٍ، واستعمالُه يتكررُ إلى أن يصيرَ ذلك ملكةً وصفةً راسخةً، ويكونَ كأحدِهم.

وممَّن عُني بالتَّكرارِ للطالبِ ليتمهَّرَ في مِراسِ العلمِ: الإمامُ كمالُ الدِّينِ ابنُ قاضي شُهبةَ الشَّافعيُّ رحمه اللهُ؛ فقد حُكِي عنه أنَّه كان: (حريصًا على التعليمِ، مجتهدًا على التفهيمِ، يُعِيدُ الدَّرسَ للطالبِ مرَّاتٍ، ويطالبُه بإعادتِه كرَّاتٍ، ويُسمِّعُ على المُشتغِلينَ الماضيَ الذي تقدَّم، ويقيمُ بالمُذاكَرةِ من ربوعِ العلمِ ما تهدَّم.

لو أمكَنه صـوَّر الدَّرسَ للطالبِ في الخارجِ، ورقَّاه فـي فهمِه على المعارجِ، وانتفَع عليه بذلك جماعةٌ)[1].

وذكر التَّاجُ السُّـبكيُّ (ت ٧٧١) رحمه اللهُ، عن أبي الحسـنِ إلْكِيَا الهَرَّاسـيِّ رحمه اللهُ، أنَّه: (كان يُكرِّرُ الدَّرسَ على كُلِّ مِرْقاةٍ من مراقي دَرَجِ المدرسـةِ النِّظاميَّةِ بنيسابورَ سبعَ مرَّاتٍ، وأنَّ المراقيَ كانت سبعينَ مِرقاةً)[2].

الدَّرجةُ الخامسةُ: المُحاوَرةُ في العلمِ:

فتقُ اللســانِ بالمحاورةِ والمناظرةِ في المســائلِ العلميةِ = درجةٌ عاليةٌ تُقرِّبُ الملكةَ، وبها يُحصِّلُ الطالبُ مرامَه. ونجدُ بعضَ طلابِ العلمِ -وللأسفِ- بعدَ مُضِيِّ الكثيرِ من أعمارِهم في ملازمةِ المجالسِ العلميةِ، سـكوتًا لا ينطقون ولا يُفاوِضون، وعنايتُهـم بالحفظِ أكثرُ من الحاجةِ؛ فلا يحصلــون على طائلٍ من ملكةِ التصرُّفِ في العلـمِ والتعليمِ. ثم بعدَ تحصيلِ مَن يرى منهم أنَّــه قد حصَّل، تجدُ ملكتَه قاصرةً في علمِه إنْ فاوَض أو ناظَر أو علَّم!

وما أتاهم القصورُ إلَّا مِن قِبَلِ التعليمِ وانقطاعِ سـندِه، وإلا فحفظُهم أبلغُ من حفظِ سـواهم؛ لشـدَّةِ عنايتِهم به، وظنِّهم أنَّه المقصودُ من الملكـةِ العلميةِ، وليس كذلك.

---

(١) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٠٥.

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» ٧/ ٢٣٢.

أُستاذيةُ الكتبِ ما لها، وما عليها

الكتابُ أُستاذٌ صامتٌ، ومُعلِّمٌ مُتقِنٌ صبورٌ، غيرَ أنَّه لا ينقلُ أنفاسَ العلمِ وأحاسيسَه. فجِماعُ الأثرِ الحسنِ في أُستاذيَّةِ الكتبِ: كونُها تنقلُ العلمَ بأمانةٍ وإتقانٍ، على حسَبِ قوَّةِ الكاتبِ وضعفِه، وجودةِ فهمِ الطالبِ وعدمِه، والخلافُ في تقديمِ الأستاذِ على الكِتابِ، والعكس، قد وقَع قديمًا، في علومِ الشريعةِ وغيرِها.

حكى الصَّفديُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ ابنِ رِضوانَ رئيسِ الأطبَّاءِ للحاكمِ صاحبِ مصرَ، أنَّه: (لم يكنْ له مُعلِّمٌ في صناعةِ الطِّبِّ يُنسَبُ إليه، وله مُصنَّفٌ في أنَّ التَّعلُّمَ من الكتبِ أوفقُ من المُعلِّمينَ. ورَدَّ عليه ابنُ بطْلانَ هذا الرَّأيَ وغيرَه في كتابٍ مُفرَدٍ، وذكَر فصلًا في العِلَلِ التي مِن أجلِها صار المتعلِّمُ من أفواهِ الرجالِ أفضلَ من المتعلِّمِ من الصُّحُفِ إذا كان قولُهما واحدًا، وأورَد عدَّةَ عللٍ)[1].

---

(1) «الوافي بالوَفَيات» ٢١/ ٧٤. وانظر أيضًا: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، تحقيق: أوجست ملر ٢/ ١٠١-١٠٢.

صُوَرُ التَّلقِّي على الكتبِ

فبسَبْرِ طرائقِ المتعلِّمين ومناهجِهم، والنظرِ في أحوالِ المُنتسِبين إلى العلمِ - يجدُ المُتتبِّعُ أنَّ التقسيمَ لا يخرجُ عن إحدى هذه الثَّلاثِ:

الصُّورةُ الأولى: الاعتمادُ على الكتبِ، والاستغناءُ عن إفادةِ المشايخِ:

فهذه الصورةُ كثُر الذَّمُّ لها، وورَد نهيُ العلماءِ عنها، فقَلَّما يسلمُ من معاثرِها وأخطائِها مَن سلكها مُكتفِيًا بها نائيًا عن حِلَقِ العلمِ والتعلُّمِ.

الصُّورةُ الثَّانيةُ: أخذُ مرحلةِ «التأصيلِ العلميّ» على المشايخِ، ثم الاعتمادُ على الكتبِ:

وهذه الصُّورةُ هي المُعتمَدُ، وعليها سَيْرُ العلماءِ.

وهنا تتنزلُ أقوالُهم: (إنَّ فلانًا تخرَّج على فلانٍ)، أو (أنَّه أخَذ علمَ فلانٍ)، أو (أنَّه ضبَط أصولَ مشايخِه)، وهنا يصحُّ أن يُقالَ: ما زال أهلُ العلمِ يتلقَّوْنَ من الكتبِ.

ويتنزلُ عليه أيضًا قولُ الشَّاطبيِّ رحمه اللهُ: (صارت كتبُ المُتقدِّمين وكلامُهم وسِيَرُهم أنفعَ لمَن أراد الأخذَ بالاحتياطِ في العلمِ، على أيِّ نوعٍ كان، وخصوصًا علمَ الشريعةِ)[1].

---

(1) «الموافقات» ٢/ ١٥٣.

الصُّورةُ الثالثةُ: الاستغناءُ عن الكتبِ، والاكتفاءُ بالسَّماعِ على المشايخِ:

فهذا قد يستفيدُ معَ طولِ المُدَّةِ والزمنِ من كثرةِ السَّماعِ والإعادةِ والتَّكرارِ.

لكنَّها لا تصنعُ طالبَ علمٍ بالمعنى المُتعارَفِ عليه. وليس الأمرُ كحالِ القرونِ المُفضَّلـةِ في الصحابةِ والتابعيـن؛ إذِ احتاج الناسُ إلى تعلُّمِ علومٍ كانت للسابقين سـليقةً، واحتاجوا إلـى حفظٍ كان لهم طبعًا كسـائرِ العربِ، فكانـوا يحتاجون إلى النصـوص والأدلة لما لهم مِن كمالِ الآلةِ في الفهمِ والتطبيقِ، أما الآن فقدْ انشغلوا بالكسبِ والدُّنيا بخلافِ ما كان عليه السَّلفُ، واحتاجوا إلى معرفةِ العلومِ وقواعدِها وقوانينِها، واحتاجوا إلى مَن يُحسِنُ إيصالَ حقيقةِ العلمِ.

فمعَ انحصارِ الذِّهنِ والحفظِ، والاحتياجِ إلى علومٍ وأدواتٍ، ومشايخَ مِن ذوي التَّميُّزِ = كان لا بدَّ من المذاكرةِ على الكتبِ، ومراجعةِ ما يُورَدُ في الدَّرسِ، وتخليصِ المعلومةِ الرَّائقةِ عن الزَّائفةِ مما قد يقعُ في مجالسِ العلماءِ والمعلمين.

الكتبُ وإرثُ الملَكاتِ العلميّةِ

مَن رأى مِن المُشتغِلينَ بالعلمِ تعيُّنَ الأخذِ عن العلماءِ مشافهةً سبيلًا أوحدَ للحصولِ على ملكةِ العلمِ التي هي مهارةٌ وصِفةٌ راسخةٌ = قد يكونُ مُبتعِدًا عن الصَّوابِ؛ لأمورٍ كثيرةٍ، لعلَّ أبرزَها صعوبةُ لزومِ الشَّيخِ مُدَّةً كافيةً تحصلُ معَها ملكةُ العلمِ، خاصَّةً في هذا الزَّمانِ. نعم، قد يبتدئُ السبيلَ على يدِه، ويُكمِلُها على غيرِه، أو عبرَ الكتبِ المُصنَّفةِ في ذلك.

لكنْ يبقى أنَّ الإرثَ الحقيقيَّ للملكةِ إنَّما هو بناءٌ يبنيه الطالبُ بفكرِه ومهارتِه ودُرْبتِه المُتكرِّرةِ، وليس له مِن مُسمَّى الإرثِ إلا بقدرِ ما يكتسبُه الطالبُ من الشيخِ بخبرتِه ومفاتيحِه، ومهاراتِه في زمنٍ مديدٍ من الطلبِ، ثم يستشرفُ الطالبُ بعدَها جهدًا شخصيًّا يبذلُ فيه الطالبُ ماءَ عينيْه مِدادًا للعلمِ المنشودِ.

فالكتبُ تُجتنَى منها ثمرةُ الاجتهادِ، ومِن محاسنِها أنَّ تحبيرَ العلمِ وضبطَ العباراتِ هو بابُها، وهي المَرَدُّ عندَ الاختلافِ في النَّصِّ والضبطِ، وليس في هذه الأزمانِ وما قبلَها ذلك الحافظُ الذي يستحضرُ الكتبَ ويضبطُها ويفهمُها وكأنَّه يقرأُ من كتابٍ مفتوحٍ، فالحقيقةُ أنَّه ليس لكثيرٍ من المُتأهِّلينَ للتعليمِ قِبَلٌ بهذا، وما قد يوجدُ منه في أفرادٍ قد لا يتحققُ للجميعِ، وإن كان المظنونُ بمَن هذا حالُه أن يعودَ عليه هذا الاسترسالُ في الحفظِ بالقصورِ في أبوابٍ من الفهومِ.

الخلاصةُ:

إنَّه إذا كان المُعلِّمُ مانحًا للمهاراتِ والملكاتِ؛ فإنَّ الكتبَ أيضًا بحسنِ التعاملِ معَها، وإنعامِ النظرِ فيها، خاصَّةً التي أُلِّفتْ لمدارجِ التعلمِ = تمنحُ ذلك وزيادةً.

بل قد يقال إنَّ من الكتبِ ما يُورِثُ ملكةً شقَّ على بعضِ المُعلِّمينَ إيصالُها إلى الطالبِ، وأنت ترى هذا في كثيرٍ من الكتبِ، فمنها على سبيلِ المثالِ -معَ قصوري في هذا- كتابُ: «إحكام الأحكام شرح عُمْدة الأحكام» لابنِ دقيقِ العيدِ[1]، وكتابُ: «بداية المُجتهِدِ وغايةُ المُقتصِدِ» لابنِ رشدِ القرطبيِّ.

عِمادُ الملَكةِ في الكتبِ المبسوطةِ والأصليّةِ

حصولُ الملكةِ منوطٌ بالتعلُّمِ والاستفادةِ من الكتبِ المبسوطةِ، لا الاقتصارِ على المُختصَراتِ العويصةِ.

يقول الآبلـي رحمه الله: (ثم كلَّ أهلُ هذه المائةِ عن حالِ من قبلَهم من حفظِ المختصرات، وشقِّ الشروحِ والأصولِ الكبار، فاقتصروا على حفظِ ما قلَّ لفظُه، ونزرَ حظُّه، وأفنوا أعمارَهم في فهمِ رُموزِه، وحلِّ لغوزِه، ولم يصلوا إلى ردِّ ما فيه إلى أصولِه بالتصحيح، فضلًا عن معرفةِ الضعيفِ من ذلك والصحيحِ، بل هو حلُّ مقفلٍ، وفهمُ أمرٍ مجملٍ، ومطالعةُ تقييداتٍ زعموا أنها تستنهضُ النفوس، فبينا نحنُ نستكبرُ العدولَ عن كتبِ الأئمةِ إلى كتبِ الشيوخ، أُتيحت لنا تقييداتٌ للجهلةِ، بل مُسوداتُ المسوخِ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون، فهذه جملةٌ تهديكَ إلى أصلِ العِلمِ، وتريك ما غفلَ الناسُ عنه)[2].

(١) وهو إملاءٌ على تلميذِه: عمادِ الدِّينِ ابنِ الأثيرِ الحلبيِّ، المُتوفَّى سنةَ ٦٩٩، وقد طُبع بتحقيقِ الشيخِ أحمد شاكر رحمه اللهُ تعالى.

(٢) «نفح الطيب» للمقري ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧.

وقد تبنّى تلميذُه ابنُ خلدون هذه الفكرةَ، وذهبَ إلى أنَّ الملكةَ الحاصلةُ من التعليمِ في تلك المُختصَراتِ، إذا تمَّ على سَـدادِه ولم تَعقُبْه آفةٌ؛ فهي ملكةٌ قاصرةٌ عـن الملكاتِ التي تحصلُ من الموضوعاتِ البسـيطةِ المُطوَّلـةِ؛ لكثرةِ ما يقعُ في تلـك من التَّكرارِ والإحالةِ المُفيدَينِ لحصولِ الملكةِ التَّامَّةِ. وإذا اقتُصِر عن التَّكرارِ قَصُرتِ الملكةُ بقِلَّتِه، كشـأنِ هذه الموضوعاتِ المُختصَرةِ؛ فقصَدوا[1] إلى تسهيلِ الحفظِ على المُتعلِّميـن، فأركَبوهم صعبًا بقطعِهم عن تحصيـلِ الملكاتِ النافعةِ وتمكُّنِها)[2].

علَّل ذلك ابنُ الأزرقِ، فقال: (وممَّا يُعابُ به سرعةُ تقلُّبِ الفهمِ لها؛ لتعذُّرِ اسـتحضارِ ما يفيدُه، ويعسـرُ عليه دائمًا. وقد ذُكِر لنا عن ابنِ الحاجبِ: أنَّه رُبَّما راجَع بعضَ المواضعِ مـن «مُختصَرِه الفقهيِّ»، فلم يفهمْـه!! وإذ ذاك فما الظَّنُّ بسواه؟!)[3].

قـال ابنُ بدرانَ: (واعلَمْ أنَّـكَ إذا قابلتَ بينَ مَن قرأ «الكافيـةَ»، وبينَ مَن قرأ «ابنَ عَقِيلٍ شـرحَ ألفيَّةِ ابنِ مالكٍ»؛ وجدتَ الأوَّلَ جامدًا غيرَ مُتَّسِـعِ الصَّدرِ في ذلك الفنِّ، ووجدتَ الثَّانيَ أغزرَ مادَّةً، مُنفسِحًا له المجالُ)[4].

فهم يَرَوْنَ أنَّ التعلُّمَ على الكتبِ المبسوطةِ في الفنِّ، مِن شأنِه أنَّه يُورِثُ الملكةَ التَّامَّةَ، بخلافِ المُختصَراتِ.

وقد أوردَ الخضرُ حُسـين -رحمه الله- تعليلًا جميـلًا لذلك، وهو أنَّ (هذه

(1) إشارةٌ إلى بعضِ المُعلِّمينَ.
(2) «مقدمة ابن خلدون» ٢/ ٤٤٦-٤٤٧، وانظر: «بدائع السـلك» ٢/ ٧٥٨-٧٥٩، و«كشف الظنون» ١/ ٤٥-٤٦. «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩٠-٤٩١.
(3) «بدائع السلك» ٢/ ٧٦٠.
(4) «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» ص٤٩١.

المختصراتِ التي يقضي الطالبُ في فتحِ مغلقِها، وحلِّ عُقدِها قِطعةً من حياته، جديرةٌ بأن تُصرفَ في اكتسابِ مسائلَ هي من صميمِ العلم، والملكاتُ تقوى بالبحثِ في لُبابِ العلمِ أكثرَ مما تقوى بالمناقشةِ في ألفاظِ المؤلِّفين)[1].

لكنَّ الفيروزاباديَّ يرى أنَّ هذه المختصراتِ ربما تُفيدُ قسمًا مِنَ الطلابِ، وأنها موضوعةٌ لتكونَ (تذكرةً لرؤوسِ المسائلِ ينتفعُ بها المنتهي للاستحضار؛ وربما أفادتْ بعضَ المبتدئينَ مِنَ الأذكياءِ الشهماءِ؛ لسرعةِ هُجومهم على المعاني من العباراتِ الدقيقة)[2].

وأمَّا الكتبُ الأصليَّةُ في الفنِّ؛ فقد قال شهابُ الدِّينِ المَقَّرِيُّ رحمه اللهُ: (فلا بدَّ للمُفتي من مباشرةِ الكتبِ المَرْوِيَّةِ[3]، والأُمهاتِ الأصليَّةِ، ولا ينبغي له الاقتصارُ على الواسطةِ؛ إذْ لا يُؤمَنُ مِن خللٍ أو تصحيفٍ؛ لفقدِ ملكةِ التأليفِ)[4].

فقد نبَّه المَقَّرِيُّ على الخطإِ والتصحيفِ، وضعفِ ملكةِ التأليفِ.

وممَّا يلحقُ بما ذُكرَ: كثرةُ التَّكرارِ، وأكثرُ ما ترى ذلك في المتونِ الفقهيةِ وشروحِها وحواشيها؛ فتجدُ مِن تواردِ الكلامِ، وتشابهِ العباراتِ، والاقتصارِ على فحواه ونصِّه = ما يحدو بالطالبِ الاعتمادَ على كتبِ أصولِ الفنِّ -التي عليها المُعتمَدُ-، وإذا نزَل فيكونُ إلى كتبٍ عُنِيتْ بالإضافةِ والتعليلِ والتحليلِ، لا ما كانت نسخةً أخرى مُضافًا إليها كلماتٌ يسيرةٌ للمُتأخِّرِ.

فالمفيدُ من التَّكرارِ في الحصولِ على الملكةِ، ما إذا كان مقرونًا بتنويعِ العبارةِ؛

---

(1) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦٣- ١٦٤.
(2) «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٤٩.
(3) في نسخةٍ أخرى: (المُدوَّنة)، كما أفاد مُحقِّقوه. وهي تُعطِي معنًى أجودَ.
(4) «أزهار الرِّياض في أخبار عياض» ٣/ ٢٩.

معَ إفادةٍ وتعقيبٍ وتحريكٍ للذِّهنِ، فهو أشبهُ بإكسابِ مهارةٍ للمُتعلِّمِ.

الكتبُ عندَ عدمِ المعلِّمِ المُتمكِّنِ

إذا عُدِم المعلِّمُ المُتمكِّنُ، وشقَّ التماسُه وطلبُه؛ فلا مناصَ من الدَّلالةِ على «الأستاذِ الثَّاني»، إنَّه الكتابُ. فكما يقولُ بدرُ الدِّينِ الحلبيُّ رحمه اللهُ: الكتابُ أحدُ الأستاذينِ، وهو المعلِّمُ عندَ غَيبةِ المعلِّم، فمهما حسُن؛ حسُن عنه الأخذُ، وكثُرتْ منه الاستفادةُ، وكما أنَّ الطالبَ أوَّلُ ما يُسألُ عن أستاذِه الذي أخذ عنه، فكذلك يُسألُ عن الكتابِ الذي تلقَّن منه، فإنْ كان مِن الكتبِ العاليةِ علَتْ مرتبةُ الآخِذِ منه، وتنحطُّ مرتبتُه بقدرِ انحطاطِ مرتبةِ الكتابِ في نوعِه.

وهذا قد غفَل عنه طلابُ العلومِ كافَّةً، غيرَ نفرٍ يسيرٍ هم أقلُّ من القليلِ! وفَطِن له مُحِبُّو العلمِ ممَّن قلَّتْ مُلامَستُهم له، فرُبَّما وجدتَ في هذا القسمِ قومًا هم -على قلَّةِ نظرِهم في كتبِ العلمِ، ونُدرةِ اشتغالِهم به- أتمُّ إدراكًا، وأكملُ فهمًا، وأحسنُ إحاطةً بما علموا من مسائلِ العلومِ، من أولئك الذين أفنَوْا ساعاتِ عمرِهم في الاشتغالِ بالعلومِ، وكان هذا التفاوتُ المُتباينُ الأطرافِ نتيجةَ حسنِ الاختيارِ فيما يُؤخَذُ عنه العلمُ من الكتبِ[1].

ويلحقُ بعدمِ المعلِّمِ: مَن وجَد مُعلِّمًا لم يكنْ في مجالسِه زيادةٌ حقيقيةٌ ظاهرةٌ، فإنَّ هذا لا فائدةَ في حضورِ مجالسِه، كما قال ابنُ عرفةَ، وتابَع العلماءُ -رحمهم اللهُ- عليه؛ كالأُبِّيِّ، والوَنْشَرِيسيِّ، والمَقَّرِيِّ، وابنِ بدرانَ[2].

يقولُ أبو عبد اللهِ الأُبِّيُّ: وكان شيخُنا أبو عبد اللهِ -يقصدُ ابنَ عرفةَ- يقولُ: «إنَّما تدخلُ التَّآليفُ في ذلك إذا اشتمَلتْ على فائدةٍ زائدةٍ، وإلَّا فذلك تخسيرٌ

(١) انظر: «التعليم والإرشاد» ص٦.

(٢) «المدخل» ص٤١٩.

للكاغدِ». ويعني بـ«الفائدةِ الزَّائدة» على ما في الكتبِ السَّابقةِ عليه، وأمَّا إذا لم يشتملِ التأليفُ إلَّا على نقلِ ما في الكتبِ المُتقدِّمةِ؛ فهو الذي قال فيه: «إنَّه تخسيرٌ للكاغدِ».

وهكذا كان يقولُ في مجالسِ التدريسِ: «وأنَّه إذا لم يكنْ في مجلسِ التدريسِ التقاطُ زيادةٍ من الشيخِ؛ فلا فائدةَ في حضورِ مجلسِه، بل الأَوْلى لمَن حصَلتْ له معرفةُ الاصطلاحِ، والقدرةُ على فهمِ ما في الكتبِ: أن ينقطعَ لنفسِه، ويلازمَ النَّظرَ».

وضمَّن ذلك في أبياتٍ نظَمها، وهي قولُه:

إذا لم يكنْ في مجلسِ الدَّرسِ نُكتةٌ ... بتقريرِ إيضاحٍ لِمُشكِلِ صُورةِ

وعزوُ غريبِ النَّقلِ، أو حَلُّ مُقفَلٍ ... أَوِ اشكالٍ أَبدَتْهُ نتيجةُ فكرةِ

فدَعْ سعيَهُ وانظُرْ لنفسِكَ واجتَهِدْ ... ولا تَترُكَنْ فالتَّركُ أقبحُ خَلَّةِ

وكنتُ [أي الأُبِّيُّ] قلتُ في جوابِ أبياتِه هذه:

قَسَمًا[1] بمَن أَوْلاكَ أرفعَ رُتبةٍ ... وزانَ بكَ الدُّنيا بأكملِ زينةِ

لَمَجلِسُكَ الأعلى الكفيلُ بكُلِّها ... على حُسنِ ما عنها المجالسُ خَلَّتِ

فأبقاكَ مَن رقَّاكَ للنَّاسِ رحمةً ... وللدِّينِ سيفًا قاطعًا كُلَّ بدعةِ[2]

وإنِّي في قَسَمي هذا لَبارٌّ؛ فلقد كنتُ أُقيِّدُ من زوائدِ إلقائِه، وفوائدِ إبدائِه، على الدُّوَلِ الخمسِ التي كانت تُقرأُ بمجلسِه من التفسيرِ والحديثِ، والدُّوَلِ الثَّلاثِ التي بـ«التَّهذيبِ» نحوَ الورقتينِ كُلَّ يومٍ، ممَّا ليس في كتابٍ؛ فاللهُ المسؤولُ أن يُقدِّسَ رُوحَه، فلقد كان الغايةَ.

(١) أوردها تقي الدين المقريزي، بلفظ (يمينًا)، ولعله الأصح أن يوضع مكانها كلمة (حلفتُ) ليستقيم الوزن.

(٢) أورَد تقيُّ الدِّينِ المقريزيُّ هذه الأبياتَ مع اختلاف في الوزن والمعنى. انظر: «دُرَر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» ٣/ ٢٢٥.

وشـاهِدُ ذلك ما اشتمَلتْ عليه تآليفُه من ذلك، وناهِيكَ بـ«مُختصَرِه في الفقه» الذي ما وُضِع في الإسـلامِ مِثلُه؛ لضبطِه فيه المذهبَ مسـائلَ وأقـوالًا، معَ الزيادةِ المُكمِّلةِ، والتَّنبيهِ على المواضعِ المُشكِلةِ، وتعريفِ الحقائقِ الشَّرعيَّة[1].

يقولُ المَقَّريُّ تعقيبًا على كلامِ ابنِ عرفةَ والأُبِّيِّ:

وألفيتُ بخطِّ شيخِ شـيخِنا، الإمامِ القاضي سـيِّدي عبد الواحدِ الوَنْشَرِيشيِّ رحمه اللهُ، ما نصُّه:

ألفيتُ بخـطِّ والدي رحمه اللهُ، على طُرَّةٍ مِن هذا المحلِّ -وأعني كلامَ الأُبِّيِّ السَّابقَ- ما نصُّه:

قلتُ: (مِن هنا يُعلَمُ أنَّ إطلاقَ اسـمِ المُدرِّسِ علـى المُقتصِرِ على نقلِ تقاييدِ «الرِّسالةِ» و«المُدوَّنةِ»، من غيرِ فَتْشٍ ولا تنزيلٍ، ولا كشفٍ واستظهارٍ بغيرِها = مجازٌ لا حقيقةٌ! وهذا الوصفُ كاد أن يَعُمَّ أهلَ الوقتِ، أو عمَّهم؛ فنسألُ اللهَ العظيمَ المغفرةَ من التَّطفُّلِ، وتعاطي ما ليس في المقدورِ).

وقال أيضًا: تأمَّلْ ههنا الثَّناءَ على شـيخِ الإسلامِ، الإمامِ أبي عبد اللهِ ابنِ عرفةَ -أسـكنَه اللهُ دارَ السـلامِ- وعلى تآليفِه، لا سـيَّما «مُختصَرِه الفقهيِّ» الذي أعجزَ معقولُـه ومنقولُه الفحـولَ، خلافًا لبعضِ القاصرين من طلبةِ فـاسَ؛ فإنَّهم يقولون: ما يقولُ شيئًا. يُطفِئون نورَ اللهِ، ويحتقرون ما عظَّم اللهُ[2].

تنبيهٌ للمكتفي بالأخذِ عن الكُتبِ

إذا كان لا منـاصَ من التعلُّمِ على الكتبِ عندَ فقدِ المعلِّمِ أو المُتمكِّنِ؛ فعليه

(1) «إكمال إكمال المُعْلِم» للأُبِّيِّ ٤/ ٣٤٥-٣٤٧ بتصرُّفٍ يسيرٍ.

(2) «أزهار الرِّياض» ٣/ ٣٥.

حينئذٍ أن يُكمِّلَ نفسَه بأدبِ العلمِ، ويُلزِمَها بهديِ النُّبوَّةِ، وإلَّا فإنَّ المُقتصِرَ على القراءةِ والاطِّلاعِ دونَ أخذِ ألحاظِ العلماءِ بالقراءةِ عليهم، والاستفادةِ من هَدْيِهم وسلوكِهم وأدبِهم، وبذلِهم أنفسَهم للمُتعلِّمينَ = عاد ذلك عليه بآفةٍ تظهرُ عندَ الحاجةِ إليه؛ مِن جُرأةٍ في النقدِ، وتسرُّعٍ في التقريرِ، وعدمِ إنضاجِ كثيرٍ من المسائلِ.

وقد يتداركُ الطالبُ ضعفَ المعلِّمِ بمُعلِّمٍ آخرَ، أو بتصحيحٍ من كتابٍ، بخلافِ مَن يعتمدُ على الكتبِ، وتتراكمُ عليه صفحاتٌ من الخطأِ، فمن هنا كانت دلالةُ بعضِ العلماءِ على المعلِّمِ وإن ضعُفَ؛ فنجدُ هذا في نصٍّ نقَله ابنُ أبي أُصَيبِعةَ، عن مُوفَّقِ الدِّينِ عبد اللَّطيفِ البغداديِّ، قولُه: (أُوصِيكَ أن لا تأخذَ العلومَ مِن الكتبِ، وإنْ وَثِقتَ مِن نفسِكَ بقُوَّةِ الفهمِ، وعليكَ بالأُستاذِينَ في كُلِّ علمٍ تطلبُ اكتسابَه، ولو كان الأستاذُ ناقصًا؛ فخُذْ عنه ما عندَه حتى تجدَ أكملَ منه، وعليكَ بتعظيمِه وتوجيهِه، وإن قدرتَ أن تفيدَه من دُنياكَ فافعَلْ، وإلَّا فبلسانِكَ وثنائِكَ)[1].

وجوهُ المُفاضَلةِ بينَ المُعلِّمين والكتبِ

ذُكِر من وجوهِ المُفاضَلةِ بينَ التلقِّي على المُعلِّمينَ أو الاقتصارِ على الكتبِ ما يلي:

الوجهُ الأوَّلُ: وصولُ المعاني من النَّسيبِ إلى النَّسيبِ خلافُ وصولِها مِن غيرِ النَّسيبِ إلى النَّسيبِ، والنَّسيبُ النَّاطقُ أفهمُ للتَّعليمِ بالنُّطقِ وهو المُعلِّمُ، وغيرُ النَّاطقِ من النَّاطقِ مُقرِّبٌ للفهمِ؛ فالفهمُ من النَّسيبِ وهو المعلِّمُ أقربُ وأسهلُ من غيرِ النَّسيبِ وهو الكتابُ.

الوجهُ الثَّاني: النَّفسُ العلَّامةُ، علَّامةٌ بالفعلِ، وصدورُ الفعلِ عنها يُقالُ له:

---

(١) «عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء» (ط. أوجست مُلر)، ٢/٢٠٨-٢٠٩.

التَّعليمُ. والتَّعليمُ والتعلُّمُ مِن المُضافِ. وكُلَّما هو للشَّيءِ بالطَّبعِ أخصُّ به ممَّا ليس هو بالطَّبعِ. والنَّفسُ المُتعلِّمةُ علَّامةٌ بالقُوَّةِ، وقبولُ العلمِ فيها يُقالُ له: تَعلُّمٌ. والمُضافانِ معًا بالطَّبعِ. فالتَّعليمُ مِن المُعلِّمِ أخصُّ بالمُتعلِّمِ من الكتابِ.

الوجهُ الثَّالثُ: المُتعلِّمُ إذا استَعجَم عليه ما يُفهِمُه المُعلِّمُ من لفظِه؛ نقَله إلى لفظٍ آخرَ، والكتابُ لا يَنقُلُ من لفظٍ إلى لفظٍ؛ فالفهمُ من المعلِّم أصلحُ للمُتعلِّمِ من الكتابِ، وكلما هو بهذه الصِّفةِ فهو في إيصالِ العلمِ أصلحُ للمُتعلِّمِ.

الوجهُ الرَّابعُ: العلمُ موضوعُه اللَّفظُ، واللفظُ على ثلاثةِ أضرُبٍ:

- قريبٌ من العقلِ، وهو الذي صاغَه العقلُ مثالًا لِمَا عندَه من المعاني.
- ومُتوسِّطٌ، وهو المُتلفَّظُ به بالصوتِ، وهو مثالُ العقلِ.
- وبعيدٌ، وهو المُثبَتُ في الكتابِ، وهو مثالُ ما خرَج باللفظِ.

فالكتابُ مثالُ مثالِ مثالِ المعاني التي في العقلِ، والمثالُ الأولُ لا يقومُ مقامَ المُمثَّلِ لِعوَزِ المثلِ؛ فما ظنُّكَ بمثالِ مثالِ مثالِ المُمثَّلِ؟! فالمثالُ الأولُ لِمَا عندَ العقلِ أقربُ في الفهمِ من مثالِ المثالِ. والمثالُ الأولُ هو اللفظُ، والثاني هو الكتابُ. وإذا كان الأمرُ على هذا؛ فالفهمُ من لفظِ المعلِّمِ أسهلُ وأقربُ من لفظِ الكتابِ.

الوجهُ الخامسُ: وصولُ اللفظِ الدَّالِّ على المعنى إلى العقلِ، يكونُ من جهةِ حاسَّةٍ غريبةٍ من اللفظِ، وهو البصرُ؛ لأنَّ الحاسَّةَ النَّسيبةَ للَّفظِ هي السمعُ؛ لأنه تصويتٌ، والشيءُ الواصلُ من النَّسيبِ -وهو اللفظُ- أقربُ من وصولِه من الغريبِ وهو الكتابةُ؛ فالفهمُ من المعلِّم باللفظِ أسهلُ من الفهمِ من الكتابةِ بالخطِّ.

الوجهُ السادسُ: يوجدُ في الكتابِ أشياءُ تَصُدُّ عن العلمِ، وهي معدومةٌ عند المعلِّمِ؛ وهي التصحيفُ العارضُ من اشتباهِ الحروفِ معَ عدمِ اللَّفظِ، والغلطُ بزَوَغانِ

البصـرِ، وقِلَّةُ الخبرةِ بالإعرابِ، أو عدمُ وجودِه معَ الخبرةِ به أو فسـادِ الموجودِ منه، وإصلاحُ الكتابِ ما لا يُقرَأُ وقراءةُ ما لا يُكتَبُ، ونحوُ التعليمِ ونمطِ الكلامِ، ومذهبِ صاحبِ الكتابِ، وسُـقمِ النَّسْـخِ، ورداءةِ النَّقلِ، وإدماجِ القـارئِ مواضعَ المقاطعِ، وخلطِ مبادئِ التعليمِ... وهذه كلُّها مُعوِّقةٌ عن العلمِ، وقد استراح المتعلِّمُ من تكلُّفِها عندَ قراءتِه على المعلِّمِ.

وإذا كان الأمرُ علـى هذه الصورةِ؛ فالقراءةُ على العلمـاءِ أفضلُ وأجدَى من قراءةِ الإنسانِ لنفسِه، وهو ما أرَدْنا بيانَه.

حكى الصَّفديُّ هذه الوجوهَ السَّابقة، عن ابنِ بطْلانَ[1].

الوجهُ السَّابعُ: سَـرَيانُ أدبِ العلمِ إلى الطَّالبِ؛ فإنَّ الخُلُقَ يُورَثُ بالمُجالَسةِ، ولَحْظُ العالمِ والمعلِّمِ يُغني عن كثيرٍ من الوعظِ والاطِّلاعِ على الآدابِ.

الوجهُ الثَّامنُ: الطُّولُ؛ فإنَّ الإنسـانَ يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ، ومُعاناةٍ شديدةٍ، وجهدٍ جهيدٍ حتى يصلَ إلى ما يَرُومُه من العلمِ. وهذه عَقَبةٌ قد لا يقوى عليها كثيرٌ من الناسِ، ولا سـيَّما وهو يرى مَن حولَه قد أضاعُوا أوقاتَهم بلا فائدةٍ، فيأخذُه الكسلُ، ويَكِلُّ ويَمَلُّ ثُمَّ لا يُدرِكُ ما يريدُ.

الوجهُ التَّاسـعُ: أنَّ الذي يأخـذُ العلمَ من بطونِ الكتبِ علمُـه ضعيفٌ غالبًا، لا ينبنـي على قواعدَ أو أصولٍ. ولذلك نجدُ الخطـأَ الكثيرَ مِن الذي يأخذُ العلمَ من بطونِ الكتبِ؛ لأنه ليس له قواعدُ وأصـولٌ، يُقعِّدُ عليها، ويبني عليها الجزئياتِ التي في الكتابِ والسُّنَّةِ.

نجدُ بعضَ الناسِ يمـرُّ بحديثٍ غيرِ مذكورٍ في كتبِ الحديـثِ المُعتمَدةِ مِن الصِّحاحِ والمسـانيدِ، وهذا الطريقُ يخالفُ ما في هذه الأصـولِ المُعتمَدةِ عندَ أهلِ

(1) «الوافي بالوَفَيات» ٢١/ ٧٤-٧٥ بتصرُّفٍ يسيرٍ.

العلم، بل عندَ الأُمّةِ، ثُمّ يأخذُ بهذا الحديثِ، ويبني عقيدتَه عليه! وهذا -بلا شكٍّ- خطأٌ واضحٌ؛ لأنَّ الكتابَ والسُّنّةَ لهما أصولٌ تدورُ عليها الجزئياتُ، فلا بدَّ أن تُرَدَّ هذه الجزئياتُ إلى أصولٍ، بحيثُ إذا وجَدْنا في هذه الجزئياتِ شيئًا مُخالِفًا لهذه الأصولِ لا يمكنُ الجمعُ فيها؛ فإنَّنا نَدَعُ هذه الجزئياتِ[1].

ويُؤيِّدُ الوجهَ الأخيرَ ما قاله أبو العبَّاسِ ابنُ العَرِيفِ:

مَن لم يُشافِهْ عالِمًا بأُصُولِهِ	فيَقِينُهُ في المُشكِلاتِ ظُنُونُ
مَن أنكَر الأشياءَ دونَ تَيقُّنٍ	وتَثبُّتٍ؛ فمُعانِدٌ مفتونُ
الكُتْبُ تَذكِرةٌ لِمَن هو عالِمٌ	وصوابُها بمُحالِها معجونُ
والفِكرُ غوّاصٌ عليها مُخرِجٌ	والحقُّ فيها لؤلؤٌ مكنونُ[2]

قال الصَّفديُّ رحمه اللهُ، بعدَ نقلِه بعضَ وجوهِ التَّفضيلِ السَّابقةِ: (ولهذا قال العلماءُ: «لا تأخذوا العلمَ مِن صَحَفيٍّ، ولا مُصحَفيٍّ». يعني: لا يُقرأُ القرآنُ على مَن قرأ مِن المُصحَفِ، ولا الحديثُ وغيرُه على مَن أخَذ ذلك مِن الصُّحُفِ. وحَسْبُكَ بما جرى لحمَّادٍ لمَّا قرأ في المصحفِ، وما صحَّفه، وذلك مذكورٌ في ترجمةِ حمَّادٍ الرَّاويةِ. وقد وقَع لابنِ حزمٍ وابنِ الجوزيِّ أوهامٌ وتصحيفٌ معروفةٌ عندَ أهلِها، وناهِيكَ بهذينِ الاثنينِ)[3].

تنبيهٌ على حدِّ (الصَّحَفي)، وضبطِه:

الصَّحَفيُّ: مَن يخطئُ في قراءةِ الصَّحيفةِ. وقولُ بعضِهم: (الصُّحُفِيُّ) بضمَّتينِ

---

(١) وهذانِ الأخيرانِ أورَدَهما العلاَّمةُ ابنُ عُثيمينَ رحمه اللهُ في كتابِ «العلم». انظر: «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين» ٢٦/ ١٣٦-١٣٧.

(٢) «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب» ٤/ ٣١٩.

(٣) «الوافي بالوفيات» ٢١/ ٧٥.

= لحنٌ. والنِّسبةُ إلى الجمعِ نسبةٌ إلى الواحدِ؛ لأنَّ الغرضَ الدَّلالةُ على الجنسِ، والواحدُ يكفي في ذلك.

وأمَّا ما كان عَلَمًا؛ كأنماريٍّ، وكِلابيٍّ، ومَعافِريٍّ، ومَدائِنيٍّ؛ فإنَّه لا يُرَدُّ. وكذا ما كان جاريًا مجرى العَلَمِ؛ كأنصاريٍّ، وأعرابيٍّ[1].

قال أبو أحمدَ العسكريُّ: (فأمَّا معنى التَّصحيفِ، وقولِهم: «الصَّحَفيّ»؛ فقد قال الخليلُ بنُ أحمدَ: إنَّ الصَّحَفيَّ الذي يروي الخطأَ على قراءةِ الصُّحُفِ بأشباهِ الحروفِ. وقال غيرُه: أصلُ هذا أنَّ قومًا كانوا أخذوا العلمَ عن الصُّحُفِ مِن غيرِ أن يَلْقَوا فيه العلماءَ، فكان يقعُ فيما يَروُونه التغييرُ، فيُقالُ عندَه: قد صحَّفوا. أي ردَّدُوه عن الصُّحُفِ، وهم مُصحِّفون، والمصدرُ التَّصحيفُ)[2].

المُختارُ في المُفاضَلةِ بينَ المُعلِّمِ والكتبِ:

أن يَبتدِئَ أمرَه بالتَّلقِّي على المُعلِّمينَ، ثُمَّ إذا تمرَّن على مُصطلَحاتِ العلومِ وألِفَتها نفسُه، وثبَتتْ قدمُه في المرحلةِ التأصيليَّةِ = تأهَّل وقتَها للاطِّلاعِ على الكتبِ، واختطَّ منهجًا قِرائيًّا ليستكملَ التَّكوينَ.

وينبغي ألَّا ينسى المُتعلِّمُ: أنَّه لا ينفكُّ في هذه المراحلِ الأوَّليَّةِ وما بعدَها عن عُسرٍ وإشكالاتٍ في بعضِ المسائلِ، تُحوِجُه إلى مَن سبَقَه من أهلِ العلمِ والطُّلابِ المُتمكِّنينَ. وهذا يستشعِرُه كلُّ مَن اشتغَل بالعلمِ، حتى بعضُ العلماءِ يُصيبُهم هذا.

---

(١) «تاج العروس» للزَّبيديِّ ٢٤/٦.

(٢) «شرح ما يقعُ فيه التَّصحيفُ والتَّحريفُ» لأبي أحمدَ العسكريِّ ١/ ١٣. وانظر مثلَه في: «تصحيفات المُحدِّثين» للعسكري أيضًا ١/ ٢٤، عن: «التَّصحيف وأثره في الحديث والفقه» لأسطيري جمال ص٢٣.

ويُنبِّهُ إلى أنَّ التلقِّيَ على المعلِّمِ منوطٌ به حصولُ الأثرِ الخُلُقيِّ السُّلوكيِّ والأثرِ العلميِّ، فإذا تقرَّر ذلك؛ كان على الطالبِ أن يَعمِدَ إلى المعلِّمِ رأسًا، لا أن يتخذَ سماعَ آلةِ التَّسجيلِ الصَّوتيِّ مُعلِّمًا؛ ذلك أنَّ المعنى الأخلاقيَّ والأدبيَّ لا يُتصوَّرُ حصولُه بصورةٍ تامَّةٍ منها. وأمَّا عندَ ضيقِ الزَّمنِ، وصعوبةِ التَّمكُّنِ من الوصولِ إلى المعلِّمِ؛ فإنَّه يلتمسُ المتاحَ.

التوجيهُ الصحيحُ لعبارةِ: (مَن كان شيخُه كتابَه؛ غلَب خطؤه صوابَه)

لِمَا في هذه المقولةِ مِن تعدٍّ وتجاوزٍ، فإنَّ الأسلمَ فيها أن تُنزَّلَ على:

١- المبتدئِ في الطَّلبِ، وإلَّا فإنَّ اعتمادَ الكتبِ الأصليَّةِ والشُّروحِ المُعتبَرةِ، بعدَ التَّصوُّرِ الإجماليِّ لأبوابِ الفنِّ ومُصطلَحاتِه = جادَّةٌ مسلوكةٌ لنيلِ العلمِ والتَّمكُّنِ منه. فإذا وفَّر الطَّالبُ زمانَه على الانشغالِ بها بعدَ حصولِ التَّأسيسِ؛ فهو مأمونُ الخطإِ في الجملةِ. وإذا طالَعتَ شروحَ العلماءِ، وقارَنتَها بالشُّروحِ الأصليَّةِ والحواشي التي سطَرها الشُّرَّاحُ؛ عَلِمتَ اعتمادَ المُتأخِّرِ عليها، ودورانَه في فلكِها، ويندرُ الخروجُ عنها والإضافةُ عليها، وهذا مُشاهَدٌ وظاهرٌ.

٢- العلومِ المُفتقِرةِ إلى ضبطٍ، ومُجالَسةٍ، وسماعٍ؛ كالقراءاتِ ونحوِها. وأمَّا ما احتاج إلى حفظٍ وعنايةٍ وفهمٍ؛ فلا يُقالُ فيه ذلك؛ إذِ المُعتمَدُ فيه ذِهنُ الطالبِ، وتكرارُ العلمِ وإعادةُ تَذكارِه ليرسخَ في الفهمِ.

وإذا كان مِفتاحُ العلمِ بأيدي علماءِ الفنِّ؛ فإنَّ المُؤمَّلَ حينئذٍ من المتعلِّمِ أن يلجَ ليشاركَ بجهدِه وفهمِه وحفظِه، لا أن يظلَّ زمانَه في تحصيلِ المفاتيحِ لا ليَعبُرَ أبوابَ العلمِ، أو يستفتحَ بها فضلَ اللهِ الواسعَ من الفهمِ والاستفادةِ والزِّيادةِ!

٣- ما كان قبلَ عصرِ الطِّباعةِ؛ حيثُ كانت الكتابةُ بخطِّ اليدِ لا آلاتِ الطِّباعةِ، وتحتاجُ إلى ضبطِ النُّسَخِ، وقد اشتهَر التَّصحيفُ ونصرُّفُ النُّسَّاخِ؛ ممَّا احتيجَ معَه إلى ضبطِ الكتبِ والنُّسَخِ.

وعلى هذه التَّأويلاتِ وغيرِها تَتنزَّلُ عباراتُ أهلِ العلمِ؛ كقولِ الإمامِ الشَّافعيِّ رحمه اللهُ: (مَن تفقَّه مِن الكتبِ؛ ضيَّع الأحكامَ)[1].

وكذلك ما حكاه النَّوويُّ -رحمه اللهُ- عن بعضِ العلماءِ أنَّهم قالوا: (ولا تأخذِ العلمَ ممَّن كان أخذُه له مِن بطونِ الكتبِ، مِن غيرِ قراءةٍ على شيوخٍ أو شيخٍ حاذقٍ؛ فمَن لم يأخذه إلَّا مِن الكتبِ؛ يقعْ في التَّصحيفِ، ويَكثُرُ منه الغلَطُ والتَّحريفُ)[2].

وقد سُئِل الشَّيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ -رحمه اللهُ- عن رأيِه في مثلِ هذه العبارةِ، فقال: (هـذا صحيحٌ. إنَّ مَن لم يَدرُسْ على أهلِ العلـمِ، ولم يأخذْ منهم، ولا عرَف الطُّرُقَ التي سـلكوها في طلبِ العلمِ؛ فإنَّه يخطئُ كثيرًا، ويلتبسُ عليه الحقُّ بالباطلِ؛ لعدمِ معرفتِه بالأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ والأحوالِ المرعيَّةِ التي درَج عليها أهلُ العلمِ، وحقَّقوها، وعَمِلوا بها.

أمَّـا كونُ خطئِه أكثرَ؛ فهذا محلُّ نظرٍ. لكنْ على كلِّ حالٍ أخطاؤُه كثيرةٌ؛ لكونِه لم يدرسْ على أهلِ العلمِ، ولم يستفدْ منهم، ولم يعرفِ الأصولَ التي ساروا عليها؛ فهو يخطئُ كثيرًا، ولا يُميِّزُ بينَ الخطإِ والصوابِ في الكتبِ المخطوطةِ والمطبوعةِ.

وقد يقعُ الخطأُ في الكتابِ، ولكنْ ليستْ عندَه الدِّرايةُ والتمييزُ، فيَظُنُّه صوابًا، فيُفتِي بتحليلِ ما حرَّم اللهُ، أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ؛ لعدمِ بصيرتِه؛ لأنَّه قد وقَع له خطأٌ في كتابٍ!

(١) «المجموع» للنوويِّ ١/ ٦٩.
(٢) «المجموع» ١/ ٦٦.

مثلًا: «لا يجوزُ كذا وكذا». بينَما الصَّوابُ أنَّه: «يجوزُ كذا وكذا». فجاءت «لا» زائدةً.

أو عكسُه: «يجوزُ كذا وكذا». والصَّوابُ: «لا يجوزُ». فسقَطتْ «لا» في الطَّبعِ أو الخطِّ؛ فهذا خطأٌ عظيمٌ.

وكذا قد يجدُ عبارةً: «ويصحُّ كذا وكـذا». والصَّوابُ: «ولا يصحُّ كذا وكذا». فيختلطُ الأمرُ عليه؛ لعدمِ بصيرتِـه، ولعدمِ علمِه، فلا يعرفُ الخطـأَ الذي وقَع في الكتابِ، وما أشبَه ذلك)[1].

وقال الشَّـيخُ محمدٌ العُثَيمينِ -رحمه اللهُ- عن عبارةِ «مَن كان شـيخُه كتابَه؛ فخطـؤُه أكثرُ مِن صوابِه»: (هذا ليس صحيحًا على إطلاقِه، ولا فاسـدًا على إطلاقِه. أمَّا الإنسـانُ الذي يأخذُ العلمَ مِن أيِّ كتابٍ يراه؛ فلا شكَّ أنَّه يخطئُ كثيرًا، وأمَّا الذي يعتمدُ في تعلُّمِه على كتبٍ مِن رجالٍ معروفين بالثِّقةِ والأمانةِ والعلمِ؛ فإنَّ هذا لا يكثرُ خطؤُه، بل قد يكونُ مُصِيبًا في أكثرِ ما يقولُ)[2].

فللكتـبِ إذَنْ دَورُها في مدارجِ التعلمِ؛ إذْ بها يعلـو مقامُ الناظرِ فيها، المُتفهِّمِ لمعانيهـا ومراميها، على قدرِ أصالتِهـا في الفنِّ، وتميُّزِها في بابِهـا، وتركيزِها على حقائقِ العلمِ.

---

(١) «مجموع فتاوى ابن باز» ٧/ ٢٣٩.

(٢) كتاب «العلم» ضمنَ «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ رحمه الله» ٢٦/ ١٩٧. وانظر: «كتب أثنى عليها العلماء» ص١٨.

أنواعُ الكتبِ

إذا كان طالبُ العلمِ مأمورًا بالسَّيرِ على منهجيةٍ مُعتبَرٍ فيها التدرُّجُ من البدايةِ التصوُّريةِ إلى العِلَّةِ الغائيَّةِ؛ كان لا بدَّ من خُطَّةٍ يستتمُّ معَها حِذقُ الصَّنعةِ، ألا وهي:

التَّفريقُ بين أنواعٍ مختلفةٍ من الكتب، تتفرَّعُ عنها منهجياتٌ، وهي: «كتبُ التَّخرُّجِ»، و«كتبُ استكمالِ التَّكوينِ»، و «كتبُ الإثراءِ المعرفيِّ».

فبينَ ثلاثتِها فرقٌ كبيرٌ، يحسنُ بالطالبِ مراعاتُه والتَّنبُّهُ له، وإلَّا صار تحصيلُ العلمِ كخَرْطِ القَتادِ، وسُبُلًا مُشتَّتةً مطموسةً معالمُها، مجهولةً نتائجُها.

فعُدَّةُ المبتدئِ في العلمِ من الكتبِ غيرُ عُدَّةِ المُنتهِي فيه، والكتبُ التي يتخرجُ عليها الطالبُ تأصيلًا في المراحلِ الأوَّليَّةِ، غيرُ الكتبِ التي ينتهي بها مُجتهِدًا في الفنِّ، مُدرِكًا له، راسخًا فيه ومُناظِرًا[1].

وليس مِن الصوابِ أن يعيشَ الطالبُ مُنحصِرًا على متونٍ معدودةٍ، اعتاد التَّجوالَ بينَ صفحاتِها، وإنعامَ النَّظرِ في طيَّاتِها، والقناعةَ بما فيها، ظانًّا أنَّها تُغنيه، ضانًّا عن بذلِ الوقتِ في غيرِها، وينتظرُ حينَها أن تأتيَه ملَكةُ العلمِ!

فهذا من الخطإِ في التصوُّرِ؛ إذْ ما من كتابٍ يُغني عن غيرِه، وضَنُّه بوقتِه عن التوسُّعِ في المسائلِ = ضنٌّ بالعلمِ والمسائلِ الجديدةِ على نفسِه، وقطعٌ لها في وادٍ مُقفِرٍ، بينَما الواحاتُ يَمْنةً ويَسْرةً.

---

(1) انظر: «مفهوم العالِمية» ص١٤٧.

ومثله مَـن أعرَض عن «تِقْنيَـاتِ العصـرِ» و «الموسـوعاتِ الإلكترونيّةِ»، وما أحدَثَـه مِن بعضِ الإيجابيّاتِ فـي العلمِ، وتقريبِ المسـائلِ، والبحثِ والتتبّعِ لبعضِ المسـائلِ وألفاظِها ونصوصِها؛ ظانًّا أنّها ليسـت سـبيلَ السـلفِ في التلقّي والتحصيلِ وتربيةِ الطالبِ!

فصار الحديـثُ -إذَنْ- عن تطرُّقِ الخللِ إلى ذهنيّةِ طالبِ العلمِ في وسيلةِ التلقّي، كالانحصارِ في كتابٍ أو متنٍ أو أكثرَ لا يُجاوِزُ تراقيَها.

مِـن هنا، كان المُتعيِّنُ انتقاءَ منهجٍ يُحاكِي برنامجَ التأصيلِ العلميِّ وهي «كتبُ التّخرُّجِ»، ومنهجٍ آخرَ لاحقٍ ومُتمِّمٍ له وهي «كتبُ اسـتكمالِ التكوينِ العلميِّ»، كما يحسنُ أيضًا انتقاءُ منهجِ «للتّرويحِ الذّهنيِّ، والإثراءِ المعرفيِّ».

فـإذا اتّضحَتْ معالمُ هذه الأنـواعِ الثلاثةِ، والفروقُ بينَها؛ سَـلِمَ الطالبُ عن التّخليـطِ بينَ ما هو أصلٌ في العلمِ وركنٌ فيه، وبينَ ما هو كمالٌ وإنضاجٌ، وبينَ ما هو استحسانٌ ترويحيٌّ، ممّا لا يضرُّ بالطالبِ فقدُ بعضِه.

أوّلًا: كتبُ التّخرُّجِ:

(كتبٌ يَحصُلُ بها تأصيلُ الطّالـبِ علميًّا، عبرَ منهجٍ مُنتقًى ومُرتَّبٍ على جادّةٍ مطروقةٍ).

وقولُنا: «كتب»؛ ذلك أنّها المنهجُ الذي يسيرُ فيه الطالبُ معَ المعلِّمِ، ولا يُحترَزُ بها هنا عن التلقّي على الأشياخِ، وسماعِ السّلاسلِ العلميةِ عندَ التعذُّرِ؛ إذِ الأصلُ في التلقّي السـماعُ عبرَ منهجٍ مُعَدٍّ، وأكملُ صُوَرِ التلقّـي المُتحقِّقةِ التي تُفضِي بالطالبِ إلى رسمِ العالِميّةِ: التلقّي عن الأشياخِ مُشـافَهةً عبرَ منهجٍ مرحليٍّ على الكتبِ التي وُصِفتْ لسلوكِ جادّةِ التّفقّهِ.

أمّا «سماعُ السّلاسلِ العلميّةِ»؛ ففيها خيرٌ كبيرٌ للطالبِ النّابهِ، خاصّةً عندَ فواتِ الرِّحلةِ، وتعذُّرِ الوصولِ.

ثانيًا: كتبُ استكمالِ التّكوينِ:

(كتبٌ يُتمُّ بها المُتعلّمُ طريقَ التّعلُّمِ ليحصلَ على صورةٍ كاملةٍ للعلمِ).

ومِن أمثلتها:

١- «تفسيرُ الطّبريِّ»، و «تفسيرُ القرطبيِّ»، و «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ»، و «التّحريرُ والتّنويرُ» لابنِ عاشورٍ.

٢- الكتبُ السّتّةُ وشروحُها: «صحيحُ البخاريِّ»، و «صحيحُ مسلمٍ»، و«سُنَنُ أبي داودَ»، و «جامعُ التّرمذيِّ»، و «سُنَنُ النّسائيِّ»، و «سُنَنُ ابنِ ماجَهْ»، وكذلك «مُسنَدُ الإمامِ أحمدَ»، و «مُوطّأُ الإمامِ مالكٍ».

٣- «البحرُ المحيطُ» للزّركشيِّ، و «المُوافَقاتُ» للشّاطبيِّ، و «أعلامُ المُوقِّعينَ» لابنِ القيِّمِ.

٤- «المُغنِي» لابنِ قُدامةَ، و «المجموعُ شرحُ المُهذَّبِ» للنّوويِّ، و«المبسوطُ» للسّرَخسيِّ، و «الذّخيرةُ» للقرافيِّ.

٥- «مُقدّمةُ ابنِ الصّلاحِ» وشروحها، و «تدريبُ الرّاوي» للسّيوطيِّ، وما في مستواهما.

٦- شروحُ «ألفيّةِ ابنِ مالكٍ»، و «مُغني اللّبيبِ» لابنِ هشامٍ، و «البحرُ المحيطُ» لأبي حيّانَ الأندلسيِّ.

ثالثًا: كتبُ الترويحِ الذهنيِّ والإثراءِ المعرفيِّ:

(كتبٌ يحصلُ بها إثراءُ الطَّالبِ معرفيًا، وتَنزُّهُه في غيرِ منهجٍ مطروقٍ).

وهذه الكتبُ يحصلُ بهـا الترويحُ والإثراءُ للطالبِ، ممَّـا يَفتُقُ ذِهنَه؛ ككتبِ التَّاريخِ، والاقتصادِ، والسِّياسـةِ، ونحوِها ممَّا يَتبصَّرُ به الطَّالبُ واقعَه؛ إذِ الواقعُ محلُّ تطبيقِ الأحكامِ وتنزيلِها.

تنبيه:

يحسنُ بنا هنا أن نتنبَّهَ إلى أنَّ التَّفريقَ بينَ «كتبِ التَّخرُّجِ» و «استكمالِ التَّكوينِ» و«الإثـراءِ المعرفيِّ» = من بابِ القِسْـمةِ الاعتباريَّـةِ لتبينَ للطالـبِ رُتبَ الكتبِ، ومراحلِها؛ فلا يخلطَ بينَ ما هو أصليٌّ في تخرُّجِه، وبينَ ما هو للاسـترواحِ والإثراءِ، وغيرِ ذلك.

العوائق

النَّفـسُ إذا تجرَّدتْ عن العوائقِ؛ صار لها من الفِراسـةِ والكشـفِ بحسَـبِ تجرُّدِها..

الإمامُ ابنُ قيِّمِ الجوزيَّةِ رحمه اللهُ

كم من مُلتمِسٍ لسُبُلِ التحصيلِ بجدٍّ وثباتٍ، وهو يحملُ بينَ طيَّاتِه ما يعوقُ حصولَ الثَّمرةِ! لذا فإنَّ رصدَ ما قد يقعُ فيه بعضُ المُنتسِبينَ إلى الطلبِ ممَّا يجدُه العبدُ في نفسِه وإخوانِه = مُتعيِّنٌ. وإذا كان المُتصوَّرُ من طالبِ العلمِ التَّركيزَ على دَرْكِ الغاياتِ، والسِّباقَ إلى الفوزِ في الجنَّاتِ؛ فيلزمُه إذن التَّخلِّي عن هذه الآفاتِ؛ طلبًا لسلامةِ المآلِ والنِّهاياتِ.

وأصلُ كلمةِ «العوائق» دائرٌ حولَ عدَّةِ معانٍ، وهي: الحبسُ والصرفُ، وكذلك التَّثبيطُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٨]؛ أي المنافقين المُثبِّطين للمؤمنين. وكذلك تأتي بمعنى الشَّواغل.

فالمرادُ بالعوائقِ هنا: «ما حبَس الطالبَ عن الأهمِّ في مدارجِ العلمِ، أو ثبَّطه، أو شغَله».

ومِن هذه العوائقِ:

١- فَلَتاتُ القلبِ، وكِيسُ العثراتِ.

٢- الموضةُ العلميةُ.

٣- التنمُّرُ بالألقابِ العلميةِ

٤- حرقُ المراحلِ.

٥- التَّعالي على الشيخِ المعلِّمِ.

٦- تأجير القلمِ، وضياع المشروع العلمي.

٧- الرِّحلةُ والأسفارُ قبلَ غربلةِ الدِّيارِ.

٨- التَّمَنطُقُ وقُوَّةُ الجدَلِ.

٩- القراءةُ «الاستعراضيَّةُ الأُفُقِيَّةُ» والقراءةُ «السُّلَّميَّةُ المرحليَّةُ».

١٠- الدَّعاوى، ودعوى أنَّ «علومَ الآلةِ تُقسِّي القلوبَ» أنموذجًا.

١١- رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ.

١٢- وهنُ المُقارَنةِ

١٣- منهجيةُ التَّذوُّقِ.

١٤- الغرورُ العلميُّ.

أوّلًا: فَلَتاتُ القلبِ، وكِيسُ العثراتِ

لئن كانت لِلِّســانِ فلتةٌ؛ فإنَّ للقلبِ معَها فلتــاتٍ، وإذا كانت للقدمِ عثرةٌ؛ فإنَّ للقلبِ وِزانَها عثراتٍ!، فاللسانُ مغترفٌ منْ ذلك الكيس.

والفَلْتَةُ: «ما خرَج مِن غيرِ رَوِيَّةٍ، وبلا تدبُّرٍ أو رأيٍ، تطفو على وجهِ اللِّسانِ ممَّا استفاض في الجَنانِ».

وما حركةُ اللِّســانِ بالــكلامِ إلَّا زَبَدُ القلــبِ وفضولُه، تُخرِجُــه أمواجُ الفكرِ واختلاجاتُ النَّفسِ وصراعاتُها؛ فالظَّاهرُ على اللســانِ نتيجــةُ ما في القلبِ من فكرٍ وتدبيرٍ، فاللسانُ بريدُ القلب.

فما أســرَّ عبدٌ سريرةً بليلٍ إلَّا أظهَرها اللهُ على لســانِه، وإن ظنَّ أنَّها لا تظهرُ، فيراها البعضُ كالشَّمسِ، ويحسُّ بها آخرون، لكنَّها ستبدو حتمًا ويقينًا.

وقد أحسَن زُهَيرٌ في قولِه:

ومهما تكنْ عندَ امرئٍ مِن خَلِيقةٍ ... وإنْ خالَها تَخفَى على النَّاسِ تُعلَمِ

والحديثُ عن قلبِ طالبِ العلمِ حديثُ طُهْرٍ وصفاءٍ، حديثٌ عن قلبٍ يَحرُسُ الكلمةَ ويلحظُ الفِعالَ، يراقبُ القلبَ واللِّســانَ، لا كمَن جعل قلبَه مُســتودَعَ الرَّزايا ومَكبًّا لأخلاطِ الأخلاقِ؛ فهؤلاء تُظهِرُهم الفلتاتُ ســريعًا، فترى في كتاباتِهم وثنايا سطورِهم فلتاتِ اللِّسانِ والقلمِ مِن نحوِ: (قُلْنا)، و (حقَّقتُها)، و (أفتيْنا بكذا)، و(أنا... وإخوانُها)، وغيرِها بما لا يتطلبُه ســياقُ الكلامِ واتِّساقُه؛ لتنكشفَ بعدَها سوءةُ قلبٍ

مُلِئ عِثارًا!

فقلبٌ يُغلِّبُ النظرَ إلى الخلقِ قبلَ تحقيقِ مُراقَبةِ الخالقِ..

وآخرُ يهوى النظرَ إلى مرادِ القومِ مُلتمِسًا رضاهم، ليَتعثَّرَ اللِّسانُ بعدَها بفتوى جائرةٍ على صفحةِ الشَّريعةِ النَّاصعةِ..

فترى قلبًا مُرتابًا زائغًا فَزِعًا، تحركُه عواصفُ الامتحانِ..

وترى قلبًا مليئًا بأكيـاسٍ من العثراتِ: كبرٍ، وعجبٍ، وريـاءٍ، وتصُّنعٍ، وميلٍ إلى البطالةِ، وتركٍ للعملِ = فهذه عثراتٌ وعوائقُ تَصُدُّ تارةً، وتُشـوِّشُ البالَ أخرى، وتحجبُ قلبَه تاراتٍ.

فإن كانت فلتاتُ اللِّسانِ فاضحةً؛ فإنَّ فلتاتِ القلبِ أشدُّ فظاعةً وحطًّا من قدرِ مُعتقِدِها؛ جزاءً وفاقًا! وهذا هو الشـأنُ دومًا، نراه في أنفسِنا ومَن حولَنا: أنَّه ما اعتلى أحدٌ وترفَّع وتكبَّـر وأضمَر هذه العثراتِ؛ إلَّا حطَّ اللهُ مِن قـدرِه، وطمَس قبولَه من القلوبِ، وحجَب قلبَه عن الوصولِ، وذلك بقدرِ ما ترفَّع وأضمَر.

ثانيًا: الموضةُ العلميةُ

مِن زمنٍ إلى آخرَ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ تتسلَّلُ بعضُ المفاهيمِ، ويعتري الناسَ تغيُّرٌ في الأفكارِ والعاداتِ والأعرافِ؛ فينشأُ عليها أبناءُ جيلٍ وقرنٍ حتى يعتادَها الناسُ، وتصبحَ من مُسلَّماتِ الحياةِ.

وفي واقعِ العلمِ والطلبِ، نجدُ الأمرَ كذلك أيضًا قد أصبحَ في كلِّ زمنٍ أوَّليَّاتٌ ومعارفُ تُفرِزُها أحداثُ الواقعِ، وعاداتُ الناسِ وحياتُهم، وجَلَبتُها (موضاتٌ علميَّةٌ) في الأسواقِ العلميةِ، ينصرفُ معَها الناسُ عن أصلِ العلمِ ومدارجِ التَّرقِّي فيه، فتستولي العادةُ والأعرافُ الجديدةُ لتصبحَ هي الأصلَ، وما عداها تخلُّفٌ ورجوعٌ إلى الخلفِ!!

فالموضةُ: «عاداتٌ وابتكاراتٌ يتعلقُ الناسُ بها زمنًا ثُمَّ يتركونها».

وبتحقيقِ المناطِ على الواقعِ العِلميِّ والتَّعليميِّ، فإنَّنا نستطيعُ أن نُعرِّفَ «الموضةَ العلميةَ» بأنَّها:

(تَمكُّنُ المُجاراةِ والتَّقليدِ لِما ذاع وراج في الواقعِ، بعيدًا عن الجادَّةِ التَّأصيليةِ في التعلُّمِ).

ففي الآونةِ الأخيرةِ -للأسفِ- دبَّ بعضُها إلى طلابِ العلمِ، وشابها هوًى خفيٌّ وداعٍ نفسيٌّ، قد يكونُ التعبيرُ عنه بـ(الموضةِ العلميةِ) صادقًا.

وإلَّا فحدِّثني عن إغراقِ الطُّلابِ في المشاركةِ في الواقعِ، ومُتابعةِ أحداثِه

وتحليلاته، وجعل ذلك مؤثرًا على منهجية الطلب؛ فأضحى الواقعُ هو ما يُشكّل المنهجَ العلميَّ، وأحداثُه وخطوبُه هي ما تُقرِّرُ المُقرَّراتِ، وندوبُه وآثارُه هي ما تُرجِّحُ الإكمالَ أو الاكتفاءَ..

فكم نرى من طلابِ العلمِ مَن انتهَض للتحصيلِ، وتفرَّغ للتلقِّي والمذاكرةِ، قد أعجَبَكَ عزمُه واستقامتُه = إذا به يُعطِّلُ كُرَّاسَه، ويكسرُ أقلامَه؛ لينبريَ لمواقعِ السِّياسةِ والتحليلِ والأخبارِ وشاشاتِها!

وشواهدُ هذا كثيرةٌ.. للأسف!

فما زالتْ كتيبةُ العلماءِ والمتعلِّمين تتناقصُ أعدادُها، ويخفُّ تأهيلُ أفرادِها، حتى أضحَتْ هزيلةً قليلةً أفرادُها. فلو كان هذا الطالبُ درَّاكًا لغاياتِ ما يصنعُ؛ مِن جمعِ قلبِه على العلمِ، واستفراغِ الوسعِ في تحمُّلِه = لَمَا أهمَل العلمَ ومجالسَه بدعوى فقهِ الواقعِ والأحداثِ الجاريةِ وغيرِها.

وقُل مِثلَ هذا في قضايا الفِكرِ الدائرةِ حولَ الخلافاتِ بينَ السُّنَّةِ والشِّيعةِ، فإذا ما أُثيرَ حدثٌ أو تُنُوقِلَ حديثٌ، وخاض أهلُ الإعلامِ ومُحرِّكو الدَّفَّةِ = كسَر صاحبُنا جناحَ الطلبِ ليغوصَ في بحارِ الفَرْقِ بينَ الفِرَقِ، ويتعمقَ في أصولِ المِلَلِ والنِّحَلِ ليتعرفَ على حقيقةِ هذا الخلافِ الدائرِ، ويُحلِّلَ تصاريحَ القومِ، ويُفنِّدَ كلامَ المُحلِّلينَ، كلُّ هذا على حسابِ التأصيلِ العلميِّ، وقد كان يكفيه أقلُّ من هذا، لكنَّه آثر الخوضَ فيما يخوضُ فيه القومُ، ويلبسُ لبوسَ النفعِ المتعدي والدفاعِ في مرحلةِ النَّفعِ القاصرِ والتأصيلِ.

ومِثلُه أيضًا في القراءاتِ، إذا كانت سوقُها رائجةً؛ انبرَى ليكونَ القارئَ، وإن كان في علمِ المصطلحِ؛ تجهَّز ليكونَ المُحدِّثَ الأثريَّ، وإن كان في الإجازاتِ؛ راوَده حلمُ الإجازةِ والرِّوايةِ، ممَّا يكونُ إقحامًا في منهجِه في التعلُّمِ!

وأمّا إذا كانت الموضةُ من بابِ الإثراءِ المعرفيِّ والاستحسانِ؛ فإنّه سيؤولُ إلى انصرافٍ عن برنامجِه بالكُلّيَّةِ.

فالجامعُ لفعلِ هؤلاءِ أمورٌ:

الأول: الانشغالُ عن التأصيلِ والتأسيسِ واستكمالِ التكوينِ:

وذلك على حسابِ موضةِ العصرِ وحديثِ العامَّةِ، أو قُلْ: ما ليس هذا أوانه ووقتَه.

الثاني: سلوكُ منهجيةٍ جديدةٍ مُخترَعةٍ تُوافِقُ الفكرةَ التي خاض في رُبُوعِها:

فيلجأُ إلى جعلِ تخرُّجِه على تلك الكتبِ التي تناقشُ ما خاض فيه، وتُعِينُ على إدراكِه وفهمِ مراميه، وكلُّ هذا جنايةٌ على التمكُّنِ العلميِّ.

الثالثُ: تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ:

فهو سيلجأُ إلى استعجالِ القراءةِ في الرائجِ من التخصُّصاتِ الفرعيةِ في الفنونِ قبلَ التمكُّنِ مِن أُسِّها وأصلِها، فسيُقدِّمُ حتمًا ما حقُّه التأخيرُ، ولو صبر على مراحلِه العلميةِ؛ فستأتيه هذه الكتبُ في رُتْبَتِها المنهجيةِ، وفي سُلَّمِها التعليميِّ، وسيفوزُ بانسيابِ العلومِ وترتيبِها وتدرُّجِها في ذهنِه.

كثيرون هم في هذه الأيّامِ مِن طلابِ العلمِ مَن حرَصوا على المُجاراةِ لسُنَّةِ أبناءِ العصرِ لا منهجٍ علميٍّ؛ فهل سيكونُ هؤلاءِ كما أُرِيدَ لهم مِن قبلُ، أو كما تَمنَّوْا هم من قبلُ، أو كما يقولون في دعائِهم: (واجعَلْنا للمُتَّقِينَ إمامًا)؟ أم سيكونُ الحالُ مُشابِهًا -معَ الفرقِ الكبيرِ- لمَن يقولُ: (رأيتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه)؟!

ضبط وتتميم:

يجبُ أن يُلِمَّ الطالبُ بالنَّوازلِ ومعرفـةِ الخصومِ، ويتعمقَ في نقضِ مذاهبِهم المُخالِفةِ، لكنْ هل يُدَلُّ على هذا أيُّ طالبٍ كيفما اتَّفق، أم يختصُّ بمُتقدِّمٍ في الطلبِ والفهمِ والتصوُّرِ؟ وهل يُكتفَى فيه بالمعرفةِ الإجماليةِ، أم يُردُّ تقدير ذلك إلى أستاذه الذي يلازمه؟

يقولُ الزَّرْنُوجيُّ رحمه اللهُ: (وينبغي لطالبِ العلمِ: ألَّا يختارَ نوعَ العلمِ بنفسِه، بل يُفوِّضُ أمرَه إلى الأستاذِ؛ فإنَّ الأستاذَ قد حصَلَ له التجاربُ في ذلك، فكان أعرفَ بما ينبغي لكلِّ واحدٍ، وما يليقُ بطبيعتِه. وكان الشَّيخُ الإمامُ الأجلُّ الأستاذُ برهانُ الحقِّ والدِّينِ[1] رحمه اللهُ تعالى يقولُ: كان طلبةُ العلمِ في الزَّمانِ الأولِ يُفوِّضون أمرَهم في التعلُّمِ إلى أستاذِهم، وكانـوا يَصِلون إلى مقصودِهم ومرادِهم، والآنَ يختارون بأنفسِهم؛ فلا يحصلُ مقصودُهم من العلمِ والفقهِ)[2].

---

(١) يقصدُ أستاذَه الفقيهَ الحنفيَّ الكبيرَ: برهانَ الدِّينِ عليَّ بنَ أبي بكرٍ المَرْغِينانيَّ (ت٥٩٣)، صاحبَ كتابِ «الهدايةِ في الفقهِ»، وغيرِه.

(٢) «تعليم المتعلِّم» للزَّرنوجيِّ ص٨٦.

ثالثًا: التَّنمُّرُ بالألقابِ العلميَّةِ

من الظواهرِ التي اشـتَهَرتْ بينَ طلابِ العلمِ في هـذا الزمنِ: التَّنمُّرُ بالألقابِ العلميةِ، وما كان أحدٌ يتصورُ أنَّها تصلُ بالبعضِ إلى هذا الحدِّ الذي يَشِـينُ صاحبَه! وهذا الأمرُ ليس من مفرداتِ عصرِنا، بل هو قديمٌ مُتجدِّدٌ، وقد سارتِ الرُّكبانُ بأبياتٍ من الشِّعرِ تُعبِّرُ عن هذه الظاهرةِ:

مِمَّا يُزهِّدُني في أرضِ أندلُسٍ ... أسماءُ مُعتمِدٍ فيها ومُعتضِدِ

ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها ... كالهِرِّ يَحكِي انتفاخًا صَوْلَةَ الأسدِ

قال السَّـخاويُّ رحمه اللهُ: (أمَّا «شيخُ الإسلامِ»؛ فهو يُطلَقُ -على ما استُقرِئَ مِن صنيعِ المُعتبَرِينَ- على المُتَّبِـعِ لكتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، معَ المعرفةِ بقواعدِ العلمِ، والتَّبحُّرِ في الاطِّلاعِ على أقوالِ العلماءِ، والتَّمكُّنِ مِن تخريجِ الحوادثِ على النُّصوصِ، ومعرفةِ المعقـولِ والمنقولِ على الوضعِ المرضيِّ، ورُبَّما وُصِفَ به مَن بلَغَ درجةَ الولايةِ...).

ثُـمَّ قال: (وابتُذِلتْ هذه اللَّفظةُ؛ فوُصِفَ بها علـى رأسِ المائةِ الثَّامنةِ وما بعدَ ذلك مَن لا يُحصَى كثرةً، حتى صارت لقبًا لكلِّ مَن وَلِيَ القضاءَ الأكبرَ، ولو كان عاريًا مِن العلمِ والسِّنِّ وغيرِهما، بل صار جَهَلةُ المُوقِّعينَ وغيرِهم يَجمَعون جُلَّ الأوصافِ التي لا تُوجَدُ الآنَ مُتفرِّقةً في سـائرِ الناسِ للشَّـخصِ الواحدِ! والعَجَبُ ممَّن يُقِرُّهم

على ذلك؛ فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ»[1].

ومِن أعجبِ ما تراه هذه الأيَّامَ: منحُ ألقابِ (الاجتهادِ)، و (الباحثِ) بلا رقيبٍ ولا معيارٍ لمَن سلَّ سيفَ عقلِه بلا زمامٍ على ثوابتِ الشَّريعةِ، وأعمَل فيها ندوبًا وإشكاليَّاتٍ، ثُمَّ يُسوِّغُ هذا بدعوى (الرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ)، و (الحوارِ)، وما أشبهَ ذلكَ!

فهو قُرحةٌ في وجهِ العلمِ لا قريحةٌ، وخُرَاجٌ أَوْلى باستئصالِ مادَّتِه الفاسدةِ، لا أن تُمنَحَ له الألقابُ، ويُقَرَّ قولُه وتسميتُه ووصفُه بنعوتِ العلمِ والاجتهادِ. وأحقُّ مَن يُطلَقُ عليهم هذه الألقابُ الدَّالَّةُ على العلمِ والتمكُّنِ ذَوُوه لا أدعياؤُه[2]. كمَن انتصَب للعلمِ ودرسِه، وتغلَّل في خوافيه، وسلَكَ فيه مسلكَ الخبيرِ المُمارِسِ،

---

(١) «الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي ١/ ٦٨.

(٢) ألفاظُ: (العالِم)، و (العلاَّمة)، و (الإمام)، و (الرَّبَّانيّ)، و (الحَبْر) التي لم تُطلَق على أكثرِ حَمَلةِ الشريعةِ والعلمِ أيَّامَ نضارةِ الدِّينِ = أصبحتْ تُطلَقُ على الجهلاءِ لعهدِنا! فبعدَ أن كانت هذه الألفاظُ تُجعَلُ لأفرادٍ في الأُمَّةِ امتازوا ميزةً ظاهرةً بعقولِهم وعلومِهم، وقد تستعرِضُ القُطرَ بل الأقطارَ، بل العصرَ والأعصارَ، ولا تجدُ واحدًا استحقَّ هذه الألقابَ، صِرتَ إذا دخلتَ في عهدِنا إلى مدينةٍ صغيرةٍ كطرابلس الشام تظنُّ نفسَك وجميعَ مَن لهم شيءٌ من الذِّكرِ قليلٌ، أو تولَّوا منصبًا ولو حقيرًا في خدمةِ الحكومةِ، يُعطَونَ لقبَ: (العالم الفاضل، والعلَّامة الفاضل، والإمام المُحدِّث) بدونِ نكيرٍ!! كان يُقالُ لجُبَيرِ بنِ زُهَيرٍ الحضرميِّ: عالمُ أهلِ الشامِ. وللخليلِ بنِ أحمدَ: علَّامةُ البصرةِ. ولمالكِ بنِ أنسٍ: إمامُ دارِ الهجرةِ. ولعبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ: ربَّانيُّ هذه الأُمَّةِ. أمَّا اليومَ؛ فألفاظُ: (عالم)، و (علَّامة)، و (إمام) تُطلَقُ على المُمَخرِقينَ والمتنطعين الذين لم ينفعوا الأُمَّةَ بشيءٍ. انظر: «الألقاب العلمية»، مقال بمجلة المقتبس [نسخة إلكترونية] العدد (٧٧) بتاريخ ١/ ٧/ ١٩١٢م.

(وهذا الأمر في بلاد الشام منذ قرون، فاقرأ ترجمة من شئت من رجالها في «الكواكب السائرة»، و«خلاصة الأثر» و«سلك الدرر» و«حلية البشر». وهذا من آثار الجهل وانتشار التقليد والتصوف في هذه البلاد وغيرها في هذه القرون). [الشيخ محمد عُزير شمس]

وأمضى فيه عمرًا، حتى أصبَح العلمُ جاريًا في نفسِه مجرى الدَّمِ في العروقِ.

وهذا هو الإنصافُ والعدلُ في هذه الألفاظِ العظيمةِ والرُّتَبِ العليَّةِ؛ إذْ صرفُها لكلِّ مُشْتغِلٍ بالعلمِ جَورٌ عليها، ونأيٌ بها عن العدلِ. والجديرون بوصفِ العالِميةِ والإبداعِ العلميِّ تنمُّ أوصافُهم عنهم، لا ألقابُهم [ومُعرِّفاتُهم على الشَّبكاتِ الاجتماعيةِ].

فما عالمٌ تستهويه هباتُ الألقابِ ولا النُّعوتُ الفارغةُ، وما رأينا عالمًا ممَّن عُني بالعلمِ مِن السَّلفِ والخلفِ إلا هاربًا من سطوةِ الألقابِ، حاطًّا على نفسِه.

وجهُ كونِ التَّنمُّرِ عائقًا عن التعلم:

١- أنَّ هذا التَّنمُّرَ يُقلِّلُ بركةَ علمِه، ويمحقُ خيرَه:

لأنَّه يعكسُ نفسيَّةً مُسمِّعةً، مدخولةَ النِّيَّةِ، وقد قيل: (قُلْ لِمَن لم يكنْ مُخلِصًا: لا تَتعَنَّ).

٢- أنَّ صاحبَه لا يستقيمُ أمرُه على شيءٍ غالبًا:

فهَوَسُ اللَّقبِ، وجَرْسُه في الأذنِ، وحُلمُ التَّحليقِ يحولُ دومًا دونَ إكمالِ برنامجِ التعلُّمِ، وهو مُلاحَظٌ على كثيرٍ ممَّن سلَكَ هذا السبيلَ؛ فتراه اليومَ يقرأُ في هذا العلمِ ليكونَ المُحدِّثَ الأثريَّ، وفي القراءاتِ غدًا لأنَّه وجَد مهابةً للمقرئِ الفلانيِّ.

٣- ضبابيةُ حقيقةِ العلمِ لديه:

ومِن أبرزِ صُوَرِ هذه الضَّبابيَّةِ: الربطُ الخاطئُ بينَ الإبداعِ في العلمِ واللَّقبِ العلميِّ.

وإذا كان هذا التنمُّرُ في اللقبِ العلميِّ؛ فإنَّ هناك حالتينِ قد تندرجانِ في ذلك:

الأولى: الفخرُ بالنَّسبِ؛ كقولِ بعضِهم: (الشريفُ فلانٌ)، والحرصُ على استعمالِه والتسمِّي به. وقلَّما وُجِد مَن نبَّه عليه، وهي موجودةٌ في بعضِ المتسبين إلى العلمِ.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (تعليقُ الشَّرفِ في الدِّينِ بمُجرَّدِ النَّسبِ = هو حُكمٌ من أحكامِ الجاهليَّةِ الذين اتَّبعَتْهم عليه الرَّافضةُ، وأشباهُهم مِن أهلِ الجهلِ)[1].

الثَّانيةُ: نحتُ بعضِ المُؤلِّفينَ لأسمائِهم على طريقِ الأقدمينَ في انتسابِهم في الأبحاثِ والكتبِ؛ ففيها هالةٌ تُظهِرُ دسيسةَ الغلوِّ، ودفينةُ حبِّ الشَّرفِ والرِّياسةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٢٣٠.

رابعًا: حرقُ المراحلِ

خُذها عاليةً من أبي سـليمانَ الخطَّابيُّ (ت٣٨٨) رحمه اللهُ، إذ يقول: (ولكنَّ أقوامًا عساهم استوعَرُوا طريقَ الحقِّ، واستطالوا المُدَّةَ في دَرْكِ الحظِّ، وأحَبُّوا عُجالةَ النَّيلِ، فاختصَروا طريقَ العلمِ، واقتصَروا على نُتَفٍ وحروفٍ مُنتزَعةٍ عن معاني أصولِ الفقهِ، سَمَّوْها عِلَلًا، وجعَلوها شعارًا لأنفسِهم في التَّرسُّمِ برسمِ العلمِ، واتَّخذوها جُنَّةً عندَ لقاءِ خصومِهم ونصَبوها دَرِيئـةً!!! للخوضِ والجدالِ يتناظرون بها ويتلاطمون عليها، وعندَ التصادرِ عنها قد حُكِم للغالبِ بالحِذْقِ والتبريزِ؛ فهو الفقيهُ المذكورُ في عصرِه، والرئيسُ المُعظَّمُ في بلدِه ومصرِه!!!

هذا، وقد دَسَّ لهم الشـيطانُ حيلةً لطيفةً، وبلَغ منهم مكيدةً بليغةً، فقال لهم: هـذا الذي في أيديكم علمٌ قصيـرٌ، وبضاعةٌ مُزجاةٌ لا تَفِي بمبلـغِ الحاجةِ والكفايةِ؛ فاسـتعينوا عليه بالكلامِ، وصِلُوه بمُقطَّعاتٍ منه، واسـتَظهِروا بأصولِ المُتكلِّمين = يتَّسـعْ لكم مذهبُ الخوضِ ومجـالُ النظرِ. فصدَّق عليهم ظنَّـه، وأطاعه كثيرٌ منهم واتَّبعوه، إلَّا فريقًا من المؤمنين.

فيـا للرِّجالِ والعقولِ أنَّى يذهبُ بهم؟! وأنَّى يختدعُهم الشـيطانُ عن حظِّهم وموضعِ رشدِهم؟! واللهُ المستعانُ)[1].

---

(١) «معالم السُّنَن» ١/ ٥.

خامسًا: التَّعالي على الشَّيخِ المُعلِّم

وهذه الآفةُ تعتصرُ الفؤاد خجلًا وحياءً عندَ التَّنويهِ بها، والدَّندنةِ حولَها!

درَستُ على أحدِ المشايخِ عدَّةَ سنواتٍ، ومنَحَنا اللهُ من علمِه وأدبِه الكثيرَ، فلمَّا كان ذلك اليومُ الذي هو المجلسُ الأخير؛ قام فينا ناصحًا، فلا زال يَعلَقُ بقلبي أثرُ ذلك المجلسِ، وخشوعُه، وصدقُ ذلك النُّصحِ، فكان ممَّا قال:

(شيخُكَ سيبقى شيخَكَ. وإذا سَمِع أحدُكم عن موعدِ درسٍ، أو إعلانٍ عن مُحاضَرةٍ لأحدِ إخوانِه وزملائِه في الطلبِ؛ فَلْيَحرِصْ على جمعِ الناسِ عليه، وليكنْ هو مَن يُلصِقُ له الإعلانَ ليجمعَ الناسَ للاستفادةِ منه)؛ فواللهِ ما أعذَبَها من كلماتٍ!

لم أكدْ أُدرِكُ هذه الحقيقةَ حينَها، لكنْ ما أن تعتصرَكَ أحداثُ الحياةِ، ومتاهاتُ الطُّرقِ، وألوانُ الناسِ، حتى تعلمَ أنَّ التعاليَ لم يكنْ يومًا مُقتصِرًا على مُساوٍ أو صغيرٍ، بل تعدَّاه إلى الشَّيخِ المعلِّمِ!

ومِن موروثِ الأمثالِ الجميلةِ: (العينُ لا تعلو على الحاجبِ)؛ فكم من تلميذٍ فُتِن بقدرتِه على الجمعِ والكتابةِ، وآخرَ غرَّه بيانُه، وثالثٍ خدَعه جمهورُه ومُؤيِّدوه!

فاحذَرْ يا مسكينُ أن تتعالى وتتعاظمَ على مَن أحسَن فيكَ الظَّنَّ يومًا، ومنَحكَ سهرَه وتعبَه وجهدَه خالصًا، فهو دَينٌ، وكما تدينُ تُدانُ.

ولا أنسى ذلك اليومَ إذ رأى أحدُ مَن استفدتُ بعلومِهم مِن أهلِ العلمِ بعضَ مسائلَ كنتُ بحثتُها، فأراد نصحي فقال: (اعلَمْ أنَّ الطالبَ مهما بلَغ في قُوَّةِ البحثِ

والكتابةِ شأنًا؛ فإنَّ علميةَ العالِمِ تسبقُه).

صدَق، فكثيرونَ أولئكَ الذيـن يُمضُون الأعمارَ في صقـلِ الألفاظِ ونحتِ الأسـجاعِ، وما حظُّهم من ذلـك إلا البريُ والصقـلُ، أمَّا حظُّ العالِـم فهو المعنى والحقيقةُ، فلا تَغُرَّنَّكَ مساحيقُ الألفاظِ والحروفِ، فدونَها تقعُ الحُتُوفُ!

ذُكِـر في ترجمةِ أبي بكرِ بنِ الدَّهَّانِ النَّحـويِّ الضَّريرِ [المُبارَكِ بنِ المُبارَكِ بنِ سـعيدِ بنِ أبي السَّـعاداتِ الوجيهِ] (ت٦١٢) رحمه اللهُ، أنَّـه: (كان قليلَ الحظِّ من التّلامذةِ، يتخرَّجون به ولا يَنتَسـبون إليه. وكان جيِّدَ القريحةِ، حادَّ الذِّهنِ، مُتضلِّعًا في علومٍ كثيرةٍ، إمامًا في النَّحوِ واللُّغةِ والتَّصريفِ والعَروضِ ومعاني الأشـعارِ والتَّفسيرِ والإعرابِ وتعليلِ القراءاتِ، عارفًا بالفقهِ والطِّبِّ والنُّجومِ وعلومِ الأوائلِ، وله النَّظمُ والنَّثرُ الحسـنُ؛ حسنَ التَّعليمِ، طويلَ الرُّوحِ، كثيرَ الاحتمالِ للتَّلامذةِ، واسعَ الصَّدرِ، لم يغضبْ قطُّ من شيءٍ، وشـاع ذلك حتى بلَغ بعضَ الخلفاءِ، فجهَد على أن يُغضِبَه فلم يقدرْ!

وكان حنبليًّا، ثُمَّ تحوَّل حنفيًّا، ثُمَّ لمَّا درَّس النَّحوَ بالنِّظاميَّةِ صار شـافعيًّا؛ لأنَّه شرطُ الواقفِ، فقال فيه تلميذُه أبو البركاتِ محمدُ بنُ أبي الفرجِ التَّكريتيُّ:

ألَا مُبلِغٌ عنِّي الوجيهَ رسالةً	وإنْ كانَ لا تُجدِي إليه الرَّسائلُ
تَمَذْهَبتَ للنُّعمانِ بعدَ ابنِ حنبلٍ	وذلك لمَّا أعوَزَتْكَ المآكِلُ
وما اخترتَ رأيَ الشَّافعيِّ دِيانةً	ولكنْ لِأنْ تَهوى الذي منه حاصِلُ
وعمَّا قليلٍ أنتَ لا شكَّ صائرٌ	إلى مالكٍ فافطَنْ لِما أنا قائلُ

قال جلالُ الدِّينِ السُّيوطيُّ رحمه اللهُ، مُعقِّبًا: (هكذا تكونُ التَّلامذةُ، يَتخرَّجون بأشياخِهم، ثُمَّ يهجونهم! لا قُوَّةَ إلَّا باللهِ)[1].

(١) «بغية الوعاة في طبقات اللُّغويِّين والنُّحاة» للسيوطي ٢/ ٢٧٢.

سادسًا: تأجيرُ القلمِ، وضياعُ المشروعِ العِلمي

(... لا يزورُ العلمُ قلبًا مشــغولًا بترَقُّبِ المناصبِ، وحسابِ الرَّواتبِ، وسَوْقِ الآمالِ وراءَ الأموالِ، كما لا يزورُ قلبًا مُقسَّمًا بينَ تصفيفِ الطُّرَّةِ، وصقلِ الغُرَّةِ، وحُسنِ القَوامِ، وجمالِ الهِندامِ، وطُولِ الهُيامِ بالكأسينِ: كأسِ المُدامِ، وكأسِ الغرامِ)[1].

هذه الكلماتُ ســطَرها الأديبُ مُصطفى المَنْفَلُوطيُّ، وهي تحكي واقعَ قلبٍ حار بينَ رعيِ مَقصَدِ العلمِ الأعظمِ، والولَعِ بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا..

لقد اســتقَرَّ في الأذهانِ جمالُ معنى العلمِ والغايةُ من إدراكِه، وردَّده الجميعُ، لكنْ في دنيــا الواقعِ يُرى مَن يتَّجهُ إلى العلمِ بكُلِّيَّتِــه زمانًا، ويُخلِصُ لطلبِه، حتى إذا اســتَمَّ له بعضُ ما يترتبُ على مَن حَظِي بنوالِه؛ مِن وجاهةٍ، أو محبَّةٍ، أو إقبالِ الناسِ عليه؛ لشرفِ ما يَحمِلُ = نجدُه يتوقفُ ويُفكِّرُ ليَرجِعَ رأسَه إلى العدِّ والحساب، لتعودَ إثرَها مِن بعدِ قُوَّةٍ أنكاثًا، لا ليتركَ العلمَ، بل ليصبحَ العلمُ آلةَ استثمارٍ!!

وهذا التحوُّلُ إنَّما هو انقلابٌ في الهــدفِ والغايةِ؛ فبعدَ أن كان يطلبُه خالصًا للـهِ، لا لدنيا أو متاعٍ إلا العلمَ والنفعَ للخلقِ، إذا به يُفتَنُ ببريقِ صورةِ الدُّنيا وزهرتِها، ليَبْغيَهــا -بعملٍ من أعمالِ الآخــرةِ المحضةِ- بعدَ أن كان يتحاشــاها فكرًا وعملًا وطموحًا.

ومِن مُستحسَنِ ما قيل في هذه المعاني، ما أبدَعه ابنُ خَفاجةَ رحمه اللهُ:

---

(1) «مُؤلَّفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة» ١/ ٢٤٣.

درَسوا العلومَ ليَملِكوا بجدالِهم فيها صُدُورَ مراتبٍ ومَجالِسِ
وتَزَهَّدوا حتَّى أصابوا فُرْصةً في أخذِ مالِ مساجدٍ وكَنائِسِ[1]

نعم، قد يحتاجُ المرءُ عندَ الحاجةِ، وخاصَّةً إذا تعلَّق به مَن لَزِمه الإنفاقُ عليهم، لكنَّنا هنا نتحدثُ عن أثرِ هذا التوجُّهِ، ومآلِه في تعميقِ الانكسارِ.

ففي فترةِ طلبِه للعلمِ: تَملَّك البيانَ، واكتسَب قُوَّةَ القلمِ، فتماسكتْ عبارتُه كتابةً، واستقام لسانُه إفصاحًا؛ فراح بهما طائرًا إلى المطابعِ، ومراكزِ الأبحاثِ والدّراساتِ ليُؤجِرَ قلمه، وإلى الشاشاتِ ليُسلِّمَ نفسَه إليها؛ ليتاجرَ بقلمِه وعلمِه، وينظرَ إلى الرائجاتِ من المواضيعِ، المُخالِفاتِ لِما استقرَّ عندَه من الراجحِ، فنشَر ما لا يَعتقِدُ، وطبَع ما لا يَرضَى عنه، وظهَر على شاشةٍ خالَفَها فكرًا ومنهجًا؛ فآلَ إلى تجارةٍ بالعلمِ والأدبِ وقُوَّةِ القلمِ واللِّسانِ!

سيَجْنُونَ أرباحَها عاجلًا فُتاتًا، وستَجنِي الأُمَّةُ على إثرِها مُرًّا وسُمًّا زُعافًا؛ وسِرُّ ذلك أن المُشتغِلَ ببيعِ «القَلَمِ» و«الكَلِمِ» يَندرُ أن يَخلُصَ قلمُه إلى تحريرٍ، أو لسانُه إلى إفصاحٍ ونفعٍ خالصٍ؛ إذْ زَيفُ القلمِ وتزويقُ اللِّسانِ المُستشرِفِ لمتاعِ الدُّنيا صادٌّ للقلوبِ عن القبولِ، وللآذانِ عن الإذعانِ. ومِن مأثورِ الحكمةِ ما حكاه سفيانُ الثَّوريُّ رحمه اللهُ: (لا تكُونَنَّ حريصًا على الدُّنيا؛ تكُنْ حافظًا).

يا طالبَ العلمِ:

فرقٌ كبيرٌ بينَ مَن حقَّق العلمَ ليكونَ هاديًا للناسِ، وبينَ مَن سوَّد الكلماتِ عادًّا على وزنِها اللُّقيماتِ؛ فالأولُ مُخلِصٌ قلبُه للعلمِ، والثاني مُحصٍ للأموالِ، وشتَّانَ بينَ مخلصٍ للهِ ومُحصٍ للأموالِ. وعزُّ الدِّينِ وإعلاءُ الشريعةِ لا يأتي إلا بصادقينَ تمحَّضتْ نيَّاتُهم وغاياتُهم وتوفَّرتْ على إعلائِها.

(١) «ديوان ابن خفاجة» ص١٣٨.

وجِماعُ الأثرِ السَّيِّيِ لذلك:

١- اهتـــزازُ المعنى الأهمِّ والمَقصَدِ الأعظمِ من العلمِ؛ وهو عبادةُ اللهِ، وتعبيدُ الناسِ لربِّ العالمين.

٢- الإرثُ الهشُّ؛ فالقلمُ المُســتعارُ، واللِّسانُ المُستأجَرُ لا يتركُ إلا إرثًا هشًّا، وعلمًــا لا روحَ فيه، مُلِــيءٍ مُمالأةً وحرصًا على الحياةِ الدُّنيا، ولم يكنْ لعزِّ الإسلامِ ولا خلاصِ النَّفسِ أمامَ اللهِ، إلا ما ندَر.

٣- عدمُ الوثوقِ بقلمِ أجيرٍ؛ فالأُجرةُ قد تمنعُ كمالَ الثَّباتِ، ورُبَّما أصلَه، ومَن تأمَّل ارتعاشَ الفقهِ، والتناقضَ، وذوبانَ الشخصيةِ العلميةِ الرصينةِ الثابتةِ = يعلمْ يقينًا أنَّ ذلك مَرَدُّه إلى تزاوجِ العلمِ بالدِّينارِ، واختلاطِ قصعةِ الثَّريدِ بأحبارِ العلماءِ.

٤- وَأْدُ المشروعِ العلميِّ لصاحبِ القلمِ، وهذه أشدُّها؛ فكم ضاعتِ المشاريعُ والأفكارُ والدِّراســاتُ الخاصَّةُ بطالبِ العلمِ، ليدفعَ مكانَها دراساتٍ لغيرِه؛ بل يرفعُ خسيسةَ أقوامٍ ليَحُطَّ مِن قدرِ نفسِه وزِانَها!

وما أحلَى ما عقَّب به ابنُ بطَّالٍ -رحمه اللهُ- على حديثِ أبي هريرةَ -رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ ﷺ، قولُه: «غَزَا نَبِيٌّ مِن الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يَتبَعْني رجلٌ ملَك بُضْعَ امرأةٍ وهو يريدُ أن يَبنِيَ بهــا، ولمَّا يَبْنِ بها...»[1]؛ يقولُ: (فلمَّا كان قلبُ الرَّجلِ مُعلَّقًا بابتنائِه بأهلِه، أو ببنيانٍ يخافُ فســادَه قبلَ تمامِه، أو يُحِبُّ الرُّجوعَ إليه ولم يُوثَقْ بثباتِه عندَ الحربِ = فقُطِعتِ الذَّريعةُ في ذلك)[2].

قلتُ: وما أشــبَه العلمَ بالجهــادِ والنفيرِ، وما أحلى هــذه الكلماتِ والقواعدَ

(١) «صحيح البخاري» ٤/ ٢٢٦ رقم (٣١٣٤).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال ٧/ ٢٧٧، وانظر: «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن ٢٤/ ٤٩٣.

لتكونَ نِبراسًا لمَن يريدُ خلاصَ قلبِه للعلمِ والدارِ الآخرةِ!

لذا كانت النصيحةُ بالابتعادِ عن الخلطِ بينَ مقامِ العلمِ والقلمِ، ومقامِ الدُّنيا، فإنَّ التقاربَ ضارٌّ بأحدِهما، مُوبِقٌ بشرفِ أغلاها وهو العلمُ، إلا إذا وُجِدتِ الضرورةُ التي قد يدفعُ معَها طالبُ العلمِ مِن نفيسِ علمِه ووقتِه ومشروعِه.

وعلى طالبِ العلمِ أن يتحلَّى بالثباتِ أمامَ طوفانِ المُغرياتِ والمُغيِّراتِ، ويتذكرَ ما كان عليه سلفُ هذه الأُمَّةِ؛ من الصبرِ والزهدِ، وعدمِ المُداهَنةِ، وعدمِ تأجيرِ القلمِ.

سابعًا: الرّحلةُ والأسفارُ قبلَ غربلةِ الدّيارِ

لرحلةِ الطلبِ شــرفٌ كبيرٌ، ولمُلتمِسِــه عندَ أهلِه وذويه ممّن نأتْ بهم الدِّيارُ فضلُ الرِّحلةِ. لكنْ مِن الأخطاءِ التي لُوحِظـــتْ في هذا: أن يبدأ الطالبُ أمرَه مُغترِبًا، ومِشوارَه نائيًا عن أهلِ بلدِه بلا مُسوِّغٍ.

فسُنَّةُ التلقِّي عندَ السلفِ: أنَّهم يَجُوبونَ البلدةَ التي يَقطُنُون إن لم يكنْ ثَمَّ مانعٌ، ويُثَنُّون بمَن يُظَنُّ فيهم الرسوخ.

غيرَ أنَّ حالَ بعضِ الناسِ أنَّهم مُولَعون، بل لا يكادون يعترفون إلا بذاكَ العالِمِ البعيدِ غيرِ المُقِيمِ معَهم في سوقِ الحياةِ، فيُعلُون من شأنِ الآفاقيِّ، ويجدون لكلماتِه مشاعرَ وطربًا!

وسرُّ ذلك:

١- أنَّ أهلَ بلدِه يكونون أقربَ إلى عقليَّتِه ولغتِه وفهمِه، وأسهلَ تناولًا.

٢- أنَّه يذهبُ إلى الموثوقِ منهم بسهولةٍ.

٣- أنَّه تحصلُ الثِّقةُ به ويعلومِه مُستقبَلًا؛ فهو عارفٌ بمذاهبِهم وأفكارِهم.

ثامنًا: التَّمَنطُقُ وقُوَّةُ الجدَلِ

كان أهلُ العلمِ يَنأَون عن الخوضِ والجدالِ، إلا لفائدةٍ، وبالتي هي أحسنُ، ثُمَّ إنَّهم نهوا عن خوضِ المتعلِّمِ فيه إلا بقدرِ المصلحةِ؛ فإنَّ الانشغالَ عن العلمِ واكتسابَ الضغائنِ والأحقادِ إرثُ الجدالِ واللَّجاجِ، ويصرفُ العبدَ المشتغلَ به عن حقائقِ العلمِ، حتى وإن حصَّل قدرًا من العلمِ والأدبِ؛ فكيف بطالبٍ في مُقتبَلِ عمرِه، ولمَّا تُزهِرْ وردةُ أيَّامِه؟!

يقولُ وليُّ اللهِ الدِّهْلويُّ رحمه اللهُ: (وفتنةُ هذا الجدالِ والخلافِ والتَّعمُّقِ = قريبةٌ من الفتنةِ الأولى، حينَ تشاجَروا في المُلْكِ، وانتصَر كلُّ رجلٍ لصاحبِه، فكما أعقَبتْ تلك مُلكًا عَضُوضًا، ووقائعَ صمَّاءَ عمياءَ = فكذلك أعقَبتْ هذه جهلًا واختلاطًا وشكوكًا ووهمًا، ما لها من أرجاءٍ، فنشأَتْ بعدَهم قرونٌ على التقليدِ الصِّرفِ، لا يُميِّزون الحقَّ من الباطلِ، ولا الجدلَ من الاستنباطِ، فالفقيهُ يومَئذٍ هو الثَّرثارُ المُتشدِّقُ الذي حَفِظ أقوالَ الفقهاءِ قويَّها وضعيفَها من غيرِ تمييزٍ، وسرَدها بشقشقةِ شِدْقَيْه، والمُحدِّثُ مَن عدَّ الأحاديثَ صحيحَها وسقيمَها، وهذَّها بقُوَّةِ لَحْيَيْه)[1].

الأثرُ السَّيِّئُ المُترتِّبُ على تقحُّمِ النَّاشئةِ لبابِ الجدالِ:

١- خروجٌ عن جادَّةِ السَّلفِ في التَّحصيلِ:

إذ جادَّتُهم في ذلك: أن يَبتدِئَ بحسنِ السَّماعِ والتلقِّي للعلومِ، لا شغلِ الرُّؤوسِ

---

(١) «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» ص٩٥-٩٦.

بالخلاف.

٢- سببٌ لارتعاشِ فقهِ الطالبِ، وعدمِ وجودِ مسائلَ مُتَّفقٍ عليها في ذهنِه:

لأنه ابتدأ علمَه ناقدًا، وكلما سمع مسألةً بادَر إلى ذهنِه الإشكالُ، فاعتاده وصار له سجيةً وطبعًا، فكان حظُّ الشُّبهةِ والإشكالِ أعلى من حظِّ قرارِ العلمِ في قلبِه!

يقولُ الغزاليُّ رحمه اللهُ: (فمَن أَلِف طبعُه رسومَ الجدلِ؛ أذعَن ذهنُه لمُقتضياتِ الجدلِ، وجَبُن عن الإذعانِ لذوقِ الفقهِ، وإنَّما يشتغلُ به مَن يشتغلُ لطلبِ الصِّيتِ والجاهِ، ويَتعلَّلُ بأنَّه يطلبُ عِلَلَ المذهبِ، وقد ينقضي عليه العمرُ ولا يصرفُ هِمَّتَه إلى علمِ المذهبِ)[1].

٣- وأدٌ لعمرِ الطالبِ، وضياعٌ لمشروعِه العلميِّ:

فإنَّ الجدالَ والنِّقاشَ يستغرقُ الأوقاتَ، ويذهبُ بِذِرْوةِ سَنامِ أوقاتِ الصفاءِ الذِّهنيِّ في الرَّدِّ والحشدِ والتعقُّبِ.

تنبيهٌ:

من الظواهرِ التي تُرى مُصاحِبةً لمَن أُوتِي الجدلَ: ما يُلاحَظُ من بعضِ طلابِ العلمِ الذين دبَّ إليهم الولعُ بمجامعِ الناسِ ومجالسِ الحواراتِ التي يحضرُها مَن تَسَمَّوا بالمُفكِّرين وأنصافِ المُتعلِّمين، التي تجعلُ الحوارَ لأجلِ الحوارِ والتنظيرَ للتنظيرِ؛ فإنَّ هذه المجالسَ بها نشوةٌ خفيَّةٌ، ورغبةٌ مُتوارِيةٌ تدفعُ بهم إلى حبِّ تُضفَى عليهم الألقابُ، وتتهافتُ إليهم الأبصارُ. وليس هذا صنيعَ الصادقِ؛ فعلى طالبِ العلمِ أن يكونَ سالكًا للمحجَّةِ الواضحةِ، لا يعدلَ عنها، ولا يلتفتَ إلى ما سواها.

---

(١) «إحياء علوم الدين» ص٥١.

ويغلبُ على هؤلاءِ المُتأهِّبينَ لهذه المجالسِ كونُهم في مُقتبَلِ العمرِ، وبداياتِ مدارجِ التعلمِ والتحصيـلِ، فإقحامُهم في مجالسِ الجدالِ والحواراتِ ومنابرِ التعبيرِ عن الرأيِ = مُؤشّرٌ خطيرٌ يُنذِرُ بأمرٍ جلَلٍ تستشرفُه الأجيالُ.

يقولُ الحَجْويُّ رحمه اللهُ: (ومَن تتبَّع تاريخَ مجالسِ المُناظَراتِ العلميةِ التي ينالُ صاحبُ الظُّهورِ فيها رياسـةً أو جائزةً أو ظهـورًا = لا يَجِدْها قطُّ جاءت بفائدةِ إظهارِ الحقِّ ومحوِ الخلافِ، بل تكونُ بالعكسِ، فبسببِها يزدادُ الخلافُ تصلُّبًا وثبوتًا؛ إذِ الفصاحةُ والبلاغةُ لا تعدمُ مناسـجُها إيجادَ أثوابٍ تُغطِّي وجـهَ الحقِّ إذا دُعِّمتْ بعِيدانِ النُّفوذِ، وطُلِيتْ بطِلاءِ السِّياسةِ، ومُتِّنتْ بأطنابِ الرِّياسةِ والأغراضِ)[1].

والواجبُ على الرَّاغبِ في تحصيلِ العلمِ: أن يجمعَ قلبَه، ويُسـدِّدَ بصرَه على مُبتغـاه، ولا ينصرفَ عنه يمنةً ولا يسـرةً، ولا يخلطَها بضوضاءِ السياسـةِ وباطلِها، ولا خداعِ الإغراقِ فـي الأحداثِ الجاريةِ ولغطِها. قال سـفيانُ الثَّوريُّ رحمه اللهُ: (إنِّي لأَمُرُّ بالحائكِ، فأَسُدُّ أُذُني مخافةَ أن أحفظَ ما يقولُ)[2].

فكيف حالُكَ يا طالبَ العلمِ، وأنت تتوسعُ في الأخبارِ، وفي مُتابَعةِ كلِّ جديدٍ من برامجِها، و (تطبيقاتِها)، و (ضوضائِها) و (إشعاراتِها)؟!

---

(١) «الفكر السامي» ٣/ ١٥٢.
(٢) «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٣٥٧.

تاسعًا: القراءةُ «الاستعراضيّةُ الأُفُقيّةُ»، والقراءةُ «السُّلّميّةُ المرحليّةُ»

الأصلُ في سـيرِ الطالبِ اتِّباعُ المراحلِ العلميةِ، والترقِّي المرحليُّ في سُـلَّمِ الكتبِ، لا القراءةُ «الاسـتعراضيَّةُ» التي بها يكتسـحُ الطالبُ كلَّ ما يجدُه من شروحٍ أو تفاصيلَ قد تُسـمَّى أيضًا «القراءةَ الاستقرائيَّةَ»، فهي القائمةُ على استيعابِ ما كُتِبَ وقُـرِّر في المتنِ أو الكتابِ، ممَّا يكونُ على حسـابِ ما بعدَه من الكتبِ أو الدرجاتِ العليا في مدارجِ العلمِ.

فلا يحسـنُ بالطالبِ في أولِ التعلُّمِ أن يقرأَ قراءةً موسوعيَّةً، تأتي على ما قيل في القاعدةِ شـرحًا وتمثيلًا ونحوًا وإعرابًا؛ فهذا مُشتِّتٌ لذهنِ الطالبِ حالَ الابتداءِ، ومُوصِلٌ إلى ضياعِ حقيقةِ البابِ والقاعدةِ التي أُورِدتْ في المتنِ.

وإنَّما يَحسُـنُ هذا للمُتوسِّطِ والمنتهي، ممَّن أنهَى مرحلةَ التأصيلِ، وشرَع في إكمالِ تعلُّمِه، وذلك بقدرِ ما يُعِينُ على تفهُّـمِ المتنِ وإتقانِ الفنِّ ضمنَ إطارِ التدرُّجِ العلميِّ والمنهجيِّ، لا قفزِ المراحلِ وحرقِها.

عاشرًا: الدّعاوى، ودعوى أنّ «علومَ الآلةِ تُقسّي القلوبَ» أنُموذجًا

كثيرًا ما نسمعُ من بعضِ الطُّلابِ والمعتنين بالعلمِ ترديدَ هذه الكلمةِ: (طلبُ علومِ الآلةِ يُقسّي القلبَ)! فكم صدَّتْ من طلابٍ عن العلمِ، وعن التخصُّصِ في بعضِ علومِ الآلةِ؛ فكان حظُّ الطُّلابِ الحذرَ، وقد تصلُ إلى المُعاداةِ!

وهذا شأنُ الدَّعاوى الباطلةِ التي هي أقربُ إلى إشاعةِ المُنكَرِ والمُستنكَرِ، ممَّا تَمُجُّه القلوبُ، وتَعافُه الأذهانُ الصافيةُ. وخطرُ الدَّعاوى أنّها تنتشرُ لتجدَ مَن يحملُها ويَنفثُها بينَ الطُّلابِ، لتقرَّ في قلوبِ بعضِهم، وتصبحَ يقينيَّةً يومًا ما.

ومن هذه الدَّعاوى الجائرةِ قولُهم: (إنَّ علومَ الآلةِ تُقسِّي قلوبَ الطُّلابِ)!

ومأخذُ دعوى تقسيتِها للقلوبِ ظنُّهم أنّ دارسَها:

١- يؤولُ أمرُه إلى الجراءةِ على العلومِ والمشايخِ.

٢- لا يظهرُ عليه أثرٌ مسلكيٌّ ظاهرٌ بعدَ القراءةِ والتعمُّقِ فيها، بل ويُقسّي القلبَ.

والناظرُ في هذه الدَّعوى، وما صاحَبَها من تثبيطٍ عن بعضِ العلومِ، أو التخصُّصِ فيها - يجدُ سَيِّئَ أثرِها، وإن ادَّعى مُردِّدُها كونَها نصيحةً للطالبِ للاعتناءِ بالجانبِ المسلكيِّ؛ ذلك أنّها طعنٌ ضمنيٌّ في علومٍ اهتمَّ بها السلفُ، وكتبوا فيها، ودلُّوا عليها،

وفاقدُها مُنطَوٍ على قصورٍ ظاهرٍ في العلمِ.

مُناقشةُ هذه الدّعوى:

- دعــوى كونِها تئولُ إلــى: «الجرأةِ على العلومِ والمشــايخِ» مردودةٌ غيرُ مقبولةٍ؛ إذْ كلُّ العلوم قد يُقالُ فيها: (تُجرِّئُ الطُّلابَ)، وهل مِن الجرأةِ ألا يُرَدَّ على سابقٍ أو عالمٍ في فنِّه بدعوى التأدُّبِ معَه؟! فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبعَ، والباطلُ أَوْلى بأن يُظهَرَ ليحذرَه المتعلِّمُ.
- ودعوى: «عدمِ ظهورِ أثرٍ مَسْــلَكيٍّ ظاهرٍ بعدَ القراءةِ والتعمُّقِ فيها» مبنيٌّ على استقراءٍ خاطئٍ؛ فما من عبدٍ طلَب العلمَ، وتعبَّد للهِ بطلبِه وتحصيلِه = إلا ظهَر أثرُ ذلك عليه.

والنظرُ هنــا فيمَن يُعلِّمُه هذه العلومَ، وينقلُ إليه هذه المعارفَ؛ فهذا مُؤثِّرٌ جدًّا في تشكيلِ تصوُّرٍ عن هذه العلومِ، وبيانِ أثرِها في مسلكِه العلميِّ والحياتيِّ.

ولعلَّ القسوةَ الناتجةَ عن التعمُّقِ فيها يَنصَبُّ على مَن انتهَض إليها دونَ تأصيلٍ مُتَّزِنٍ مُرضٍ في «علومِ الغايةِ»، فكان خوضُه في «علومِ الآلةِ» على حســابِ كثيرٍ من فرائــضِ الدِّينِ وواجباتِ العبوديــةِ، فنقَصتْ هذه الواجباتُ وأنقَــص هذا مِن تديُّنِه وأخلاقِه وسلوكِه، وليس مَن أخطأ بحُجَّةٍ على مَن لم يخطئْ.

والذي يُنكَرُ هنا هو على الداخلِ فــي علومِ الآلةِ في أوَّلِ الطلبِ، وجعلُها من مهمَّاتِ العلمِ؛ فإنَّه يُحالُ بينَــه وبينَ اللِّينِ والتألُّهِ والرِّقَّةِ إلا النادرَ، خلافًا لمَن أمضى زمنًا في علومِ الغايةِ، معَ تنميةِ الحسِّ التَّعبُّديِّ، فكان ذلك أدعى للتوفيقِ، وأبعدَ له عن الغلظةِ وقلَّةِ الدِّيانةِ.

والواجــبُ على مَن عُنِي بالنَّشْءِ وتربيتِهم: أن يُرقِّيَهم في مدارجِ التعبُّدِ، فينموَ

لديه حسٌّ عباديٌّ ليصطحبَه معَه في حياتِه، لا أن يطلبَ الاجتهادَ رأسًا.

فالقسوةُ هنا لمَن لم يَلِجِ العلمَ من بابِه، ويَمزُجه بالاجتهادِ في العبادةِ، وإلا فإنَّ العلمَ لم يكنْ يومًا بابًا للقســوةِ، وإنَّما يُقسِّي القلوبَ ويفسدُها أيضًا: المِراءُ والهوى، والتَّفريطُ في العبادةِ، والإسرافُ في المعاصي.

يقولُ اللــهُ تعالــى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ويقولُ سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣].

قال الشَّافعيُّ رحمه اللهُ: (المِراءُ في العلمِ يُقسِّي القلوبَ، ويُورِثُ الضَّغائنَ).

وقال إسحاقُ بنُ عيســى: كان مالكٌ يقولُ: (المراءُ والجدالُ في العلمِ يُذهِبُ نورَ العلمِ من قلبِ الرَّجلِ).

وقال ابنُ وهبٍ: ســمعتُ مالكًا يقولُ: (المِراءُ في العلمِ يُقسِّي القلبَ، ويؤثِّر الضِّغنَ).

وكان أبو شُرَيحٍ الإســكندرانيُّ يومًا في مجلسِه، فكثُرتِ المسائلُ؛ فقال: (قد دَرِنــتْ قلوبُكم منذُ اليوم، فقوموا إلــى أبي حُمَيدٍ خالدِ بنِ حُمَيــدٍ اصقُلُوا قلوبَكم، وتعلَّموا هذه الرَّغائبَ؛ فإنَّها تُجــدِّدُ العبادةَ، وتُورِثُ الزَّهادةَ، وتجرُّ الصَّداقةَ. وأقِلُّوا المسائلَ إلا ما نزَل؛ فإنَّها تُقسِّي القلوبَ، وتُورِثُ العداوةَ)[1].

ومَــن تأمَّل حديثَ عُقْبَةَ بنِ عمرٍو أبي مســعودٍ -رضي اللهُ عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ أشــار بيدِه نحوَ اليمنِ، فقال: «الإيمانُ يَمانٍ ههنا، ألا إنَّ القســوةَ وغِلَظَ القلوبِ في

(١) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٢٤٨، تحقيق: الأرناؤوط.

الفَدَّادِينَ عندَ أصولِ أذنابِ الإبلِ، حيثُ يَطلُعُ قَرْنَا الشَّيطانِ، في ربيعةَ ومُضَرَ»[1]. علِم أنَّ الانشغالَ بالدُّنيا هو ما يُقسِّي القلوبَ.

يقولُ الخطَّابيُّ رحمه اللهُ: (إنَّما ذمَّهم لاشتغالِهم بمُعالَجةِ ما هم فيه عن أمرِ دينِهم، وذلك يُفضِي إلى قسوةِ القلبِ)[2].

وإذا تعرَّضنا لذكرِ هذه الدَّعوى؛ كان لا بدَّ من تنبيهٍ على عِلْمينِ زعَم البعضُ فيهما القسوةَ وإفسادَ الطُّلابِ، وهما: علمُ أصولِ الفقهِ، وعلمُ الحديثِ! وهي وإن لم تكنْ مُعلَنَةً بالقدرِ الكافي، إلا أنَّ الأُذُنَ تسمعُها بينَ الفينةِ والأخرى، وتشمُّ رائحتَها كثيرًا.

فعلمُ «أصولِ الفقهِ»، زعَم بعضُ المتنسبين إلى العلمِ والتعليمِ أنَّه يُجرِّئُ النَّاسَ ويصيبُهم بالغرورِ! كذا سَمِعتُها، لكنَّ الحقيقةَ أنَّ الأمرَ ليس كذلك؛ فالمُغترُّ لا يحتاجُ للأصولِ ولا غيرِه من العلومِ؛ إذِ الدَّاءُ من نفسِه.

فإذا أحسَنَ الطالبُ فهمَ هذا العلمِ؛ أمدَّه اللهُ ببابٍ لتأمُّلِ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وأحسَنَ النظرَ فيهما، والاستدلالَ بهما، وانتزاعَ الأدلَّةِ وتطبيقَها، بل صار أداةً تُمكِّنُه من حسنِ التدبُّرِ.

والاستفادةُ الحقيقيةُ من علمِ أصولِ الفقهِ تأتي عبرَ طريقينِ:

١- معرفةُ منشأِ القاعدةِ ودليلِها:

وهذا أمرٌ يعطي الثِّقةَ، ويُنشِّطُ الذِّهنَ لضبطِ القاعدةِ؛ فإذا أتقَنَ أصلَها سهُلَ عليه -بإذنِ اللهِ- الولوجُ في مضايقِ الخلافِ وتفاريعِه.

---

(١) رواه البخاري ٤/ ٣٣٥ رقم (٣٣٠٦)، ومسلم ١/ ٤٠٢ رقم (٤٣).

(٢) حكاه المُناويُّ في «فيض القدير» ٤/ ٤٦٢، نشر: دار المعرفة – بيروت.

٢- التطبيقُ الجيّدُ لمادّةِ العلمِ في المسائلِ الفرعيةِ.

وأمّا «علمُ الحديثِ»؛ فكفَى بالمُشتغِلِ به شـرفًا قراءةُ تراجمِ القومِ وسِيَرِهم، والاطّلاعُ على حديثِ رسـولِ اللهِ ﷺ، والنَّظرُ في عملِ السلفِ واهتمامِهم بالكتابِ والسُّنَّةِ والاتِّباعِ، وتعظيمُ المنقولِ عن رسولِ اللهِ ﷺ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عليه ﷺ.

وفي تقديري أنَّ الآفةَ سَـرَتْ بتهويلٍ وترديدٍ، توارَثها البعضُ آثِرينَ أو ذاكِرينَ لها، فأعاقَتْهم وصدَّتْ غيرَهم عن التَّعمُّقِ في هذه العلومِ.

وأكثـرُ مَن يُرى مُحذِّرًا منها في الغالبِ ممَّن شـقَّ عليـه تطلابُها وتحصيلُها، أو كان ممَّن التَمَسَها فلم يصلْ إلى غايتِها وفائدتِها التي جعَلتِ السلفَ يُؤلِّفون الكتبَ فيها، ويحضُّون الطُّلابَ على تعلُّمِها.

حاديَ عشرَ: رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ

رُهابُ الكتبِ العلميةِ المنهجيةِ آفةٌ دبّت بينَ الطُّلابِ، وأفسدتْ كثيرينَ ممّن انتسبوا إلى طلبِ العلمِ، فكان النَّأيُ والهربُ منها إلى ما يُداعِبُ الخاطرَ ويُطرِبُ الذِّهنَ من قصةٍ وفائدةٍ ومُلْحةٍ، ممّا لا يُنظَمُ في عِقدِ تعليمٍ، أو يَجمَعُ شَتاتَها سِلكٌ منهجيٌّ يتدرجُ فيه الطالبُ في مدارجِ العلمِ.

وإذا أنعمتَ النظرَ في آحادِ المتنسبين إلى الطلبِ؛ وجدتَ أمامَ أعينِهم أسوارًا قد بُنِيتْ لتصيرَ سدودًا هائلةً، مُهمَّتُها الصَّدُّ عن الوصولِ إلى حقيقةِ العلمِ وبلوغِ ملكتِه.

يُشعِلُ فتيلَ رُهابِ الكتبِ العلميةِ ظنونٌ خاطئةٌ يعتقدُها الطالبُ، منها:

١- طموحُه الزائدُ في رؤيةِ نفسِه جوادًا مُسرَجًا، يعدو في مرابعِ الكتبِ بلا إشكالٍ أو عقباتٍ، أو طلبِ إيضاحٍ لاصطلاحٍ.

٢- اعتقادُ أنَّ العقباتِ والإشكالاتِ إنَّما جُمِعتْ له، وأنَّ كلَّ الطُّلابِ والعلماءِ يفهمون كلَّ مواطنِ الكتبِ الصَّعبةِ، ويتصورون الإشكالاتِ العقليةَ والذِّهنيةَ، (فليس كلُّ ما في الكتب يعلمه العالم، ولا يكاد ذلك يحصل لأحد. بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيطُ بما فيها)[1].

٣- تصوُّرُه أنَّ على المُطَّلِعِ أن يتصورَ جميعَ المسائلِ تصوُّرًا كاملًا، من أولِ قراءةٍ واطِّلاعٍ على الفنِّ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام، (٢٠/ ٢٣٩).

٤- عدمُ التَّفرقةِ بينَ كتبِ الجردِ وكتبِ الحفظِ والتأمُّلِ.

ولحلِّ الإشكالِ لا بدَّ من:

١- الصبرِ والاعتيادِ:

فإنَّه لا بدَّ من الاعتيادِ على هذه اللُّغةِ؛ فهي فعلًا لغةٌ قويَّةٌ، وبها مُصطلَحاتٌ جديدةٌ على المتعلِّمِ، فإذا وطَّن الطالبُ نفسَه، وتصبَّر؛ اعتادها. فإتمامُ كتابٍ عميقِ المعنى جذلِ المبنى = حسنةٌ تتلوها حسنةٌ، وترفعُ عن القلبِ رُهابَ الكتبِ، وخوفَ عدمِ الفهمِ، وبالصبرِ والعزيمةِ تتيسرُ كثيرٌ من الصِّعابِ.

وممَّا يحدو الطالبَ للصبرِ على هذه الكتبِ: أن يعلمَ أنَّ فيها ترويضًا للذِّهنِ وشحذًا له، خاصَّةً ما قصد به ذلك.

وقد أشار إلى ذلك الفخرُ الرَّازيُّ -رحمه اللهُ- في «وصيَّتِه» قبلَ وفاتِه، فقال: (وأمَّا الكتبُ العلميةُ التي صنَّفتُها، أو استكثرتُ من إيرادِ السُّؤالاتِ على المُتقدِّمينَ فيها؛ فمَن نظَر في شيءٍ منها: فإنْ طابت له تلك السُّؤالاتُ؛ فَلْيَذْكُرْني في صالحِ دعائِه على سبيلِ التفضُّلِ والإنعامِ، وإلا فَلْيَحذِفِ القولَ السَّيِّءَ؛ فإنِّي ما أردتُ إلا تكثيرَ البحثِ وتشحيذَ الخاطرِ، والاعتمادُ في الكُلِّ على اللهِ تعالى)[١].

٢- التَّدرُّجُ المنهجيُّ:

فيبدأُ بالسَّهلِ منها نحوَ الصَّعبِ، ويترقَّى من الإجمالِ إلى التفصيلِ، ومن التَّصوُّرِ إلى التَّصديقِ؛ فإنْ فعَل أُعِينَ على فهمِها.

٣- التَّلقِّي على المعلِّمِ:

فبه تُفتَحُ مغاليقُ أبوابِ الفهمِ، ويستنيرُ عقلُ الطالبِ، ويتَّسعُ أُفقُه، ويحصلُ له

(١) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ص ٤٦٨.

الفهمُ الصحيحُ لكلامِ العلماءِ.

ثانيَ عشرَ: وهنُ المُقارَنةِ

الهمَّةُ التي يُنادَى بها طالبُ العلمِ همَّةٌ تنأى به عن البطالةِ، وتعينُه على شدائدِ التحصيلِ؛ فهي همةٌ نوعيةٌ لا كهمَّةِ الكُسالى من أبناءِ العصرِ، تسمو به إلى القرونِ الأولى من أهلِ العلمِ.

لكنَّ الناظرَ في الواقعِ يجدُ ما يُكبِّلُ تلك الهمَّةَ يظنُّها البعضُ رافعةً للهمَّةِ، بينَما هي مُثبِّطةٌ نازلةٌ بها! فغَلَبةُ الجهلِ، والقعودُ عن إدراكِ المعالي كبَّل كثيرين عن سلوكِ طريقِ الفضائلِ والتفرُّدِ في نَيلِها.

وهنا أحكي ما وقَع لي في ذلك؛ إذْ كان أوَّلُ أمري الإغراقَ في تتبُّعِ سِيَرِ المعاصرين وأفرادِ الجيلِ، ونوادرِ ما يُحكَى من أحوالِهم؛ فاطَّلعتُ على أنَّ هذا العالمَ يقومُ الليلَ بكذا، وذاكَ يقرأُ عدَّةَ ساعاتٍ، وثالثٌ اعتزَل الوظيفةَ للتفرُّغِ للعلمِ، ورابعٌ يُصلِّي ركعاتٍ كثيرةً...

فلمَّا فتَح اللهُ عيني على كتبِ التراجمِ؛ إذا بي أُشفِقُ على نفسي وعلى أبناءِ هذا الجيلِ، وكيف لهم أن يُولَعوا بسِيَرِ المُتأخِّرين وعندَهم شموسُ الضُّحى وكواكبُ الجوزاءِ؟!

فقرأتُ مثلًا أنَّ عبدَ الغنيِّ المقدسيَّ رحمه اللهُ، صاحبَ «عمدةِ الأحكامِ» كان يُصلِّي بعدَ دخولِ وقتِ الضُّحى ثلاثَمائةِ ركعةٍ إلى قريبٍ من وقتِ النَّهيِ!

وهذا هنَّادُ بنُ السَّريِّ رحمه اللهُ، صاحبُ كتابِ «الزُّهدِ»، حُكِي عنه أنَّه فرَغ

يومًا من القراءةِ لطُلَّابِه، فتوضَّأ، وجاء إلى المسجدِ، فصلَّى إلى الزَّوالِ في المسجدِ، ثُمَّ رجَع إلى منزلِه فتوضَّأ، وجاء فصلَّى الظُّهرَ، ثُمَّ قام على رجليه يُصلِّي إلى العصرِ، يرفعُ صوتَه بالقرآنِ، ويبكي كثيرًا، ثُمَّ إنَّه صلَّى العصرَ، وأخذ يقرأُ في المصحفِ، حتى صلَّى المغربَ. ويُقالُ: هذا دأْبُه منذُ سبعينَ سنةً... وغيرُ ذلك كثيرٌ جدًّا.

فليس من أدبيَّاتِ الهمَّةِ هنا الإغراقُ في (المُقارَنةِ) و (الحثِّ) على تتبُّعِ سيرةِ أبناءِ هذا الجيلِ، حتى وإن رُوعِيتْ نوعيَّتُها وتميُّزُها؛ فالهمَّةُ شيءٌ، والتكبيلُ بأبناءِ العصرِ شيءٌ آخرُ. فهمَّةُ أبناءِ الجيلِ فاترةٌ قاصرةٌ في كثيرٍ من أحوالِها إذا ما قُورنتْ بهممِ السَّلف.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: (وما زالت الهمم تتقاصر، وآل الأمر إلى خلفٍ هم بئس الخلف، فمات العلم)[1]. فقايس نفسه على أبناء جيله إذا أمعن النَّظر فيهم وجد قرنه قد بزَّ، فظنَّ نفسه قد حصَّل وجمع وتمكَّن، وما هو إلَّا مجموع الأصفار إذا ما قورن بتحصيل السَّلَف والرَّاسخين.

وقد اقترب من هذا المعنى جدًّا الشيخ محمد الخضر حسين إذ يقول:

(لم يقضِ حقَّ العلمِ، بل لم يدرِ ما شرفُ العلمِ، ذلك الذي يطلبُه لينالَ به رزقًا، أو ينافسَ فيه قرينًا، حتى إذا أدركَ وظيفةً، أو أَنِسَ من نفسِه الفوزَ على القرينِ، أمسكَ عنانَه ثانيًا، وتنحَّى عن الطلبِ جانبًا)[2].

فما أن يعتريَ الطالبَ «وهنُ المُقارَنةِ» بجيلِه، حتى يَحارَ في المتاهاتِ، ويُكبِّلَه ضعفُ المُقارَنِ عن بلوغِ الغايةِ في الرُّسوخِ، فإذا الضَّعفُ والرَّكاكةُ قد حلَّا بقلبِ الطالبِ، لينزلَ من رتبةِ الإخلاصِ والهمَّةِ إلى الاغترارِ بما حباه اللهُ من علمٍ، ويسقطَ

(1) «تعظيم الفتيا» ص١٠٧.
(2) «موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين» ٥/ ١/ ١٦١.

في دركِ المُراءاةِ والتَّسميعِ.

لذا فإنَّ من أعظمِ الخطرِ الولَعَ بتراجِمِ المعاصرين، والنَّأيَ عن إنعامِ النَّظرِ وإقرارِ العينِ بحياةِ الأوائلِ من سلفِ هذه الأُمَّةِ، ممَّن حباهم اللهُ التجرُّدَ والصِّدقَ والهِمَّةَ العليَّةَ، التي كان وقودُها محبَّةَ اللهِ، وعزَّةَ هذا الدِّينِ لا عزَّ الأنفسِ، ونصرةَ الحقِّ لا نصرةَ أنفسِهم.

وإذا كان «الإبداعُ» منوطًا بـ«الاتِّباعِ»، وسلامةُ البناءِ مبنيَّةً على عمقِ الأساسِ = فلا بدَّ إذَنْ من نظرةٍ مُتأنِّيةٍ في الأسوةِ والقدوةِ، ومُعايَرةِ الأسهمِ حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ على معيارِ السلفِ في عملِهم وتنسُّكِهم؛ فلهم في محرابِ التعبُّدِ أنَّاتٌ وابتهالٌ، وفي ظلامِ اللَّيلِ إقبالٌ، ولهم في العبادةِ دروبٌ، كما أنَّ لهم في العلومِ مسالكَ وطرقًا، ومُحالٌ أن يُنالَ إبداعٌ في العلومِ غيرُ قائمٍ على اتِّباعِ الأوائلِ في جادَّتِهم، فتعيَّنت الاستفادةُ ممَّا كُتِب في سِيَرِ أعلامِ هذه الأُمَّةِ، لا توهينُ العزائمِ وتكبيلُها بأبناءِ هذا الجيلِ!

نعم، قد يُوجَدُ هذا الوصفُ في آحادِ المُتأخِّرينَ، إلا أنَّ الكثرةَ الكاثرةَ على خلافِ ذلك، حتى مَن تميَّزَ منهم لم يَسلَمْ من التأثُّرِ بصبغةِ الواقعِ سلبًا، ومَن تأمَّل ذلك عَلِم.

وإذا كان من المُقرَّرِ أنَّ أغلبَ الناسِ مُولعونَ بأبناءِ عصرِهم ومصرِهم، حتى كان ذلك جِبِلَّةً في الخلقِ؛ إذْ قد رُكِّب فيهم تقليدُ بعضِهم بعضًا وتأسِّي بعضِهم ببعضٍ = فكان مِن نُصحِ الطالبِ أن يُروَى فضولُه بنماذجَ حيَّةٍ من عبقِ الماضي، يستنشقُ عبَرَها عبيرَ أنفاسِ السلفِ، وحينئذٍ فلا بدَّ له من اتِّخاذِ قدواتٍ يرى جهادَهم في الطلبِ، ثم جهادَهم في العملِ والتعليمِ؛ فتُثارُ لديه مكامنُ الاقتداءِ.

فكلامُهم أقربُ إلى الحكمةِ، وعندَهم من إدراكِ العلومِ ما ليس لعصرِنا، ولهم من حُسنِ التعبيرِ ما لم يصلْ إليه المعاصرون، وإذا أرَدْنا أن نستثنيَ شيئًا من ذلك؛

فليكنْ شيئًا قليلًا مُعِينًا على التأسِّـي والهمةِ، ممَّن ذاعت أخبارُهم من العلماءِ الذين شُهِد لهم بالاتِّباعِ والتمكُّنِ والنَّهمِ في الطَّلبِ؛ ذلك أنَّ تأثُّرَ الطُّلابِ في الجملةِ خاصَّةً مَن هم في أولِ الطلبِ بمَن يشاهدونه ويتعلمون منه، وحينئذٍ يُفتَحُ لهم بابٌ يسيرٌ من الاطِّلاعِ على سِـيَرِهم؛ إذْ إنَّ تأثُّرَهم بالأحوالِ والأعمـالِ أبلغُ من الاقتداءِ بالأقوالِ المُجرَّدةِ المرويَّةِ، ثُمَّ يُرقَّى بهم في الاطِّلاعِ على سيرِ القومِ وكيف كانت أحوالُهم.

وَمضةٌ:

يقولُ ابنُ الجوزيِّ رحمه اللهُ: وأعوذُ باللهِ من سِـيَرِ هؤلاء الذين نعاشـرُهم! لا نرى فيهم ذا همَّةٍ عاليةٍ فيقتديَ بها المبتدي، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدَ منه الزاهدُ.

فاللهَ اللهَ، وعليكم بمُلاحَظةِ سِـيَرِ السـلفِ، ومُطالَعةِ تصانيفِهم وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مُطالَعةِ كتبِهم رؤيةٌ لهم، كما قال:

فاتَنِي أن أرى الدِّيارَ بطَرْفي ... فلعلِّي أرى الدِّيارَ بسَمْعي[1]

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص٤٤٨-٤٤٩.

ثالثَ عشرَ: منهجيّةُ التّذوُّقِ

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾، فلا بدَّ من التلقِّي على العالِمِ لبلوغِ العلمِ، فيلزمُ مَن شهد له العلماءُ بالتمكُّنِ، وليس شأنُ العلمِ بأن يلتحقَ الطالبُ بمعلِّمٍ يقرأُ عليه زمنًا يسيرًا يقتبسُ منه معلوماتٍ، ويُحصِّلُ عليه بضعَ مسائلَ؛ إثباتًا للِّقاءِ والتلمذةِ! فليس هذا بمُلازِمٍ له على الحقيقةِ، بل هو الطالبُ الذَّوَّاقُ يتذوقُ الأساليبَ ويستنكِهُ المجالسَ! فهو وإن نال عدَّةَ مسائلَ أو أبوابٍ من العلمِ؛ فأين هو والاستفادةُ من سمتِه وهديِه ومهارتِه؟!

فالقاعدةُ العامَّةُ، والحكمُ الأغلبُ: أنَّ كلَّ مَن تخرَّج على شيخٍ؛ لا بدَّ أنَّه قد اقتبَس شعبةً من هديِه وسمتِه وأخلاقِه، فضلًا عن علمِه، والمتذوِّقُ يفوتُه الكثيرُ من هذا.

ومن آفاتِ التذوُّقِ: تسرُّبُ الأغلاطِ والأفهامِ الخاطئةِ، خاصَّةً في مُشكِلِ المسائلِ. وهذا مردُّه إمَّا إلى قصورٍ في الملازمةِ لأهلِ الرسوخِ، أو ملازمةِ غيرِ الراسخين ممَّن لم يتأهلوا على العلماءِ.

فملازمةُ العالِمِ لا تكونُ يومًا واحدًا في أسابيعَ مُتباعِدةٍ من عامٍ واحدٍ، بل يختلطُ به كثيرًا، ويسمعُه، ويتفاعلُ معَه بحثًا ونقاشًا، حتى يستوعبَ معالمَ فقهِه، فيصلَ الطالبُ لدرجةِ التنبُّؤِ بجوابِ الشيخِ وشرحِه قبلَ نُطقِه، وهذا قد يُسمَّى: (الإلمامَ بطريقتِه).

يقولُ فخـرُ الدِّينِ الرَّازيُّ رحمه اللهُ: (أمرُ التعلُّمِ لا يتأتّى في جلسـةٍ واحدةٍ، ولا يتـمُّ في الخُفيةِ، بل التعلُّمُ إنَّما يتمُّ إذا اختلَف المتعلِّمُ إلى المعلِّمِ أزمنةً متطاولةً، ومُدَدًا مُتباعِدةً)[1].

وعن أهميةِ الملازمةِ، والحرصِ على اتِّصالِ المسـائلِ، فقد ذكَر ابنُ خَلدُونَ، وتابَعَه ابـنُ الأزرقِ، والقَنُّوجـيُّ -رحمهم اللهُ- ناصحينَ للمعلِّـمِ: (ينبغي لكَ أن لا تُطـوِّلَ على المتعلِّمَ في الفنِّ الواحدِ بتفريقِ المجالسِ وتقطيعِ ما بينَها؛ لأنه ذريعةٌ إلى النِّسيانِ، وانقطاعِ مسائلِ الفنِّ بعضِها من بعضٍ؛ فيعسرُ حصولُ الملكةِ بتفريقِها. وإذا كانت أوائلُ العلمِ وأواخرُه حاضرةً عندَ الفكرةِ، مُجانِبةً للنِّسيانِ = كانت الملكةُ أيسرَ حصولًا، وأحكمَ ارتباطًا، وأقربَ صبغةً؛ لأنَّ الملكاتِ إنَّما تحصلُ بتتابعِ الفعلِ وتكرارِه، وإذا تُنُوسِـي الفعلُ تُنُوسِيتِ الملكةُ الناشئةُ عنه، واللهُ علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون)[2].

وبعدَ أن تيسَّـرت سـبلُ الاتصالِ، يسـتطيعُ أن يحصلَ على أشرطةِ وشروحِ العلماءِ عبرَ شبكةِ المعلوماتِ (الإنترنت)، بل ويتفاعلَ معَه -عبرَ البثِّ المباشرِ مثلًا- وإنْ نأتِ الدِّيارُ.

فالحديثُ -إذَنْ- عن ملازمةِ المعلِّمِ لا تذوُّقِه، والمكوثِ معَه لا إثباتِ اللِّقاءِ والمعاصرةِ التـي يتحدثُ عنها المُحدِّثون في التراجمِ والرِّواياتِ. ففرقٌ بينَ مَن جاء مُثبِتًـا اللِّقاءَ والحضورَ، وبينَ من جاء توصُّلًا إلى نيلِ مـا علَّمه اللهُ إيَّاه. وحريٌّ بمَن صدَق فـي ذلك، وأتى ليتحملَ عن المعلِّمِ ما اختصَّه اللـهُ من فهمٍ وأدبٍ وعلمٍ: أن يُهدَى، ويُورِثَه اللهُ الفهمَ والأدبَ المنشودَ، والعلمَ النافعَ.

(1) «مفاتيح الغيب» ٢٠/ ٢٧٢.

(2) انظر: «المقدمة» ٢/ ٣٤٨، و«بدائع السلك» لابن الأزرق ٢/ ٧٦٣-٧٦٤، و«أبجد العلوم» ص٧٣.

تنبيهٌ:

أمَـا وإذْ تمَّ التنبيهُ على الحذرِ من منهجيةِ التــذوُّقِ، وعدمِ المُكثِ معَ المعلِّمِ لإحـكام العلمِ والإفادةِ = فلا بدَّ من التنبيهِ على مســألةٍ هامَّةٍ، وهــي: تغييرُ المعلِّمِ، والدِّراسةُ على شيخٍ آخرَ، إذا تمَّ المقصودُ أو قلَّت الإفادةُ منه.

وهــذا أمرٌ مِن أهمِّ الأمورِ التــي يجبُ التنبُّهُ لها في مــدارجِ العلمِ؛ فأيُّ فائدةٍ تُرتجَى من إكمالِ العلمِ على مَن ظهَر قصورُه، معَ توفُّرِ البدائلِ عنه؟!

فكما أنَّ منهجيةَ التذوُّقِ وعدمِ المكثِ مظنَّةُ أغلاطٍ؛ فكذلك لزومُ شيخٍ واحدٍ وطريقةٍ واحــدةٍ في العلمِ مظنَّةُ أغلاطٍ كبــارٍ، يعرفُ هذا جيِّدًا مَــن نوَّع المدارسَ، والمشايخَ، والكتبَ.

ذكر شــيخُ الإسلامِ -رحمه اللهُ- مسألةً فقهيةً، ثُمَّ أورَد بعدَها تذييلًا لها يرشدُ المُطَّلِعَ على المقصودِ، ويُرقِّي فهمَه لمعرفةِ سِرِّ الفقهِ في الدِّينِ، فقال: (مَن لم يعرفْ إلا قولَ عالمٍ واحدٍ وحُجَّتَه، دونَ قولِ العالمِ الآخَرِ وحُجَّتِه؛ فإنَّه مِن العوامِّ المُقلِّدينَ، لا مِن العلماءِ الذين يُرجِّحون ويُزيِّفون، واللهُ تعالى يهدينا وإخوانَنا لِما يحبُّه ويرضاه، وباللهِ التَّوفيقُ)[1].

ومعنى «يُزيِّفون»: يُظهِرون فسادَ الأقوالِ والمذاهبِ الخاطئةِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٣٥/ ٢٣٣.

رابعَ عشَرَ: الغرورُ العلميُّ[1]

سُكنَى بَيْداءِ الوهمِ، وحُلمُ التحليقِ قصَما ظهورَ المُبدِعينَ من طلابِ العلمِ! ما إن يَنظِمَ عبارةً مُستحسَنةً حتى يتسربَ إليه غرورٌ علميٌّ.

يبدأُ الغرورُ نواةً ضعيفةً تتخفى، حتى إذا وجَدتْ غذائها من ثناءٍ وأتباعٍ فإذا بها تنمو وتستشري وتتسربُ في مكامنِ النَّفسِ ودواخلِها، وتتحكمُ في الداخلِ والخارجِ من أقوالٍ وأعمالٍ وألحاظِ العيونِ!

وانظرْ لهذ النَّصِّ الذي يشفي عِيَّ النفوسِ، مِن جميلِ مقولِ الإمامِ الشافعيِّ رحمه اللهُ: (اعلَمُوا أنَّ العلمَ والحصافةَ لا تُبطِرُه المنزلةُ الرفيعةُ، ولا تُعجِبُه نفسُه بالعزِّ الكاملِ؛ كالجبلِ لا يتزعزعُ، وإنِ اشتَدَّتْ به الرِّياحُ العواصفُ. والخفيفُ السَّخيفُ مِن الناسِ تُبطِرُه أدنى منزلةٍ يصيرُ إليها، وأيسرُ ولايةٍ ينالُها؛ فهو مثلُ الحشيشِ تُحرِّكُه أضعفُ الرِّياحِ)[2].

ومَن تأمَّلَ حالَ كثيرٍ من مُتفقِّهي زمانِنا، ممَّن جمَع كتابًا واثنينِ في فنٍّ من الفنونِ، أو أُثني عليه = فلا يلبثُ إلا أن تراه لابسًا ثوبَ التحقيقِ العلميِّ، مُلتحِفًا بثوبِ لبس ثوبَه، يُزعَمُ فيه أنَّه فقيهُ البلدةِ وعالِمُها، وتراه لا يُحسِنُ أن يُفرِّقَ بينَ مصطلحاتِ العلمِ المختلِفةِ!

---

(١) للاستزادة حول الغرور وحقيقته، وأثره، والعلاج منه: ينظر كِتابي: «الغرور العلمي وأثره في العقل العلمي وأبجديات الطلب»، طبع مؤخرًا.

(٢) «الأخبار والفوائد» لابن حمكان الهمَذاني ص١٤٠، رقم (٣٠).

تَغُرُّه الأقاويلُ، ويُخدَعُ بالتهويلِ، ولا يُحسِنُ تصوُّرَ المسائلِ، أو يتصورُها على غيرِ وجهِها! فمَثَلُ سَيْرِه في العلمِ كطائرٍ بجناحٍ مُستعارٍ، فهو واقعٌ لا محالةَ، ولا يدري أهو واقعٌ على أرضٍ سَبِخةٍ أم في نهرٍ.

فتـرى تقريراتٍ عِجابًا، وأحكامًا غِلاظًا شـدادًا، وأدهـى ذلك وأمرُّه دعوى الملكةِ العلميةِ والبصيرةِ بما لم يَنَلْ!!

وتأمَّلْ عبارةَ أبي القاسـمِ الآمِـديِّ (ت ٣٧٠) رحمه اللـهُ، إذْ يقولُ: (لعلَّكَ -أكرَمـكَ اللهُ- اغتَرَرتَ بأنْ شـارَفتَ شـيئًا من تقسـيماتِ المنطـقِ، وجُمَلًا من الكلامِ والجدالِ، أو علمتَ أبوابًا من الحـلالِ والحرامِ، أو حفظتَ صدرًا من اللُّغةِ، أو اطَّلعـتَ على بعضِ مقاييسِ العربيةِ، وأنَّكَ لمَّا أخذتَ بطرَفِ نوعٍ من هذه الأنواعِ مُعاناةً ومُزاوَلةً ومُتَّصِلَ عنايةٍ، فتوحَّدتَ فيه وميَّزتَ - ظننتَ أنَّ كلَّ ما لم تُلابِسْـه من العلومِ ولم تُزاوِلْه يجري ذلك المجـرى، وأنَّكَ متى تعرَّضتَ له، وأمرَرتَ قريحتَكَ عليه نفَذتَ فيه، وكشَفتَ عن معانيه.

هيهاتَ! لقد ظننتَ باطلًا، ورُمتَ عسـيرًا؛ لأنَّ العلمَ -أيَّ نوعٍ كان- لا يُدرِكُه طالبُـه إلا بالانقطاعِ إليه، والإكبابِ عليه، والجدِّ فيه، والحرصِ على معرفةِ أسـرارِه وغوامضِـه، ثُمَّ قد يتأتَّى جنسٌ من العلومِ لطالبِه وَيَسْـهُلُ، ويمتنـعُ عليه جنسٌ آخرُ ويَتعذَّرُ؛ لأنَّ كلَّ امرئٍ إنَّما يتيسرُ له ما في طبعِه قبولُه، وما في طاقتِه تعلُّمُه.

فينبغـي -أصلَحكَ اللـهُ- أن تقفَ حيثُ وُقِـفَ بكَ، وتقنعَ بما قُسِـمَ لكَ، ولا تتعدَّى إلى ما ليس من شأنِكَ ولا مِن صناعتِكَ)[1].

---

(١) «الموازنة بين أبي تمام والبحتري» لأبي القاسم الآمِدي، ص ١٧٠-١٧١.

المهاراتُ الذِّهنيَّةُ لطالبِ العلمِ

(العلومُ ما دُوِّنَتْ إلَّا لترقيةِ الأفكارِ، وصقلِ مرائي العقولِ، وبمقدارِ ما يفيدُه العلمُ من ذلك ينبغي أن يُزادَ في اعتبارِه، فما القصدُ من كلِّ علمٍ إلا إيجادَ الملكةِ)

[الطَّاهرُ ابنُ عاشورٍ رحمه اللهُ]

يرتكزُ تكوينُ الذِّهنيَّةِ العلميَّةِ لطالبِ العلمِ على جهدٍ خاصٍّ له، ودَورٍ للمعلِّمِ. وفي أولِ مدارجِ التعلمِ يَتمحَّضُ الدَّورُ للمعلِّمِ، ثم يكونُ الجهدُ خالصًا للطالبِ؛ لينتهضَ لصقلِ شخصيتِه العلميةِ، وينحتَها بنفسِها، وكذلك الحالُ في تفنُّنِه وتخصُّصِه في العلمِ.

دندن المُربُّون والمُختصُّون أنَّ دورَ المعلِّمِ في التعليمِ يبلغُ (٢٠٪)، وأنَّ الجهدَ الخاصَّ بالطالبِ يصلُ إلى (٨٠٪)، ومعَ ذلك فمرحلةُ الدِّراسةِ على المعلِّمِ مِن أولى المهماتِ في فتقِ الذِّهنيةِ العلميةِ وتعبيدِ الطريقِ إليها، ومعَه، وبه تنقدحُ شرارةُ العقلِ، ويتدرجُ في صناعةِ التفكيرِ والاستنباطِ والبحثِ العلميِّ وغيرِها من المهاراتِ.

وليس المرادُ بدَورِ المعلِّمِ هنا ما كان مُقتصِرًا على التلقينِ المُجرَّدِ، فذلك لا يعدو أن يكونَ استنساخًا لمادَّةٍ مُسطَّرةٍ في كتابٍ أو عقلِ أستاذٍ، وإن كان مفيدًا في بعضِ المراحلِ الأوَّليَّةِ؛ إذِ الارتقاءُ بذهنيَّةِ الطالبِ هو الأصلُ والمُعوَّلُ، فهي مناطُ الفِكرِ، وعلَّةُ الإدراكِ، وهي وقودُ الدارسِ أينما حلَّ وارتحل، وهي عمادُ صفةِ المُفتي والمجتهِدِ؛ فقد عدَّ ابنُ الصَّلاحِ -رحمه اللهُ- من شروطِ المفتي كونَه: (سليمَ الذِّهنِ، رصينَ الفكرِ، صحيحَ التصرُّفِ والاستنباطِ، مُتيقِّظًا)[1].

ويقولُ ابنُ عاشورٍ رحمه اللهُ: (العلومُ ما دُوِّنتْ إلا لترقيةِ الأفكارِ، وصقلِ

---

(١) «أدب المفتي والمستفتي» ص٨٦.

مراتب العقولِ، وبمقدارِ ما يفيدُه العلمُ من ذلك ينبغي أن يُزادَ في اعتبارِه، فما القصدُ من كلِّ علمٍ إلا إيجادَ الملكةِ التي استُخدِم لإصلاحِها)[1].

والمنهجيةُ التي نسلكُها هنا: التركيزُ على المهارةِ، والإفاضةُ حيثُ تُرتجَى الفائدةُ للمُطَّلِعِ من طلابِ العلمِ.

(١) «أليس الصبح بقريب؟» ص١٥٣.

مراحلُ صياغةِ الذِّهنيّةِ العلميّةِ

قبلَ الخوضِ في المهاراتِ الذِّهنيةِ المختلِفةِ، لا بدَّ من التنبيهِ على وظيفةٍ لكلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التعلُّمِ، تعينُ معرفتُها على الاستفادةِ من هذه المهاراتِ المختلِفةِ.

المرحلةُ الأولى: إنماءُ الاستعداداتِ والميولِ في مرحلةِ «التأصيلِ العلميِّ»:

الحديثُ عن المنهجياتِ التأسيسيةِ لطالبِ التأصيلِ العلميِّ حديثٌ عن مدارجَ تَتفرَّعُ بسالكِها، وسبلٍ تَتشعَّبُ بمُجتازِها، فكان لا بدَّ من النظرِ الجادِّ على أيِّ الأراضي يسلكُها المُجتازُ، وعلى أيِّ أرضٍ يُنيخُ الرَّحلَ؛ فالعلمُ دروبٌ وفنونٌ، قد تُلائِمُ بعضَ الطِّباعِ، وقد يُصَدُّ عنها آخرون، فكانت الإشارةُ بـ «احترامِ الاستعداداتِ والميولِ».

لذا فإنَّ (من أدب التعليم أن يعلِّم التلميذ من أنواع العلوم ما يراه مائلاً إليه من العلوم المباحة، فإنَّه أجدر أن يسرع إلى تفهمه والقيام به)[1].

وما من مُتعلِّمٍ إلا وتبدو ميولُه واستعداداتُه في أوَّلِ مجالسِ الطلبِ، يستشرفُ منها المعلِّمُ مَطلِعَ شمسِه، حتى إذا أنهى هذه المرحلةَ التأصيليةَ يكونُ قد أحسَّ الطالبُ من نفسِه، ودلَّه مُعلِّمُه على مجالِ الإبداعِ في ذهنيَّتِه وشخصيَّتِه العلميةِ؛

(1) نقله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، ١٣/ ٤١، (ط.٣ السلفية)، عن ابن أبي جمرة - رحم الله الجميع.

ليعتنيَ بها ويرقى في بحرِ العلومِ التي تُوافِقُ ذهنَه و (تركيبةَ عقلِه).

ففيها تبدو ملامحُ عقليَّاتٍ شتَّى: العقليةُ الناقدةُ، والعقليةُ التلقينيةُ الحافظةُ، والعقليةُ التحليليةُ، والعقليةُ الاستنباطيةُ، وغيرُها.

فإذا درَج المتعلِّمُ فيما يُحسِنُ، بعدَ خوضِه مرحلةَ التأصيلِ العلميِّ؛ كان عليه التماسُ التقويمِ والإعانةُ بالخبرةِ والنُّصحِ، وبذلك تعلو نفسيَّةُ الطالبِ، ويُقبِلُ بحُبٍّ ونَهَمٍ على الرُّقِيِّ، ويكونُ سَيْرُه مأمونًا؛ حيثُ إنَّه قد ولَج فيما يوائمُ طبعَه.

وأسعد الطلاب من وفق للولوج فيما يتواءم مع طبعه وعقله، فقد ذكر أحمد بابا التنبكتي حال الشريف أبي عبد الله التلمساني مع طلابه فقال: (يترك كل أحد وما يميل إليه من العلوم، ويرى الكل من أبواب العادة، ويقول: من رزق في باب فليلازمه)[1].

المرحلةُ الثانيةُ: النِّقاشُ العلميُّ، واستثمارُ مادَّةِ العلمِ في مرحلتَي: «استكمالِ التَّكوينِ»، و «البحثِ العلميِّ»:

تَحمُّلُ العلمِ شيءٌ هامٌّ وركيزٌ، لكنَّ الأهمَّ حسنُ استثمارِه، وتطبيقُه واستعمالُ مادَّتِه في المسائلِ والنَّوازلِ.

وهنا يأتي دَورُ المُذاكَرةِ العلميةِ، وجلساتُ النِّقاشِ في الفنِّ، ويُستعانُ في ذلك بالمعلِّمِ والسابقين في الطلبِ والأقرانِ.

ومِن جميلِ ما كان يسلكُه بعضُ أهلِ العلمِ في مجالسِهم: أنَّه كان يُورِدُ إشكالًا في مسألةٍ ما، ويطلبُ من الطالبِ أن ينصرَها ويستدلَّ لها، ويَتناقَشانِ في ذلك، ثمَّ يطلبُ منه أيضًا أن يقومَ بدَورِ المُخالِفِ فيها وينصرَ رأيَه، ويتعقَّبَ تعقُّبًا

---

(1) «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، ص٤٣٥.

علميًّا، ويُورِدَ بأحسنِ عبارةٍ ما يراه، مُستعمِلًا مادَّةَ العلمِ والأصولَ والقواعدَ وعلومَ الآلةِ التي أتقَنَها.

وهـذا التمرين والمراس مفيدٌ فـي تدريب الطلاب على اسـتعمال القواعد وتطبيقها، والابتعاد عن تجميد مسائل العلم وعدم الإفادة منها.

قد نلمـسُ هذا المعنى الذي ندندنُ حولَه في عبارةِ محمدِ بنِ الحسـنِ رحمه اللهُ، إذ سُئل: كيف يكونُ من أهلِ الاجتهادِ؟ فقال: (أن يعرفَ وجوهَ المسائلِ، ويُناظِرَ أقرانَه إذا خالَفوه)[1].

والنِّقاشُ المعنيُّ هنا: ما كان منوطًا به صناعةُ الذِّهنيَّةِ وإثراؤُها، وليست قضيةً يُـرادُ منها الوصولُ إلى أحدِ جنبتَيِ الرأيِ. فإذا اسـتقرَّ هذا المعنى؛ كان على المعلِّمِ ألَّا يُسـرِعَ إلى التخطئةِ والصَّدِّ، بـل يفتحَ المجالَ لإعمالِ الفِكرِ وإثـارةِ الذِّهنِ، ثمَّ يتولَّى توجيهَه وإرشادَه، وإعطاءَه معنى الثباتِ على الطلبِ، وتقويةَ قلبِه في استعمالِ الأصولِ وعلومِ الآلةِ التي حصَّلها في العلومِ المختلِفةِ؛ فبهذا التشجيعِ والتثبيتِ ينتفعُ الطالبُ، ويتوقَّدُ ذهنُه.

قال عمرُ بنُ عبد العزيزِ رحمه اللهُ: (رأيتُ مُلاحاةَ الرِّجالِ تلقيحًا لألبابِهم).

وقال أيضًا: (ما رأيتُ أحدًا لاحَى الرِّجالَ إلا أخذ بجوامعِ الكَلِمِ).

وقال يحيى بنُ مُزَينٍ رحمه اللهُ: (يريدُ بالمُلاحاةِ ههنا: المُخاوَضةَ، والمُراجَعةَ على وجهِ التعليمِ والتفهُّمِ، والمُذاكَرةَ، والمُدارَسةَ، واللهُ أعلمُ)[2].

يقولُ أبو محمدٍ ابنُ حزمٍ رحمه اللهُ: (ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهلِ الجهلِ منفعةً

(1) انظر: «الإنصاف» للدِّهلوي، ص ١٠٦.
(2) «جامع بيان العلم وفضله» ٢/ ٩٧٢-٩٧٣.

عظيمةً؛ وهي أنَّه توقَّد طبعي، واحتدَم خاطِري، وحَمِيَ فكري، وتهيَّج نشاطي؛ لكان ذلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمةِ المنفعةِ. ولولا استِثارتُهم ساكني، واقتداحُهم كامِني؛ ما انبَعَثتُ لتلك التَّواليفِ)[1].

وهو هنا يقصدُ جدالَه ونقاشـاتِه معَ فقهاءِ المالكيـةِ، ونعتُهم بـ(أهلِ الجهلِ) تجوُّزٌ منه في العبارةِ، وشدَّةُ وقعِها على المُخالِفِ معلومةٌ.

والشـاهدُ من كلامِه: أنَّ إثارةَ الأفـكارِ، وبعثَها بالنِّقاشِ يكـونُ بابًا إلى توقُّدِ الذِّهنِ بالفكرِ في مسائلِ العلمِ، وتولُّدِ أفكارٍ مفيدةٍ للطالبِ.

وممَّا رأيتُه في محرابِ التعلُّمِ من الأساليبِ غيرِ المحمودةِ: أن يسألَ المعلِّمُ الطُّلابَ عن إشـكالٍ، فيُجِيبُ الطالبُ مُخالِفًا طريقةَ إجابـةِ مُعلِّمِه، أو مُخالِفًا لِما أرادَه، فيُسـرِعُ المعلِّمُ إلى تخطئتِه؛ لتغايرِ الأسلوبِ والعبارةِ، ورُبَّما يكونُ الطالبُ مُحِقًّا!

قـد يُعذَرُ المعلِّمُ على ذلك، أو يكونُ الحاملُ له علـى هذا جِبِلَّةً أو توجُّهًا له، لكنْ يبقى أنَّ هذا الأسـلوبَ لا يرقى لتكوينٍ أو إيقاظِ ذهنِ المتعلِّمِ، وتخريجِ طالبٍ نابِهٍ. لذا كان على المعلِّمِ أن يُعلِيَ مِن شأنِ الطالبِ، ويُكبِرَ فائدتَه؛ ليثبتَ قلبَه.

يقولُ التَّاجُ السُّبكيُّ عن والدِه التَّقيِّ السُّـبكيِّ -رحمةُ الله عليهما: (وإذا ذكَر الطالبُ بينَ يديه اليسيرَ من الفائدةِ؛ استَعظَمَها، وأوهَمه أنَّه لم يكنْ يعرفُها؛ لقد قال له مرَّةً بعضُ الطَّلبةِ بحضوري: حكى ابنُ الرِّفعةِ عن مُجلِّي وجهينِ في الطَّلاقِ في قولِ القائلِ بعدَ يمينِه: «إنْ شاء اللهُ تعالى»، هل هو رافعٌ لليمينِ، فكأنَّها لم تُوجَدْ، أو نقولُ: إنَّها انعقَدتْ على شرطٍ؟

فقلتُ أنا: هذا في «الرَّافعيِّ»، أيُّ حاجةٍ إلى نقلِه عن ابنِ الرِّفعةِ عن مُجلِّي؟!

(1) «الأخلاق والسير» ص١٢٨.

فقال لي الشَّيخُ الإمامُ: اسكُتْ، مِن أينَ لكَ؟! هاتِ النَّقلَ. وانزعَج.

فقمــتُ، وأحضرتُ الجزءَ من «الرَّافعيِّ»، وكان ذلــك الطالبُ قد قام، فواللهِ حينَ أقبلْتُ به قبلَ أن أتكلمَ؛ قال: الذي ذكرتَه في أوائلِ كتابِ الأيمانِ من «الرافعيِّ»، وأنا أعرفُ هذا، ولكنْ فقيهٌ مســكينٌ طالبُ علمٍ يريدُ أن يُظهِرَ لي أنَّه استحضر مسألةً غريبةً، تريدُ أنتَ أن تُخجِلَه، هذا ما هو مليحٌ»[1].

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» ١٠/ ٢١٩-٢٢٠.

المهاراتُ الذِّهنيَّةُ لطالبِ العلمِ

هناك العديدُ من المهاراتِ التي تفيدُ طالـبَ العلمِ، وتمَّ اختيارُ ما يُظَنُّ فيه أنَّه أبرزُها وأَمَسُّها بتكوينِ الذِّهنيةِ العلميةِ الناقدةِ.

أولًا: مهارةُ التقصِّي والاكتشافِ:

وهذه المرحلةُ نُقْلـةٌ نوعيَّةٌ؛ فإنَّ الطالبَ يتهيأُ عبرَهـا للجانبِ الذي ظهر فيه استعدادُه وميولُه، ومنها يخوضُ بحثًا في غمارِ الكتبِ.

وأسـعدُ الطَّلبةِ مَن أعانه مُعلِّمُه على «التَّقصِّي» و«البحثِ والتَّنقيبِ»، وأُعِينَ بالصَّبرِ، وأُمِدَّ بسَـعةِ الجلَدِ في التَّقصِّي؛ في محطَّةٍ فارقةٍ بينَ درجةِ التعليمِ بالتلقينِ، ودرجةِ التأهيلِ لرتبةِ العالِميَّةِ.

قد نعتبرُ هذا الأسـلوبَ بابًا من أبوابِ التحصيلِ عبـرَ البحثِ العلميِّ، فنعتبرُ حينَها عيـنَ البحثِ والكتابةِ تحصيلًا، وهو تحصيلٌ مُفضٍ إلى اتِّسـاعٍ في المداركِ، واستيعابٍ لمسـائلِ تاريخِ العلمِ ومُقدِّماتِه وكيفيةِ وصولِه، وفيها التعرُّفُ الجيِّدُ على مصادرِ الفنِّ ومظانِّه وأبرزِ ما حُرِّر فيه.

جاء أسلوبُ (التقصِّي) أو (الاسـتقصاء) في التعلُّمِ مُقابِلًا وتقويمًا لأسلوبِ (التلقينِ)، معَ أهميتِه في أوَّلِ العلمِ.

فهي إذَنْ: (عمليَّةٌ قائمةٌ على البحثِ والتَّقصِّي بتوجيهٍ مِن المُعلِّمِ).

عِمادُها: أسئلةٌ واستشكالاتٌ يُثيرُها المعلِّمُ، تكونُ أُطرًا للبحثِ.

قال الصَّفديُّ -رحمه اللهُ- في ترجمةِ شيخِه نجمِ الدِّينِ أبي محمدٍ ابنِ الشيخِ كمـالِ الدِّينِ القُرَشـيِّ القرطبيِّ الخطيـبِ رحمه اللـهُ: (وله قدرةٌ علـى التعليمِ، وفِراسـةٌ في وجهِ التلميذِ إذا أخذ قولَه بالتسليمِ، يعلمُ مِن الطالبِ إذا فَهِم، ولا يخفى عليه إذا بَهِم، فلا يزالُ يُغيِّرُ له الأمثلةَ، ويديرُ الأسـئلةَ إلى أن تتكشَّـفَ عنه الغيابةُ[1]، ويظهرَ له أنّه حصَل على العنايةِ)[2].

فبأمثلـةٍ وأسـئلةٍ، وبتوجيـهٍ وتقصٍّ وتحرٍّ تنشـأُ العقليـةُ العلميـةُ، البحثيةُ الاسـتقصائيةُ، المُعتمِدةُ على التحـرِّي والتحقيقِ للمعلومةِ وترتيبِها واسـتثمارِها، فيُحدِّدُ له المعلِّمُ مجالَ البحثِ، مُبرِزًا له إشكاليةَ المسألةِ، وما قد يلتبسُ عليه.

فأسلوبُ التعلُّمِ هنا يكونُ قائمًا على الاستفادةِ من المعلِّمِ، وتلقِّي التوجيهِ منه، ثم يأتي الجهدُ الشخصيُّ من بحثٍ، وترتيبٍ، وترجيحٍ، وإن لم يكنْ مطلوبًا الآنَ بقدرِ آليَّةِ البحثِ والاستكشافِ، والعرْضِ، وإعادةِ التنقيحِ.

الثمارُ المرجُوّةُ مِن هذه المهارةِ:

معَ هذه المهارةِ تنمو للطالبِ عدّةُ محاورَ، منها:

١- زوالُ رُهابِ الكتبِ المانعِ من الاستفادةِ منها.

٢- صقلُ شخصيَّتِه العلميَّةِ النَّقديَّةِ.

٣- تنميةُ الموضوعيَّةِ، والتَّجرُّدُ في تناولِ مسائلِ العلمِ، والبُعدُ عن التَّعصُّبِ.

(١) لعلها «الغيابة» (بالياء)، وبه يستقيم السـجع والمعنى، و«الغياية» كلُّ ما أظل الإنسان فوق رأسه، كالسحابة والغبرة ونحو ذلك. [محمد عزير شمس]

(٢) «أعيان العصر وأعوان النصر» ٢/ ٢٣٣. مع تصرف يسير.

٤- توسعةُ مداركِه.

٥- تنميةُ ملكةِ الكتابةِ والتَّعبيرِ.

السّلبياتُ التي قد تُصاحِبُ هذه المهارةَ:

١- تشتُّتُ الطالبِ:

فمـعَ فاعِليَّةِ وقدرةِ هذه المهارةِ العاليةِ على صياغةِ ذهنيةٍ علميةٍ بحثيةٍ، ونرقيةٍ في مدارجِ العلمِ، لكنْ لمَّا كان البحثُ قد يطولُ وتتشـعَّبُ اتجاهاتُه؛ فالتخوُّفُ قائمٌ، فتعيَّن أخذُ الحَيْطةِ، والتأكيدُ على أن يُسبَقَ بمرحلةِ تأصيلٍ تأسيسيةٍ، يتلوها استكمالُ تكوينٍ. فباجتيازِ مرحلةِ (الأرضيَّةِ الصُّلْبةِ) يكونُ في مأمنٍ، وإلا تاهَ في ثنايا المسـائلِ والفروعِ والمصطلحاتِ والفهارسِ.

٢- تَسرُّبُ الغرورِ إلى نفوسِ بعضِ الطُّلَّابِ:

فقد يغترُّ ببحثِ بعضِ المسائلِ، ويكونُ مدعاةً للانفلاتِ من المنهجِ (القِرائيِّ)، والتماسِ مجالسِ العلماءِ، ومراجعةِ المحفوظِ؛ فيُمسِي ويصبحُ بينَ المراجعِ يُنقِّرُ عن معلومةٍ لبحثِه، مُتفرِّغًا للتصنيفِ قبلَ التأهُّلِ والتأسيسِ.

فكان التركيزُ هنا على أنَّ القدرَ المسـموحَ به ما يُعِينُ على توسـيعِ المداركِ ويُحـرَصُ علـى ألّا ينهمكَ الطالبُ في ذلك ببحـوثٍ طويلةٍ، وإنَّما يُسـامَحُ بقدرِ ما يُعِينُ على الغرضِ.

٣- يَصعُبُ تحقُّقُ ذلك معَ طُلَّابٍ كثيرينَ، ويَندُرُ ذلك في المعلِّمينَ.

ثانيًا: مهارةُ التخريجِ والافتراضِ، وملكةُ «التوقُّعِ»:

فالتخريجُ، وافتراضُ الصُّوَرِ، وإعمالُ الذِّهنِ في تخيُّلِ المسائلِ - رياضةٌ ذهنيةٌ تُكسِبُ الطالبَ طرقَ التفكيرِ العلميِّ، والأُهْبةَ لنوازلِ الفنِّ، والمُكْنةَ لها، وقد تُعبَّرُ عن

ذلك بـ (ملكةِ «التوقُّع»).

وهذا بلا شـكٌّ يجبُ أن يكونَ قائمًا على وِزانٍ قِسْـطٍ بلا تجاوزٍ للمعقولاتِ الشرعيةِ، والمرادُ هنا تنميةُ ذهنيَّةِ طالبِ العلمِ.

وقـد ذكر أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -رحمه اللهُ- أنَّ الفقهاءَ رحمهم اللهُ (يقدِّرون مسائلَ يُعلَمُ أنَّها لا تقعُ؛ لتحريرِ القواعدِ، وتمرينِ الأذهانِ على ضبطِها)[1].

يقولُ الزَّنْجانيُّ رحمه اللهُ: (لا يخفى عليكَ أنَّ الفروعَ إنَّما تُبنَى على الأصولِ، وأنَّ مَن لا يفهمُ كيفيةَ الاسـتنباطِ، ولا يهتدي إلى وجـهِ الارتباطِ بينَ أحكامِ الفروعِ وأدلَّتِها التي هي أصولُ الفقهِ = لا يتَّسـعُ له المجالُ، ولا يمكنُه التفريعُ عليها بحالٍ؛ فإنَّ المسـائلَ الفرعيةَ -على اتِّسـاعِها، وبُعدِ غاياتِها- لها أصولٌ معلومةٌ، وأوضاعٌ منظومةٌ، ومَن لا يعرفُ أصولَها لم يُحِطْ بها علمًا)[2].

فإذا مـا تمَّت له هذه المراحـلُ برَوِيَّةٍ، وهدوءِ نفسٍ، وطـولِ بالٍ في البحثِ والصَّبرِ على المسائلِ؛ تهيَّأ لأمرٍ كبيرٍ، وزالتْ عنه الهيبةُ المانعةُ من البحثِ في الكتبِ والشُّـروحِ المُطوَّلةِ، وأحسَن اسـتعمالَ مادَّةِ العلمِ في فهمِ كلامِهم، وتَصوَّرَه جيِّدًا، وحسُن منه التصرُّفُ عندَ وقوعِ الحادثةِ.

وإذا تأمَّلْنا واقعَ كثيرٍ ممَّن طلَبَ العلمَ، وأمضَى فيه وقتًا طويلًا؛ نجدُه لا يستطيعُ تحريرَ مسألةٍ، وصياغتَها، ونقاشَها. وهذا قد يكونُ لعدَّةِ أمورٍ، منها:

١- قِلَّةُ المادَّةِ العلميةِ لديه [= ضعفُ التَّحصيلِ].

٢- ضعفُ اسـتعمالِ الآلةِ العلميةِ في تحقيقِ المسـائلِ؛ فالعلمُ قد يكونُ

---

(١) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية ٤/ ٤٢٦.

(٢) «تخريج الفروع على الأصول» ص٣٤، تحقيق: محمد أديب صالح.

موجودًا، لكنَّه مُفتقِرٌ إلى استعمالٍ وتطبيقٍ على آحادِ المسائلِ والنوازلِ.

٣- خنقُ الطالبِ مِن قِبَلِ مُعلِّمِه ومُتابِعِيه، وإغلاقُ طريقِ البحثِ والنِّقاشِ والتَّحاورِ معَ الطُّلابِ.

وكثيرًا ما نجدُ في الواقعِ طالبَ علمٍ قد مرَّ على العلومِ، ودرَس كتابًا وأكثر، وتصوَّر مسائلَها بشكلٍ جيِّدٍ، لكنْ إذا طُرِحتْ عليه مسألةٌ تجدُ فهمَه لا يتعدَّى هذه الكتبَ، ولا يستطيعُ أن يستعملَ ما درَسه في الرَّدِّ والتحريرِ، ولا أن يتعقَّبَ القولَ أو يفترضَ صُوَرًا جديدةً؛ فذِهنيَّتُه جامدةٌ لا تُنتِجُ!

أورَد تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ -رحمه اللهُ- شروطَ المجتهدِ، وذكَر منها: (أن يكونَ فقيهَ النَّفسِ)، فشرَح الزَّركشيُّ -رحمه اللهُ- ذلك، فقال: (أن تكونَ عندَه قُوَّةُ الفهمِ على التعرُّفِ بالجمعِ والتفريقِ، والترتيبِ، والتصحيحِ، والإفسادِ؛ فإنَّه مِلاكُ الصَّنعةِ. كذا قاله الأستاذُ أبو إسحاقَ. قال: ومَن كان موصوفًا بالبلادةِ وبالعجزِ عن التصرُّفِ؛ لم يكنْ مِن أهلِ الاجتهادِ. وما أحسَن قولَ الغزاليِّ: إذا لم يتكلمِ الفقيهُ في مسألةٍ لم يسمعْها ككلامِه في مسألةٍ يسمعُها = فليس بفقيهٍ)[1].

ومضةٌ:

قال أبو زيدٍ الدَّبُوسيُّ رحمه اللهُ: (لمَّا رأيتُ كلَّ هذا الشرفِ للعلمِ، ونورُه كامنٌ في قلوبِ البشرِ كُمُونَ النارِ في الشجرِ، ما يقدحُها إلا أيدي الهممِ العاليةِ بفكرٍ في الحُجَجِ الهاديةِ، وأكثرُ الناسِ قبَسوه بحواسِّهم ففقَدوه في اقتباسِهم = رأيتُ اتِّباعَ السلفِ في إثارةِ هذا النُّورِ ببيانِ الحُجَجِ فرضًا، ثُمَّ إنارتِه بوقودِ المِدادِ في صحائفِ الكتبِ حقًّا)[2].

---

(١) «تشنيف المسامع» لبدر الدين الزركشي ٤/ ٥٦٦.

(٢) «تقويم الأدلة في أصول الفقه» ١/ ١١.

ثالثًا: مهارةُ السَّبرِ والتَّقسيمِ:

السَّبرُ والتقسيمُ مسألةٌ أصوليةٌ منطقيةٌ، تحدَّث عنها التَّربويُّونَ[1]؛ وهي: إعمالُ الذِّهنِ في الفروضِ، ومُناقَشتُها على الترتيبِ، فتفتحُ وتُرسِّخُ العقليةَ العلميةَ، وتَصقُلُ الذِّهنَ الناقدَ.

أمَّا صياغةُ الفرضيَّاتِ؛ فهي عمليةُ تنبُّؤٍ، تحتاجُ إلى قدرةٍ كبيرةٍ على التعبيرِ عن الحلـولِ المُتوقَّعةِ تعبيرًا صحيحًا ودقيقًا، لا يقبلُ التأويـلَ، بحيثُ تكونُ كلُّ فرضيةٍ قابلةً لأنْ تكونَ هي الفرضيَّةَ الصحيحةَ، فالفرضيةُ الخاطئةُ يجبُ استبعادُها في عمليةِ الفحصِ وقبلَ عمليةِ الاختبارِ.

وأمَّا عزلُ المُتغيِّراتِ؛ فتتضمنُ هذه العمليـةُ القدرةَ على معرفةِ العواملِ التي تُؤثِّرُ والتي لا تُؤثِّرُ على نتائجِ التجربةِ، وتحديدَها بدقَّةٍ.

لو تأمَّلْنا طريقةَ الفقهاءِ في حديثِ المُجامِعِ في نهارِ رمضانَ؛ لَوَجَدْنا تخريجاتٍ وأُفُقًا وافتراضاتٍ للوصولِ إلى المسألةِ الصحيحةِ.

رابعًا: مهارةُ التَّفكُّرِ والتَّفهُّمِ لا مَحْضُ الحفظِ:

لا شـكَّ أنَّ مَن أراد إتقانَ صنعةٍ؛ فإنَّه يُكثِرُ من الدُّربةِ عليها؛ ليَعتادَها، وتَألَفها جوارحُه، وتدركَ نفسُـه مكامنَها. والأمرُ نفسُـه معَ صنعةِ العلمِ وفنِّ التعلُّمِ، بل هو أعظمُ الصنائعِ.

وعمادُ صنعةِ العالِمِ الفقيهِ هي الاسـتنباطُ من الكتابِ والسُّنَّةِ، وتنزيلُ مُقتضى النُّصوصِ الشـرعيةِ على الواقعِ بما يناسـبُه؛ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

(١) وذلك تحت مُسـمَّى: (صياغـة الفرضيـات) (*Formulation Of Hypothesis*)، و (عزل المُتغيِّرات) (*Isolate Of Variables*). انظر: «مدى فاعِليَّة طريقة الاستقصاء» ص٣٧-٣٨.

يقولُ النَّوويُّ رحمه اللهُ: الاعتناءُ بالاستنباطِ مِن آكَدِ الواجباتِ المطلوبةِ؛ لأنَّ النُّصوصَ الصَّريحةَ لا تفي إلا بيسيرٍ من المسائلِ الحادثةِ، وإذا أُهمِلَ الاستنباطُ، فاتَ القضاءُ في مُعظَمِ الأحكامِ النازلةِ، أو بعضِها.

لذا كان على طالبِ الملكةِ الفقهيةِ من الدُّربةِ الجادَّةِ على الاستنباطِ، واستمطارِ الأحكامِ من النصوصِ بغيرِ تكلُّفٍ. وممَّا يُستعانُ به على ذلك المِراسِ: التفكُّرُ في النُّصوصِ، ومُلازَمةُ النظرِ إلى شواهدِ الحالِ، واعتبارُ المصالحِ؛ فهذا ممَّا يُورِثُ قُوَّةً في الفقهِ شبيهةً بقُوَّةِ المهنةِ التي يُحصِّلُها أهلُ الصِّناعاتِ المختلفةِ كلما تقدَّم بهم الزَّمنُ.

فقُوَّةُ الحاسَّةِ الفقهيةِ عندَ المجتهدِ والفقيهِ عمومًا، تُمكِّنُه من استخلاصِ الحلولِ، وسَبْرِ آراءِ العلماءِ، واستظهارِ مواقفِ المجتهدين بسهولةٍ بالغةٍ؛ لمُعايشتِه لأصولِهم، وإدراكِه لأسبابِ ومكامنِ تعدُّدِ أوجهِ الرأيِ في المسألةِ محلِّ النَّظرِ، وإنْ لم يَسبِقْ له الاطِّلاعُ عليها.

فالمسافةُ بينَ التلقينِ المُجرَّدِ ومهارةِ الفهمِ تحكي فرقًا شاسعًا بينَ عقلينِ ومنهجينِ ومدرستينِ، كُلٌّ منهما له وادٍ يسبحُ فيه:

الأولُ: يدورُ في فلكِ رياضةٍ تلقينيةٍ، لفظيةٍ، طابعةٍ.

والآخرُ: يدورُ في فلكِ المعنى، ويتعلمُ سبلَ الوصولِ، ومعرفةَ حقيقةِ الأشياءِ.

فصناعةُ القوالبِ الجامدةِ لا تَفتِقُ ذهنًا، بل تخلقُ فكرًا رتيبًا، لا يستطيعُ النظرَ، ولا استعمالَ ما تعلَّمه.

يقولُ القَنُّوجيُّ رحمه اللهُ: (وقال أبو القاسمِ في «حاشيةِ المُطوَّلِ»: إنَّ جعلَ أسماءِ العلومِ المُدوَّنةِ مُطلَقةً على الأصولِ والقواعدِ وإدراكِها والملكةِ الحاصلةِ على سواءٍ، وكذا لفظُ العلمِ؛ صَحَّ. ثُمَّ إنَّهم ذكَروا أنَّ المُناسِبَ أن يُرادَ بالملكةِ

ههنا كيفيةٌ للنَّفسِ بها يُتمكَّنُ من معرفةِ جميعِ المسـائلِ، يُستحضَرُ بها ما كان معلومًا مخزونًا منها، ويُستحصَلُ ما كان مجهولًا، لا ملكةُ الاستحضارِ فقطِ المُسمَّاةِ بالعقلِ بالفعلِ؛ إذِ الظاهرُ أنَّ مَن تمكَّن من معرفةِ جميعِ مسـائلِ علمٍ بأن يكونَ عندَه ما يكفيه في تحصيلِها = يُعَدُّ عالمًا بذلك العلمِ، من غيرِ اشـتراطِ العلمِ بجميعِها، فضلًا عن صيرورتِها مخزونةً، ولا ملكةُ الاسـتحصالِ فقطِ المُسمَّاةُ بالعقلِ بالملكةِ؛ لأنه يلزمُ أن يُعَدَّ عالمًا مَن له تلك الملكةُ معَ عدمِ حصولِ شـيءٍ من المسائلِ. فالمرادُ بالملكةِ أعمُّ من ملكةِ الاستحضارِ والاستحصالِ)[1].

خامسًا: مهارةُ الاستقراءِ، ودَورُها في صياغةِ الذِّهنيّةِ العلميّةِ:

للاستقراءِ دَورٌ مهمٌّ في صياغةِ الذِّهنيَّةِ العلميةِ واستقرارِها، فمِن ذلك أنّه يعملُ على:

١- تماسكِ مسائلِ العلمِ وترابطِها:

فالمنهجُ الاستقرائيُّ يشـحذُ ذهنيَّةَ المتعلِّمِ إلى النظرِ دائمًا إلى النسبةِ الرَّابطةِ أو العَلاقةِ بينَ المسـائلِ؛ فهو يُنمِّي لدى طالبِ العلمِ مسـألةَ (الفُرُوقِ) بينَ المسائلِ وإيجادِ أوجهِ التّشـابهِ. وهي مِن أنفـعِ الملكاتِ التي يكتسـبُها؛ إذْ بها يقوى العلمُ، ويصيرُ وحدةً مُتماسِكةَ البِنيةِ.

٢- اتّساعِ مداركِ طالبِ العلمِ:

فقد ذكر الأسـنوي أن المطارحة بالمسـائل ذوات المآخـذ المؤتلفة المتفقة والأجوبة المختلفة المفترقة من مآثر أفكار العلماء[2].

(١) «أبجد العلوم» ص٤٣، ونحوه: «كشف الظنون» ١/ ٤٣-٤٤.

(٢) نقله ابن بدران في «المدخل» ص ٤٥٧.

٣- الموضوعيّة في تناولِ المسائلِ وبحثِها:

فالتفكيرُ الاستقرائيُّ مبنيٌّ على الأدلّةِ وتتبُّعِ المسائلِ، ويخلصُ إلى نتيجةٍ مُرتَّبةٍ على حسٍّ وتفكُّرٍ. ومِثلُ هذا يُبعِدُ الناظرَ عن التحيُّزِ في الترجيحِ، ويعينُه على الخلوصِ إلى قاعدةٍ أو ضابطٍ للمسألةِ.

٤- الأمانِ مِن الشُّذوذِ في مسائلِ العلمِ والترجيحِ:

ذلك أنَّ الذِّهنيَّةَ الاستقرائيةَ، سواءٌ استخدم الاستقراءَ التّامَّ أو الناقصَ، هي أقربُ إلى الصِّحَّةِ في الجملةِ، وأبعدُ عن التَّفرُّداتِ.

فالتّامُّ من الاستقراءِ: يَحُضُّه على الحكمِ الكُلِّيِّ، والنظرةِ الكُلِّيَّةِ المُبتناةِ على نظرٍ كُلِّيٍّ شموليٍّ يجمعُ الأفرادَ كلَّها.

والناقصُ من الاستقراءِ: يَحُضُّه على القياسِ على النظائرِ، وأن يسيرَ في مُفرَدةٍ ما سَيرَه في نظائرِها، وأن يحكمَ حكمًا كُلِّيًّا بما حكَم به على بعضِ الأفرادِ.

هذا بالنسبةِ للاستقراءِ التّامِّ والنّاقصِ. أمّا الاستقراءُ الذي بمعنى (التَّغليبِ)، الذي هو تقويةُ حُكمٍ على آخرَ؛ لوجودِه مُطَّرِدًا في أكثرِ الحالاتِ الدّاخلةِ تحتَ نوعٍ واحدٍ[1] = فعليه عملُ الكثيرِ في الترجيحِ.

فإذا تَماسَكتْ أوصالُ العلمِ، وتآزرتْ فصولُه، معَ اتّساعِ المداركِ، وأُمِنَ الشُّذوذُ، وصاحَبَ ذلك توفيقُ اللهِ تعالى للعبدِ = تَمَّ له ما كان يُؤمِّلُه، وحصَّل ما سعى لنَيلِه.

مراحلُ الاستقراءِ:

يرى بعضُ العلماءِ المعاصرين أنَّ الاستقراءَ لا بدَّ أن يمرَّ بمراحلَ مُعيَّنةٍ ليكونَ

(١) «الاستقراء» للطيب السنوسي، ص١٤٢، عن: «الاستقراء ومجالاته في الأحكام الشرعية» ص٤٦٣.

علميًا، وهي:

١- مرحلةُ الملاحظةِ والتجربةِ.

٢- مرحلةُ وضعِ الفروضِ العلميةِ التي تُفسِّرُ بها نتائجُ الملاحظةِ والتجربةِ.

٣- مرحلةُ التَّثبُّتِ من صحَّةِ الفروضِ[1].

سادسًا: مهارةُ الضَّبطِ والتَّقعيدِ:

كان مبدأُ العلمِ ملكةً تتناقلُها الأجيالُ، من سلفٍ إلى خلفٍ، وسليقةً عربيةً لم يطرأ عليها عُجمةٌ تشوبُها، أو لحنٌ يخدشُ بهاءَها. ومعَ مرورِ الزمنِ، وضعفِ العلمِ وفُشُوِّ اللحنِ والعُجمةِ = احتاج الناسُ إلى قوانينَ وقواعدَ تضبطُ الأصلَ، وتعينُ على حسنِ التفريعِ بإلحاقِ النظيرِ بالنظيرِ، والتفريقِ بينَ الأصيلِ والدخيلِ؛ فكان إتقانُ هذه القواعدِ وأدلتِها وشواهدِها وأمثلتِها يؤول إلى التمكُّنِ في العلمِ، وحصولِ ملكةٍ تُنمِّي الحسَّ الاجتهاديَّ.

فأصلُ تقنينِ القواعدِ والضوابطِ ونحتِها كان للإعانةِ على بلوغِ الملكةِ واكتسابِ المهارةِ وحسنِ استعمالِها[2].

---

(١) انظر تفصيلًا لذلك، وأمثلةً تطبيقيةً في مجالاتِ العلومِ في المراجعِ الآتيةِ: «المنطق التوجيهي» ص١٣٠-١٥٩، و«مسائل فلسفية» ٢/ ١٥٧-١٧٢، و«المنطق» للدكتور كريم متى ص١٦٥-١٨٢، و«ضوابط المعرفة» ص٢٠٣-٢٣٢، عن: «طرق الاستدلال ومقدماتها عند المناطقة والأصوليين» للدكتور يعقوب الباحسين ص٢٩٥-٢٩٦.

(٢) وهنا يحسنُ التنبيهُ إلى أنَّ هذه الكتبَ التي تُعنَى بصُنعِ القواعدِ والضوابطِ، صُدَّ عنها بعضُ الطلابِ، ومن أسبابِ ذلك: خشونةُ اللفظِ، وقلةُ التمثيلِ، ووحشيةُ بعضِ العباراتِ. والمُوفَّقُ مَن صبَّره اللهُ على لأواءِ الألفاظِ والتعبيراتِ، وأمعَن في تفهُّمِها، ولو أنَّه اعتبرَها لغةً أجنبيةً لاستطاعَ بصبرٍ تفهُّمَها في شهورٍ قلائلَ؛ فكيف وهي عربيَّةُ اللسانِ إسلاميَّةُ اللهجةِ؟! وفي عصرِ الإنترنتِ والاتصالاتِ، لم يَعُدْ هناك مستحيلٌ يصعبُ فهمُه، فعليه بسؤالِ مَن سبقَه.

وقد عبّر الإمامُ ابــنُ رجبٍ -رحمه اللهُ- عن وظيفتِهــا بقولِه: (تضبطُ للفقيهِ أصولَ المذهبِ، وتُطلِعُه مِن مآخذِ الفقهِ علــى ما كان عنه قد تغيَّبَ، وتنظمُ له منثورَ المسائلِ في سلكٍ واحدٍ، وتُقيِّدُ له الشَّواردَ، وتُقرِّبُ عليه كلَّ مُتباعِدٍ)[1].

ويقولُ الزَّركشيُّ رحمه اللهُ: (ضبطُ الأمورِ المُنتشِرةِ في القوانينِ المُتَّحِدةِ، هو أوعى لحفظِها، وأدعى لضبطِها)[2].

وإذا كان الحديــثُ عن مهارةِ الضبطِ والتقعيدِ؛ فإنَّها في الأســاسِ مبنيَّةٌ على الاستقراءِ، سواءٌ كان الاستقراءَ الأصوليَّ الذي يَتحدَّثُ عنه الأصوليُّون، أو الاستقراءَ بمعنى (التَّغليب)، وقد نُســمِّيه الاســتقراءَ التَّغليبــيَّ. وحيثُما وُجِــد التقعيدُ وُجِد الاستقراءُ؛ إذْ لا تقعيدَ إلا باستقراءٍ لأفرادِ المسائلِ والفروعِ.

أمَّا عن المهارةِ الذِّهنيةِ التي يكتسبُها المتعلِّمُ من التقعيدِ والضبطِ؛ فإنَّنا نستطيعُ أن نفهمَها من خلالِ معرفةِ ماهيَّةِ التقعيدِ، التي هي «ســعيٌ إلى إدراكِ الكُلِّ»، وعلى ذلك فهو انتقالٌ من مستوًى إلى مستوًى أعلى منه، وفيها يتمُّ:

١- بيانُ المُشترَكِ في الكثرةِ المبحوثةِ.

= وللأســفِ، فإنَّ الناظرَ في أبناءِ هذا الجيلِ، يجدُ شــبابًا تلقَّفَهم أدباءُ وإعلاميُّون، تغايَرتْ شخوصُهم وتعدَّدتْ وجوهُهم، كتَبوا في مسائلِ العلمِ، وناقَشوا أمورًا من الشريعةِ، خاصَّةً ما يتعلَّقُ بنوازلِ الفقهِ الإسلاميِّ، بخطابٍ بعيدٍ عن المسلكِ الفقهيِّ المُتَّزِنِ المعهودِ المبنيِّ علــى قواعدِ العلماءِ. فوُجِدتْ لغةٌ غريبةٌ دخيلةٌ على لغةِ العلمِ الشــرعيِّ، تداعبُ شُــعُورَ الشــبابِ والمُثقَّفين، بعيدةٌ عن الأصولِ العلميةِ، فصار أبناءُ هذا الجيلِ مُولَعِينَ بالكتاباتِ الخفيفةِ الطريفةِ، وثقافةِ الوجبةِ الســريعةِ، فإذا استمرَّ الأمرُ على هذا يوشِكُ أن يُنذِرَ بكارثةٍ على المستوى العلميِّ والدعويِّ والفكريِّ.
لذا كانت النصيحةُ: أكثِرْ مِن الاطِّلاعِ على الكتبِ الجادَّةِ التي تَفتُقُ الذهنَ وتُكسِبُ لغةَ العلمِ.

(١) «القواعد» لابن رجب ١/ ٣.

(٢) «المنثور في القواعد» ١/ ٦٥.

٢- إسقاطُ المُشخّصاتِ.

٣- مراعاةُ الفروقِ بين ما ظاهرُه التّشابهُ.

٤- مراعاةُ ما يدخلُ في القاعدةِ من فروعٍ معَ استثنائِه، حيثُ تُعَدُّ هذه الفروعُ عندَ إغفالِها، أو إغفالِ موجبِ استثنائِها مُعطِّلةً لعمليةِ التقعيد.

٥- مراعاةُ الجوامعِ، وهو الجمعُ بينَ ما ظاهرُه الافتراقُ[1].

وقد ذكر الزركشيُّ -رحمه اللهُ- عن الأستاذِ أبي إسحاقَ -رحمه اللهُ- أنَّ مِن شروطِ المجتهدِ أن تكونَ عندَه: (قُوَّةُ الفهمِ على التعرُّفِ بالجمعِ والتفريقِ، والترتيبِ، والتصحيحِ، والإفسادِ؛ فإنَّه مِلاكُ الصَّنعةِ)[2].

لكنْ يلزمُ التنبيهُ على أنَّ المرادَ بمهارةِ التقعيدِ هنا ليستْ ما نادَى به البعضُ من تجديدِ قواعدِ الفقهِ والشريعةِ، التي هي مبنيَّةٌ على الأدلةِ الشرعيةِ المُعتبَرةِ.

وإنَّما المرادُ ما يَفتُقُ ذهنَ الطالبِ، ويُعوِّدُ ذِهنيَّتَه على الربطِ بينَ المسائلِ، وردِّ الفروعِ إلى تقعيدٍ مُستمَدٍّ من أدلَّةٍ مُعتبَرةٍ، وربطِ الفرعِ بأصلِه، وتطبيقِ القاعدةِ على فروعٍ جديدةٍ وحوادثَ نازلةٍ ونحوِ ذلك؛ لتتمرَّسَ عقليَّتُه الفقهيةُ.

فبإجمالٍ للكلامِ تارةً، وبِرَدِّه إلى قواعدَ أخرى، وبتقعيدٍ أو تحليلٍ تاراتٍ يتفجرُ في قلبِ الطالبِ الإدراكُ الذِّهنيُّ والاستيعابُ الواسعُ لكلامِ الفقهاءِ واستحلابُ الضوابطِ والقواعدِ والرَّدُّ إليهما.

نماذجُ عمليَّةٌ لمهارةِ الضبطِ والتقعيدِ:

فهذه نماذجُ مُستقاةٌ من تراثِ الفقهاءِ، تَمَّ فيها استعمالُ مهارةِ الضبطِ والتقعيدِ:

---

(١) مُستفادٌ مِن: «المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية» لعلي جمعة عبد الوهاب.

(٢) «تشنيف المسامع» لبدر الدين الزركشي ٤/ ٥٦٦.

١- يقولُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ رحمه اللهُ: (وإنِ اشترَى عبدًا للتِّجارةِ؛ وجَبتْ عليه فِطْرتُه لوقتِها، وزكاةُ التِّجارةِ لِحَوْلِها؛ لأنَّهما حقَّانِ يجبانِ بسببينِ مُختلِفينِ، فلم يمنعْ أحدُهما الآخَرَ؛ كالجزاءِ والقيمةِ[1]، وحَدِّ الزِّنا والشُّربِ)[2].

هذا نصٌّ فقهيٌّ، تمَّ فيه إعمالُ مهارةِ التقعيدِ، واستَدَلَّ بقاعدةٍ رَدَّ إليها الفرعَ، وهي: «الحقَّانِ المُختلِفانِ لا يَتداخَلانِ».

وهذه القاعدةُ مَفادُها أنَّه: (إذا ترتَّب في ذمَّةِ المُكلَّفِ حقَّانِ، يتعلقُ كلٌّ منهما بجهةٍ مُعيَّنةٍ، سواءٌ كانا مِن حقوقِ اللهِ، أو مِن حقوقِ العبادِ، أو من النَّوعينِ معًا؛ فإنَّ ذِمَّتَه لا تبرأُ إلا بأداءِ الحقَّينِ معًا، ولا يُجزِئُه الاقتصارُ على واحدٍ منهما.

وهذا يشبهُ قاعدةً أخرى عندَ الشافعيةِ والحنابلةِ، وهي: «حقوقُ الآدميِّينَ لا تَتداخَلُ».

وعبَّر السَّرَخسيُّ الحنفيُّ عن هذه القاعدةِ بقولِه: «الحقَّانِ إذا وجَبا بسببينِ؛ فاستيفاءُ أحدِهما لا يُسقِطُ الآخَرَ».

ومِن تطبيقاتِها: وجوبُ الدِّيةِ والكفَّارةِ على القاتلِ خطأً؛ لأنَّ الدِّيةَ حقُّ الآدميِّ يستحقُّه أولياءُ المقتولِ، والكفَّارةَ حقٌّ للهِ تعالى، فوجَب الحقَّانِ معًا، ولم يصحَّ دخولُ أحدِهما في الآخَرِ)[3].

٢- يقولُ سِبطُ ابنِ الجوزيِّ رحمه اللهُ: (إذا صال الجملُ على إنسانٍ، فقتَله المصولُ عليه؛ دفعًا لشَرِّه = يضمنُ. وقال الشافعيُّ: لا يضمنُ. وعلى هذا الخلافِ

(١) المرادُ به جزاءُ الصيدِ والقيمةُ، وهو أنَّ المُحرِمَ إذا قتَل صيدًا مملوكًا؛ فعليه قيمتُه لمالكِه، والجزاءُ للمساكينِ. «المجموع» ٦/ ٥٢.

(٢) «المُهذَّب في فقه الإمام الشافعي» ١/ ٥٢٦.

(٣) «القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة» ١/ ٦٣٩.

سائرُ البهائمِ، والصَّبيُّ، والمجنونُ.

وكذا لو سقَط مالُ الغيرِ عليه مِن أعلى، فدفَعه عن نفسِه، فأتلَفه؛ ضَمِن عندَنا، خلافًا له.

وقد تساعدنا على أنَّ الحُرَّ أو العبدَ إذا صال على إنسانٍ، فقتَله المصولُ عليه، لا يضمنُ.

لنا: أنَّه أتلَف مالًا معصومًا فيضمنُ؛ عملًا بالنُّصوصِ المُحرِّمةِ لمالِ الغيرِ.

وقولُه ﷺ: «العَجْماءُ جُرْحُها جُبَارٌ»؛ أي فِعلُ البهيمةِ هَدَرٌ، فلو لم يجبِ الضمانُ لكان ذلك اعتبارًا لفعلِهما، وفعلُها غيرُ مُعتبَرٍ.

له: العموماتُ النافيةُ لوجوبِ الضمانِ.

قلنا: المُثبِتُ مُقدَّمٌ على النافي؛ لِمَا عُرِف)[1].

فكلامُه -رحمه اللهُ- يشتملُ على عدَّةِ قواعدَ فقهيَّةٍ:

١- كلُّ مَن أتلَف مالًا معصومًا فعليه الضمانُ.

٢- فعلُ البهيمةِ هدَرٌ.

٣- المُثبِتُ مُقدَّمٌ على النافي[2].

---

(١) «إيثار الإنصاف في آثار الخلاف» لسِبْط ابن الجوزي يوسف بن قزغلي ص ٤٠٠-٤٠١.

(٢) ينظر: «نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء» ص ٢٦٠.

المهاراتُ الواجبُ اكتسابُها
في مرحلتَيِ «التَّأصيلِ» و «استكمالِ التَّكوينِ»

هناكَ العديدُ من المهاراتِ التي من الممكنِ أن يدركَها الطالبُ إذا تمَّ له برنامجُ التأصيلِ واستكمالِ التكوينِ والبحث العلمي على الوجهِ المطلوبِ، فمنها[1]:

١- مهارةُ المُلاحَظةِ.

٢- مهارةُ المُوازَنةِ:

وهي القدرةُ على معرفةِ أوجهِ الشَّبهِ والاختلافِ، ومعرفةِ القدرِ الفارقِ والقدرِ المُشترَكِ، في الحكمِ الكُلِّيِّ والجزئيِّ، في الأصولِ والفروعِ.

٣- مهارةُ الحدِّ والتعريفِ:

وهي قدرةٌ على تحديدِ حقيقةِ الأشــياءِ، وضبطِها، وتســميتِها، وتمييزِها عن غيرِها.

٤- مهارةُ التَّصنيفِ:

وهي قدرةٌ علــى تقســيمِ وتصنيفِ المعلوماتِ والأشياءِ بغرضِ تشكيلِ

(١) مستفادٌ -مع توظيفه فيما نحن بصــدده- من: «مدى فاعِليَّةِ طريقة الاستقصاء الموجه» ص٣٥ وما بعدها.

مجموعاتٍ منها.

٥- مهارةُ التفسيرِ:

وهي القــدرةُ على بنــاءِ أحكامٍ غيــرِ ملحوظةٍ تتضمــنُ التفسـيرَ والتعليلَ للمُلاحَظاتِ أو الأحكامِ.

٦- التنبُّؤ:

وهي تتضمنُ القــدرةَ على صياغةِ ما يمكــنُ أن يحدثَ مُســتقبَلًا؛ بناءً على الملاحظاتِ السابقةِ، وهذه المهارةُ تفيدُ في إدراكِ المآلِ، ومراعاتِه عندَ تقريرِ الحكمِ المناسبِ على الواقعةِ.

٧- صياغةُ الفرضيّاتِ والحلولِ المُمكِنةِ.

٨- عزلُ المُتغيّراتِ، واستبعادُ غيرِ المُؤثّرِ.

قصورُ النَّظرِ العلمي وإشكالاتُه

يُعنَى هذا المبحثُ بجدلياتٍ وإشكالاتٍ يكثُرُ الخوضُ فيها، وتُؤثِّرُ قطعًا على النظرِ الصحيحِ لمسائلِ العلم، وقد تحجبُ الرؤية؛ أصلَها أو كمالَها.

١- إشكاليّةُ تغايرِ اصطلاحاتِ الفنونِ والمذاهبِ

اصطلاحاتُ العلومِ المُختلِفةِ والمذاهبِ المُتنوِّعةِ، سواءٌ كانت عَقَديَّةً أو فقهيةً أو لُغويةً أو غيرَها، قد تُسفِرُ عن نوعِ التباسٍ على الباحثِ في العلمِ؛ ذلك أنّها تتغايرُ تارةً وتتناوبُ أخرى.

هنا كان لا بدَّ للناظرِ في الفنِّ المُعيَّنِ من تناولِ مُقدِّمةٍ فيه ومدخلٍ إليه يُعبِّرُ عن خصائصِه واصطلاحاتِه ومقاصدِه، وإلا حصَل التباسٌ وتداخلٌ وفهمٌ للكلامِ على غيرِ وجهِه الصحيحِ المُعتبَرِ عندَ ذويه.

وإذا أُسيءَ فهمُ كلامِ العلماءِ، وجاء على غيرِ وجهِه؛ تخلَّل الفسادُ في تصوُّرِ المسائلِ ودركِ كُنهِ الخلافِ بينَ المختلِفين، وحينَها يظهرُ عَوارٌ كبيرٌ في النظرِ والمباحثةِ، وجورٌ في الثمرة والنتائجِ.

ولْنَضرِبْ مثالًا على أثرِ اختلافِ المصطلحاتِ ومقاصدِها في الخلطِ في «مسائلِ الاعتقادِ»:

يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه اللهُ: (لفظُ التوحيدِ، والتنزيهِ، والتشبيهِ، والتجسيمِ - ألفاظٌ قد دخَلها الاشتراكُ؛ بسببِ اختلافِ اصطلاحاتِ المُتكلِّمين وغيرِهم، وكلُّ طائفةٍ تعني بهذه الأسماءِ ما لا يَعنيه غيرُهم.

فالجهميةُ من المعتزلةِ وغيرِهم يريدون بالتوحيدِ والتنزيهِ: نفيَ جميعِ الصفاتِ، وبالتجسيمِ والتشبيهِ: إثباتَ شيءٍ منها، حتى إنَّ مَن قال: «إنَّ اللهَ يرى»، أو «إنَّ له

علمًا»؛ فهو عندهم مُشبِّهٌ مُجسِّمٌ.

وكثيرٌ من المُتكلِّمةِ الصِّفاتيَّةِ يريدون بالتوحيدِ والتنزيهِ: نفيَ الصفاتِ الخبريةِ أو بعضِها، وبالتجسيمِ والتشبيهِ: إثباتَها أو بعضِها.

والفلاسـفةُ تعني بالتوحيدِ ما تعنيه المعتزلةُ وزيادةً، حتى يقولون: ليس له إلا صفةٌ سلبيةٌ، أو إضافيةٌ، أو مُركَّبةٌ منهما.

والاتِّحاديَّةُ تعني بالتوحيدِ: أنَّه هو الوجودُ المُطلَقُ.

ولغيرِ هؤلاءِ فيه اصطلاحاتٌ أخرى. وأمَّا التوحيدُ الذي بعَث اللهُ به الرُّسـلَ، وأنزَل به الكتبَ؛ فليس هو مُتضمِّنًا شيئًا من هذه الاصطلاحاتِ)[1].

فالناظرُ الخبيرُ مَن يُـدرِكُ الفَرْقَ بينَ الفِرَقِ، وصـورَ الوِفاقِ والاختلافِ بينَ المذاهـبِ في تعاملِهم من الاصطلاحات، ثم يحملُه علـى محاملِ الجادَّةِ عندَ أهلِه ومُعتقِديه بلا شططٍ أو تجاوزٍ، بل ويتغلبُ على إشكاليةِ تعدُّدِ الأقوالِ وتشعُّبِها، حينَها يسـتطيعُ الوصولَ إلى برِّ السـلامةِ في بابِ النظرِ العلميِّ للمسائلِ، ويَحُلُّ إشكالاتٍ كثيرةً لِمَا ظاهـرُه المُخالَفةُ وهو خـلافٌ لفظيٌّ في الحقيقةِ، أو ما ظاهـرُه المُوافَقةُ وبينَهما بُعدُ المشرقينِ.

فهناك أبوابٌ قد يُظَنُّ أنَّ فيها خلافًا معنويًّا، وهي ليسـت كذلك، ومِن ذلك ما قاله شـيخُ الإسـلامِ رحمه اللهُ: (وللناسِ في هذا البابِ اصطلاحاتٌ مُتعدِّدةٌ، مَن لم يعرفْها يجعلْ بينَهم نزاعًا معنويًّا)[2].

وقـال أيضًا: (ينبغي لمَن خاطَب به أن يعرفَ مقصودَ المُخاطَبِ به؛ فقد رأيتُ

(١) «مجموع الفتاوى» ٤/ ١٥٠.
(٢) «درء التعارض» ٤/ ٢٨.

مِن غلطِ الناسِ -بسـبـبِ اشـتـراكِ هذا اللفظِ؛ لتعدُّدِ الاصطلاحاتِ فيه- ما لا يمكنُ إحصاؤُه ههنا)[1].

وإذا نظرتَ إلى كثيرٍ ممَّن انبرَى للنظرِ الفقهيِّ، أو النظرِ المُقارِنِ في المذاهبِ والفِرَقِ وغيرِها؛ تجدُه قـد تاه في مُحاوَراتِهم ونقاشـاتِهم، فخلَط بينَ أصيلِ القولِ ودخيلِه، وبينَ شاذِّ الفكرِ وركيزِه.

فالمُحقِّقُ -إذَنْ- مَن لا يلحقُه فسادُ التشعُّبِ، ولا ينالُه التشغيبُ، أو التشوُّشُ في متاهةِ المصطلحاتِ، وحريٌّ به أن يصلَ إلى الراجحِ بسلامٍ.

---

(١) «درء التعارض» ٥/ ٢٤٣.

٢- جدليّةُ الحدّ والتعريفِ

للحدِّ أو التعريـفِ دَورٌ كبيرٌ فـي إدراكِ المحدودِ، وهو بـابٌ لإدراكِ ماهيَّةِ المُعرَّفِ وحقيقتِه، فيستغني به عن استحضارِ كثيرٍ من التفريعِ والتفصيلِ. وكما هو مقررٌ في كتبِ الأصولِ والمنطقِ أنّه قد يُرادُ به تمييزُ الشـيءِ عن غيرِه، أو ذكرُ ما يزيلُ الاشتباهَ العارض، أو ذكرُ حقيقةِ الشيء، أو ذكرُ القسمةِ الحاصرةِ لأفرادِه، والبعضُ قد يُعرِّفُ الشيءَ بحُكمِه المُترتِّبِ عليه لا بماهيَّتِه، وهو وإن كان مردودًا كحدٍّ منطقيٍّ، إلا أنَّ بعضَ العلماءِ قد يلجأُ إليه لحاجةِ المُتعلِّمِ، ومُراعاةً للتدرُّجِ في تعليمِه، خاصَّةً في مُختصَراتِ العلومِ[1].

والبعضُ قد يُعرِّفُ الشيءَ بذكرِ أحدِ أفرادِه المُندرِجةِ تحتَه، أو لوازمِه.

وبين هذه الطرقِ قد يقعُ الخلطُ بين أنواعِ التعريفِ ومناهجِه وأساليبِه.

ومن جهة أخرى تختلف النظرة إلى الحد والتعريف بين البسـط، أو التوسط، أو الاختصار (وقد يصـل إلى الاعتصار)، فالأول: من يجعلُه محلَّ بسـطٍ وإطنابٍ وزيادةِ إيضاحٍ، وإن كان الإجمالُ هو الأَوْلـى، كما نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ من العلماءِ،

(١) أولـع المتأخرون بهذه الحدود والتعريفات منذ القرن السـادس، متأثرين بالمنطق، فغزَتْ هذه الحدود جميعَ العلوم والفنون حتى الشرعية منها، فأفسدتها، وللتفصيل مقام آخر. ولا داعي للطالب العناية بها، وقد رفضها العصر الحديث كما رفضها السلف، فلماذا الاهتمام بما قرّره الخلـف؟ وينبغي أن تُصفّى كتب العقيدة والأصـول والفقه والمصطلح والنحو والبلاغة وغيرها من المنطق وآثاره السيئة. (محمد عزير شمس)

إلا أنَّهم قد يطيلون العبارةَ بذكرِ مُكمِّلاتِ التعريفِ؛ للسَّلامةِ من المُعارِضِ، ولجمعِ الأفرادِ، ومنعِ غيرِها من الالتباسِ بها. والثاني: من يجعله محل توسُّطٍ. والثالث: مَن يراه مقامَ اختصارٍ، والأكثرون على الأخيرِ.

مفادُ ما سبق:

أن الواجبَ عندَ النظرِ في الحدودِ والتعاريفِ: إدراكُ أنَّ الحدَّ لتمييزِ المحدودِ عن غيرِه، وأنَّه قد يحصلُ به تصوُّرُ المحدودِ لمَن كان به جاهلًا، ولا يشغلُ بالَه أن يكونَ مُختصَرًا أو مُتوسِّطًا أو مُطوَّلًا، وأن يجعلَ مِعيارَه التمييزَ والتصوُّرَ، وحصولَ ما يفيدُه في إدراكِ حقيقةِ التعريفِ، وأن يكون له اطلاعٌ في الجملة على مناهج العلماء والمصنِّفين في العلوم المختلفة والمذاهب والفنون في الحدِّ والتعريف، ويستفيدَ من هذا أحيانًا ومن الآخرِ أحيانًا أخرى، ولا يُعنَى بالاستكثارِ من التعاريفِ إلا ما أفادَ وحقَّق المرادَ.

يقولُ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ -رحمه اللهُ- عند النِّقاشِ حولَ تعريفِ «النَّسْخ»: (وأنا أبدًا أستقلُّ الإكثارَ من ذكرِ التعاريفِ، والاشتغالَ بتزييفِها؛ فإنَّ المعانيَ إذا لاحَتْ لم يَحسُنْ بطالبِ التحقيقِ تضييعُ الأوقاتِ في تحريرِ العبارةِ عنها، والأوقاتُ أنفسُ مِن التَّنافُسِ في ذلك)[1].

(١) «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب» ٤/ ٣٨.
هذا كلام جيد، وهذا الذي ينبغي أن يكون نُصْبَ عين المعلِّم عندما يريد أن يقرِّب الكلام ويفسِّره للتلاميذ. (محمد عزير شمس)

٣- جدليّةُ النّظرةِ الجُزئيّةِ للعلمِ الشّرعيّ

كناظـرٍ مِن مِنظارِ الفقهِ فقـطْ، أو الأصولِ، أو الحديثِ، فـلا ينظرُ إلى العلمِ الشرعيِّ ككُلٍّ مِن جميعِ الزّوايا العلميةِ أو يحررَ كلَّ مقامٍ وما يناسبُ بابَه.

ومِن أمثلتِه: الاعتمـادُ الكُلّيُّ في تعريفِ «الصّحابيِّ» على إحدى مدرستَي الأصولِ أو الحديثِ، دونَ الجمعِ بينَهما والاستفادةِ من مناهجِهما.

٤- عدمُ تحريرِ المسائل

والمــراد بعدم التحرير عــدمُ القدرة علــى التفريق بين محــلِّ النزاع ومحلِّ الإجماع، وانعدام هذا التحريرِ فقدٌ لمسبار التحقيق العِلمي، وحبسٌ للنفسِ عن النَّظرِ الدقيقِ والفحصِ العميقِ للمسائل.

وهذا يتنزَّلُ على جميعِ العلومِ والفنون، يقول الغزَاليُّ رحمه الله: (ما من علمٍ من هذه العلومِ إلا ولهُ مواقعُ إجماعٍ ومثاراتُ نزاعٍ)[1].

فإذا كان الأمر كذلك فمِنْ قُصــورِ النَّظَر: الغفلةُ عن مواقعِ الإجماعِ ومثاراتِ النزاعِ.

(١) «المنخول»، ص٥.

٥- فقرُ المادّةِ والتوظيفِ

الاطِّلاعُ العامُّ يعطي معرفةً عامَّةً في العلومِ، ويُوسِّـعُ المداركَ، فيكونُ اطِّلاعُ الطالبِ فيه مُرتَّبًا مُؤطَّرًا بهدفٍ.

وأمّا الاطِّلاعُ الخاصُّ؛ فيفيدُ في تنميةِ القدرةِ العلميةِ في فنٍّ أو مسـائلَ بعينِها، فيحتاجُ الطالبُ إلى جردِ ما أُلِّف فيه؛ ليكونَ مُلِمًّا بكتبِه ومباحثِه ومظانِّ مسائلِه.

وبهذَينِ الاطِّلاعينِ يَسْـلمُ الطالبُ من فقرِ المادة؛ بحسـنِ الاطِّلاع، ويَسْلمُ كذلك من فقرِ التوظيفِ إن أحسن استخدامَ أدواتِ العلمِ وتحقيق مناطاتِه.

٦- حسنُ الظّنّ بكُلّ معلومةٍ دونَ تمحيصِها

الأَوْلى في عقليةِ طالبِ العلمِ استعمالُ النَّباهةِ، وألّا يُمرِّرَ المعلوماتِ إلا بعدَ عبورِها بقناةِ التمحيصِ والتحرّي؛ فإنَّ حُسنَ الظَّنِّ بكلِّ معرفةٍ يكشفُ عن سطحيةِ التفكيرِ، ومِن هنا تولَّد المصطلحُ الشائعُ المعروفُ بـ«حاطِبِ اللَّيل».

فكلُّ «حاطبِ ليلٍ» في الحقيقةِ مُخلِّطٌ في مصادرِ العلمِ، ومُفرِّطٌ في حُسنِ الظَّنِّ بكلِّ ما يُنشَرُ، وقبولِ كلِّ ما يُذكَرُ، فعلومُنا -أهلَ الإسلامِ- لا تقبلُ الخرافةَ ولا تروِّج لها.

٧- غيابُ «تفقُّدِ العلومِ»

تَفقُّدُه: أن يُنقِّبَ ويفتِّشَ في علومِه، وما وصَل إليه بُنيانُه.

معَ دوائرِ الزَّمنِ تتراكـــمُ أكوامٌ من غثِّ الكلامِ، وتنطبـــعُ في الأذهانِ معارفُ لا تزنُ شيئًا عندَ صيارفةِ التحقيقِ والرسوخِ.

وفي عالمِ الفضاءِ المفتوحِ تأتي جنايةُ المواقعِ الشَّـــبكيةِ والصُّحفِ ومنتدياتِ الحوارِ لتُسرِّبَ أغلاطًا، وتُثبِّتَ تصحيفاتٍ.

ومردُّ هذا كلِّه: حســـنُ الظَّنِّ بهذه المنابرِ، وما تقذفُه من حواراتٍ ونقاشـــاتٍ، ومعَ الاستعجالِ يســـتمرئُ الطالبُ هذا الأســـلوبَ ليُنتِجَ إرثٌ هشٌّ وعلمٌ مُشوَّشٌ، لا يسندُ صاحبَه عندَ قلم التحقيقِ.

الإشكالاتُ الذِّهنيَّةُ

الذِّهنُ الوقَّادُ منَّةٌ كبيرةٌ، وعطيَّةٌ لا تُقارَنُ، فبحسنِ التصوُّرِ وجودةِ الاستشكالِ يستطيعُ الطالبُ التمييزَ بينَ المُفترِقاتِ، والجمعَ بيـنَ المُؤتلِفاتِ المُتَّفِقاتِ، وضمَّ النظيرِ إلى نظيرِه بلا تكلُّفٍ أو تعسُّفٍ.

ومرجعُ ذلك أنَّ معرفةَ الاستشـكالِ في نفسِـه علمٌ وفتحٌ من اللهِ على طالبِ العلمِ؛ كما قال القرافيُّ رحمه اللهُ: (معرفةُ الإشـكالِ علمٌ في نفسِـه، وفتحٌ مِن اللهِ تعالى)[1].

فعدَّ معرفةَ الإشكالِ «علمًا» و «فتحًا»؛ لكونِه يكشفُ جهلًا، ويُيسِّرُ الفهمَ على نفسِه وغيرِه، ويرفعِه تُدفَعُ تهمةُ التناقضِ والتعارضِ عن الشريعةِ، فنجدُ الإمامَ القرافيَّ نفسَه لمَّا أورد الفرقَ بينَ (ما تُشرَعُ فيه البسملةُ، وما لا تُشرَعُ فيه البسملةُ)، قال بعدَها: (فأمَّا ضابطُ ما تُشـرَعُ فيه التسميةُ من القُرُباتِ، وما لم تُشرَعْ فيه؛ فقد وقَع البحثُ فيه معَ جماعةٍ من الفضلاءِ، وعسُر تحريرُ ذلك وضبطُه.

وإنَّ بعضَهم قد قال: إنَّها لم تُشـرَعْ في الأذكارِ ومـا ذُكِر معَها؛ لأنَّها بركةٌ في نفسِها.

فـورَد عليه قراءةُ القرآنِ، فإنَّها من أعظمِ القُرُباتِ والبركاتِ، معَ أنَّها شُـرِعتْ فيه.

---

(١) «الفروق» ١/ ١٢١.

فالقصدُ مِن هذا الفرقِ: بيانُ عُسرِه، والتنبيهُ على طلبِ البحثِ عن ذلك؛ فإنَّ الإنسانَ قد يعتقدُ أنَّ هذا لا إشكالَ فيه، فإذا نُبِّه على الإشكالِ استفاده، وحثَّه ذلك على طلبِ جوابِه، واللهُ تعالى خلَّاقٌ على الدَّوامِ، يَهَبُ فضلَه لمَن يشاءُ، في أيِّ وقتٍ شاء)[1].

ويقابلُ هذه المنَّةَ والفتحَ رزيَّةٌ يُبتلَى بها المرءُ في عقلِه وذهنِه، ليصيرَ مُعاقَ الذِّهنِ، مُشوَّشَ الفكرِ، قاصرًا عن إدراكِ الأمورِ وتقديرِها، وتختلطُ عليه المسائلُ، والفروعُ والأصولُ، والكُلِّيَّاتُ والجزئياتُ، فيُقدِّمُ ما حقُّه التأخيرُ، ويُؤخِّرُ ما حقُّه التقديمُ.

والعبدُ لا يزالُ سابحًا في تصوُّراتٍ وأفكارٍ ذهنيَّةٍ مدى الحياةِ، منها ما يتعلَّقُ بمسائلِ العلمِ الشرعيِّ، ومنها ما يكونُ في غيرِه؛ وذلك لأنَّ (نتائجَ الأفكارِ لا تقفُ عندَ حدٍّ، وتصرُّفاتِ الأنظارِ لا تنتهي إلى غايةٍ، بل لكُلِّ عالمٍ ومُتعلِّمٍ منها حظٌّ يحرزُه في وقتِه المُقدَّرِ له، وليس لأحدٍ أن يزاحمَه فيه)[2].

لكنَّ أمرَها يحتاجُ إلى ضبطٍ، ويَجدُرُ بنا الاعتناءُ بها والنظرُ إليها نظرةً حكيمةً مُتزنةً؛ لأنَّها قد تؤولُ بالطالبِ إلى التمكُّنِ، وقد تَزِلُّ به إلى حضيضِ الزَّيغِ وارتعاشِ الحقِّ في قلبِه.

وقد تقرَّر أنَّ العلم ما أزال الشبهة لا ما أدخل فيها؛ وأنه العلم ما رفع الفُرقة لا ما تسبَّب فيها، فهذه غاية الطلب يا من تنشد العلم والأدب!.

فمعَ إلفِ الاستشكالِ قد يزيغُ القلبُ عن قصدِ الحقِّ، ويتشربُ حبَّ الخلافِ والجدلِ، فيصابُ بحالةٍ مِن فَرَطِ النُّزوعِ إلى صناعةِ الخلافِ وادِّعاءِ التعارضِ، بل قد

---

(١) «الفروق» ١/ ١٣٢.

(٢) «كشف الظنون» ١/ ٣٩، وينظر: «بصائر ذوي التمييز» ١/ ٧٩.

يستمرئُ الطالبُ -كأثرٍ مُترتِّبٍ على هذا النُّزوعِ والرَّغبةِ القويةِ- أن يعارضَ كلَّ قولٍ، أو حتى قاعدةٍ ودليلٍ!!

قد نلحظُ هذا في استقرائيَّةٍ دوَّارةٍ تكشفُ ما نحنُ بصددِهِ، وهي قولُهم: (ليس على العمومِ)، وقولِ: (لا نُسلِّمُ لكَ بكذا...). فقد أصبَحتْ مادَّةً تلوكُها ألسنةُ كثيرٍ من المُعترِضين بلا ضابطٍ؛ ولعًا بالمعارضةِ والاستشكالِ السَّفسَطيِّ! إذْ ما من مسألةٍ إلا وقد يُقالُ فيها: (ليس على العمــومِ)، وما من قاعدةٍ إلا وقد ينِدُّ منها فردٌ على خلافِ القاعدةِ، أو يأتي المتفردُ عن القاعدةِ الأمِّ على وجه استحسانٍ، أو لوجودِ قدرٍ فارقٍ، ممَّا تُخطِئُه النظرةُ العَجْلى.

خطورةِ الإغراقِ في الإشكالاتِ:

١- اهتزازُ صورةِ (الحقِّ) و (الرَّاجحِ)، والتَّساهلُ في ادِّعاءِ الخلافِ وإن لم يُحكَ فيها خلافٌ أصلًا.

٢- قد يترقَّى الاستشــكالُ مع الطالبِ إلى مرحلةِ الحُكمِ وتنقيحِ المناطِ، وهذا أمرٌ خطيرٌ لمَن هو في مُقتبَلِ العمرِ وأوَّلِ التفقُّهِ.

وبيانُه: أنَّ الاستشــكالَ غالبًا ما يقعُ في حيِّزِ الفهمِ، (فهو أمرٌ تصوُّريٌّ). أمَّا انتقالُه إلى درجةِ الحكمِ، وتنزيلُه على الواقعِ؛ (فهو أمرٌ تصديقيٌّ)، فهذا مكمنُ الخطرِ، تمنــعُ منه الأهليةُ الناقصةُ فــي العلمِ والاجتهادِ، وضعفُ التصوُّرِ الجُمليِّ لقضايا العِلم.

فإلفُ الاستشــكالِ -خاصَّةً مــعَ عدمِ المُجيــبِ والمتابعِ- يؤولُ إلى تعجُّلِ المتعلِّمِ لإصدارِ الأحكامِ، والدخولِ في مسائلَ مُشكِلةٍ، ويحاولُ تنزيلَها على واقعِ المسلمين.

وفي الواقعِ، نجدُ مَن انخرَط في تصنُّعِ الإشـكالاتِ، وشـغَل نفسَه بالاعتراضاتِ غاليًا فيها مِن طلاب العلمِ؛ نجدُه مِن أسرعِ الناسِ تفلُّتًا، ودخولًا في الفتنِ وتشرُّبِها!

٣- الجرأةُ على النقدِ، وفقدانُ الأدبِ معَ الكبارِ من أهلِ العلمِ:

خاصَّةً معَ ممارسةِ الجدلِ، والتتبُّعِ للمسألةِ، وجعلِها مركزيةً دوَّارةً على لسانِه، سيَّارةً في مجالسِه وأترابِه.

٤- تحوُّلُ الاستشكالِ إلى اعتراضٍ ونقدٍ ونَهْمَةٍ في التَّشكيك:

فالاستشـكالُ بابٌ للعلمِ، ويفتحُ الأذهانَ، لكنَّه قـد يؤولُ إلى آلةِ نقدٍ تدفعُ بالأفكارِ، وتعترضُ للاعتراضِ؛ ليتمحَّضَ الذِّهنُ ويعادُ تأسيسُه إلى الإنكارِ لا القبولِ، ودفعِ العلمِ لا أخذِه والاستفادةِ منه.

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فضيلةُ أحدِهم باقتدارِه على الاعتراضِ والقدحِ والجدلِ، ومن المعلومِ أنَّ الاعتراضَ والقدحَ ليس بعلمٍ ولا فيه منفعةٌ، وأحسـنُ أحوالِ صاحبِـه أن يكونَ بمنزلةِ العاميِّ، وإنَّما العلمُ في جوابِ السـؤالِ. وهذا أبـو عبد اللهِ الرَّازيُّ، من أعظمِ الناسِ في هذا البـابِ -بابِ الحَيرةِ والشَّـكِّ والاضطرابِ- لكنْ هو مُسرِفٌ في هذا البابِ؛ بحيثُ له نَهْمةٌ في التشكيكِ دونَ التحقيقِ)[1].

موقفُ المتعلم من الإشكالاتِ:

١- تقديـمُ ما حقُّه التقديمُ من مسـائلَ وقضايا؛ فلا يأتي إلى كبارِ المسـائلِ التي توقَّف فيها كبارُ المُحقِّقين ليقفَ أمامَها بعقلِه الذي هو طورُ التأهُّلِ.

(١) «مجموع الفتاوى» ٤/ ٢٧-٢٨ باختصار.

٢- التفريقُ بينَ الإشكالِ الذي يترتبُ عليه حكمٌ على الواقعِ ومسائلِ تحقيقِ المناطِ، وبينَ ما كان منها من قَبيلِ تصوُّرِ المسائلِ (ذهنيًا فقط).

٣- أن يعلمَ الطالبُ أنَّ أغلبَ الاستشكالاتِ التي تَعرِضُ له، تكونُ مُقارَنةً بما وقرَ أولًا، وبه يقعُ الاقتناعُ قوَّةً وضعفًا.

٤- التفرقةُ بينَ الإشكالِ الحقيقيِّ الواقعيِّ، والإشكالِ الذِّهنيِّ المدفوعِ بمتعةِ العلمِ ولذَّةِ احتواءِ الجانبِ المعرفيِّ. وقد لا يكونُ متعةً للذهنِ، فقد يكونُ من بابِ الرِّياضةِ الذهنيةِ.

٥- التمييزُ بينَ ما تُلحُّ الحاجةُ إليه، وبينَ ما يأتي تبعًا بالصبرِ، معَ اتِّساعِ المداركِ وتفتُّحِ العقلِ.

٦- أن يعلمَ أنَّ الاجتهادَ يتغيرُ، وأنَّ الآراءَ تختلفُ معَ التقدُّمِ في العلمِ والسِّنِّ:

يقولُ المازَريُّ رحمه اللهُ: (كم مِن عالمٍ نحريرٍ نصَر مذهبًا، حقًّا أو باطلًا، أكثرَ أيامِ عمرِه، وكان واثقًا من استدلالِه عليه، ثُمَّ انتقَل عنه إلى نقيضِه)[1].

---

(١) «إيضاح المحصول من برهان الأصول» ص١١٧.

المتعلم وآلةُ الواقع

في هذا الزمـــنِ، كثُرتِ النـــوازلُ وعمَّتْ، وأضحى الناسُ مـــن كثرتِها كأنَّهم يعيشون واقعًا يختلفُ كثيرًا عن الأمسِ، بل لستُ مبالغًا إذا قلتُ: يَحْيَونَ حياةً مختلفةً سلوكًا وفكرًا وذهنًا!

سمةُ الواقعِ

١- طغيانُ الآلةِ الحاسوبيّةِ:

ففي هذا الزمنِ، طغَت الآلةُ الحاسوبيةُ والإلكترونيةُ، ودخلَتْ شتى مجالاتِ الحياةِ، وتفرَّع عنه دخولُ العالمِ إلى عالمٍ رَحْبٍ بالشبكةِ الدوليةِ [الإنترنت] واستعمالُها في العلمِ والبحثِ، وانفتاحُ أُفُقٍ جديدٍ في العلمِ والتجربةِ؛ فتحوّلَتِ العلومُ، ولم تَعُدْ حِكرًا على فئةٍ أو شعبٍ أو دولةٍ.

ومِن أثرِ انتشارِ الآلةِ، وذيوعِ استعمالِ الشبكةِ الدوليةِ: أنَّ السائلَ لا يرجعُ إلى المفتي إلا بعدَ أن يكونَ قد بحث في الإنترنتِ قبلَها مرّاتٍ!

٢- دخولُ العالمِ إلى أُفُقٍ ونظريّاتٍ جديدةٍ:

وذلك في الفكرِ، والسياسةِ، وغيرِهما؛ ممَّا يُعَدُّ ثورةً علميةً على كثيرٍ من القديمِ.

٣- ارتفاعُ موجةِ الإلحادِ، والتفلُّتِ من الدِّينِ:

فمِن أخطرِ إفرازاتِ الواقعِ ارتفاعُ موجةِ الإلحادِ، ومُحاوَلةُ ربطِه بالعلومِ والدّراساتِ الأكاديميةِ، خاصّةً المدارسَ العالَميّةَ الأوربّيّةَ والأمريكيةَ، فيتلقَّفُها الطالبُ نبتةً صغيرةً في مُقتبَلِ عمرِه، وينشأُ عليها، وإذا به يجدُها شجرةً كبيرةً -في المرحلةِ الجامعيةِ وما بعدَها- قد سُقِيتْ بما يدعمُها من مُعلِّمينَ وباحثينَ ودراساتٍ.

٤- الولعُ بالحضارةِ الغربيةِ:

فممَّا زاد -كنتيجةٍ لبعضِ ممَّا سبَق- ولعُ الناسِ بالغربِ وعاداتِه حلوِها ومُرِّها، بغيرِ تصفيةٍ لشوائبِ الأفكارِ والسلوكِ.

٥- صراعُ الإعلامِ:

ففي هذا الزمنِ، معَ انفتاحِ البثِّ المباشرِ، وصراعِ الإعلامِ، و (سلطانِ الصُّورةِ) = باتَ الكثيرُ من أفرادِ هذا العالمِ يعيشُ على الإعلامِ علمًا وفكرًا، فأصبَح الإعلامُ مصدرَه وثقافتَه، يدندنُ حولَ ما يدندنون، ويُعبِّرُ كتعبيرِهم، ويُفكِّرُ بطريقتِهم.

٦- انفتاحُ شبكاتِ التواصلِ الاجتماعيِّ بينَ الناسِ:

أثرتْ مواقعُ التواصلِ الاجتماعيِّ بعضَ المجالاتِ في تقاربِ المعلومةِ وسرعةِ نشرِها، لكنَّ هذه البيئةَ امتدَّتْ إليها أيادٍ خبيثةٌ، وأشعَلتْ فيها قِيَمًا خاطئةً. والذي يهمُّنا هنا أن نقولَ: إنَّ الكثيرَ من الناسِ -ومنهم المُثقَّفون وطُلَّابُ العلمِ- يُمضُون أوقاتًا كثيرةً أسرى بينَ فكَّيْ هذه المواقعِ، فقد أصبَحتْ مصدرَ معلوماتٍ وقراءةٍ!

فبتَّ ترى بعينِكَ رحيلَ ذلك القارئِ النَّهِمِ المُستجمِعِ الذِّهنِ ليطَّلِعَ على الكتبِ، ويتابعَ المجلاتِ العلميةَ المُحكَّمةَ، والبحوثَ الجديدةَ، وأحدثَ الكتبِ والرسائلِ العلميةِ، وأفرَز ذلك الواقعُ سطحيَّةَ الفكرِ، وسرعةَ اتِّخاذِ القرارِ والحكمِ على الكاتبِ، وولعَ التصنيفِ للناسِ، والجرأةَ على الرَّدِّ والتعقُّبِ والإيرادِ.

ومن أشدِّ إفرازاتِه -في نظري- زوالُ هيبةِ العالمِ والمعلِّمِ، مُقابلةً بارتفاعِ رصيدِ السياسيِّ والمشهورِ ومُقدِّمِ البرامجِ، فنُتِجَ عن ذلك أيضًا الجرأةُ على الخوضِ في مسائلِ الشريعةِ وتقريراتِها، والأخذِ والرَّدِّ.

فكان لا بـدَّ من إبرازِ التصوُّرِ الشـرعيِّ، والتعاملِ في ضوءِ هـذه المُعطَياتِ السابقةِ، وفرضِ الإسلامِ بقُوَّةِ الحُجَّةِ وآلةِ البيانِ معَ هذا الواقعِ الشائكِ والمُعقَّدِ.

وأشدُّ ما يخشاه الحريصُ على دينِه أن يُساءَ الظَّنُّ بالدِّينِ والتشريعِ الإسلاميِّ؛ كأنْ يُرمَى بقصورٍ أو عُقمٍ تشـريعيٍّ يُحقِّقُ مقصدَ الإسـلامِ، أو أن تنالَ العالِمَ إساءةٌ؛ كرميِه بقصورِ العلمِ وضعفِ التصوُّرِ، أو سـوءِ الفهمِ؛ إذِ النَّوازِلُ كثيرةٌ، والمسـائلُ مُتشابِكةٌ.

حدَّثني أحدُ الإخوةِ ممَّن يدرسُ في بلادِ الغربِ أنَّ أبناءَ جلدتِه ومَن يدرسون معَه من أبناءِ الإسلامِ نحَا بعضُهم إلى الإلحادِ، وتمكَّن منه، وخرَج من الدِّينِ!! وعلَّل أخي ذلك بقولِه: (لأنَّه لم يجدْ مَن يُريحُه مِن هذه الشُّبهاتِ التي تُؤرِّقُه؛ في مجالِ نشأةِ الخلقِ، والمَقصَدِ من الحدودِ، والارتباطِ بالخالقِ، وعِدَّةِ قضايا مُتنوِّعةٍ).

ليتَ الأمـرَ توقَّف عندَ ذلك الحدِّ، بل قال: (أخَذْنا فـي البحثِ عن ردودٍ في مثلِ هذه المسائلِ بلغةِ العلمِ، وتُقرِّبُ فكرةَ الإيمانِ بخالقٍ؛ فلم نجدْ إلا ردودًا لبعضِ القساوسةِ، وهي أقوى المطروحِ آنذاكَ)! اهـ.

٧- بروزُ سلطانِ الجماهيرِ والثَّوراتِ.

٨- الحاجةُ إلى الإقناعِ، لا التسليةِ ودغدغةِ المشاعرِ:

لقد بات عصرُنا عصرَ فكرٍ وإقناعٍ، وإلا تفلَّت أبناءُ المسلمين؛ فكثيرٌ من حالاتِ الإلحادِ والرِّدَّةِ باعِثُها الفكرُ لا الشـهوةُ، والعقلُ القاصرُ لا حُبُّ التفلُّتِ للوصولِ إلى المَلاذِّ.

ومِن إشـكالياتِ ذلك: أنَّه لم يعدْ هناك سـقفٌ ولا أُطُرٌ للأطروحاتِ، وصار النِّـزاعُ في وجودِ الخالقِ بعـدَ أن كان في بعضِ التفاصيلِ على استحياءٍ، فلقد تغيَّر

الزمنُ حقيقةً، وتغيَّر أبناؤه، وتغيَّرتِ العقولُ، وما كان يُسكِتُ شخصًا في الماضي، أصبَح ابنُ هذا الزَّمنِ يزدريه! فتعيَّن الإقناعُ ومُخاطَبةُ الناسِ على قدرِ العقولِ.

٩- اهتزازُ صورةِ العلمِ الشَّرعيِّ، وعالمِ الشَّريعةِ:

وهـذا مِن أهمِّ ملامحِ الواقعِ، ولا يكادُ أحدٌ ينازعُ في ذلك؛ فبأقلِّ نظرةٍ يعقدُ المرءُ فيها مُقارَنةً، يجدُ مكانةَ كثيرٍ من علماءِ الشريعةِ قد هبَطتْ من سماءِ الاعتزازِ إلى سفحِ الإهمالِ والتنقُّصِ.

مُناكَفةُ الواقعِ

إذا كان الحديثُ عن طالبِ علمٍ يُواجِهُ واقعًا؛ كان لا بدّ من طرحِ آليّةٍ للمُواجَهةِ، وتذليلِ السُّبلِ لمعالجتِه، ومن ذلك:

١- الحرصُ على تصوُّرِ الواقعِ تصوُّرًا دقيقًا:

ويلزمُ منه عدمُ الخوضِ في المسائلِ الحادثةِ إلا بعدَ تصوُّرِها وتصوُّرِ أبعادِها بدقَّةٍ.

وممّا ينبغي التنبُّهُ له أنَّ الحضَّ على معرفةِ الواقعِ لا يعني قطعًا اندراجَه في العلومِ الطبيعيةِ، والخوضَ في السياسةِ ومُسايَرةَ أبناءِ الزمانِ في خوضِهم، كلَّا، بل المرادُ تصوُّرُ ما عليه الناسُ؛ بحيثُ يَسلَمُ له تنزيلُ أحكامِ الشريعةِ على الواقعِ المناسبِ.

ومن غيرِ المقبولِ أن يُقالَ: إنَّ العلماءَ يعيشون في برجٍ عاجيٍّ. رميًا لهم بانقطاعِهم عن الواقعِ؛ لعدمِ خوضِهم في كلِّ حدثٍ وحديثٍ.

وفي زمن الثوراتِ والفِتن الهوجاء يصحُّ أن يقال: إنَّ مولودَها مُبْتَسَرٌ غير ناضجٍ إلا من رحم الله؛ فعلمُ وليدِ الفتن مَشوبٌ بخليط من العلم والواقع وضوضاء السياسة، وزاحمت تحليلاتُ الساسة وأنماطهم قواعد العلم وقانونه في قلبه.

قديمًا قال أبو محمدٍ ابنُ حزمٍ رحمه اللهُ: (نُوّارُ الفِتنةِ لا يَعقِدُ)[1]. ففي الفتنِ

---

(١) «الأخلاق والسير» ص١٠٦. النُّوّارُ: زهرةُ الشَّجرِ والنَّباتِ. و لا يَعقِدُ: لا يتكاملُ =

نرى مظهرًا خادعًا في مبدئِه، قد يستحسـنُ الناسُ صورتَه ومولودَه وأبطالَه ومُحلِّليه، لكنْ كلُّ هذا سرابٌ؛ كنُوَّارِ الثَّمرِ الخادعِ، الذي يموتُ قبلَ أن يتفتحَ ويُثمِرَا!

٢- مُواكبةُ التطوُّرِ العلميِّ، والاستفادةُ من إمكاناتِه:

فينبغي للعالِمِ الخوضُ فـي آلةِ البحثِ والاطِّلاعِ المُتيسِّـرةِ، وأن يواكبَ زمانَه.

٣- الاطِّلاعُ على المعروضِ قبلَ الطَّرحِ:

وهنـا لفتةٌ مهمةٌ إلى أنَّ الزمنَ قد تغيَّر، وتُنُوقِلـتِ العلومُ، وتلاقَحتِ الفهومُ؛ فـلا ينبغي لعالمٍ أن يكـونَ بمعزِلٍ عن الإنتاجِ الغربيِّ، خاصَّةً ما كتبوه عن الإسـلامِ وتحدِّياتِه وإشـكاليَّاتِه؛ فلهم في هذا دراساتٌ وأبحاثٌ ونقاشاتٌ، تفيدُ في فهمِ سبلِ إقناعِهم، ومواجهةِ الغزوِ الفكريِّ ونحوِه.

فيجبُ على مَن أراد دفعَ الشبهاتِ التي يَصُدُّونَ بها الناسَ عن الدِّينِ التعمُّقُ في معرفةِ ما ينشـرون ويُروِّجون له، والتوصُّلُ بالدِّراسةِ العميقةِ إلى الأسبابِ الحقيقيةِ والدوافعِ التي تنشأُ عنها مقالاتُهم ومذاهبُهم.

وفي هذا يقولُ شـيخُ الإسـلامِ رحمه اللهُ: (معرفةُ المرضِ وسببِه يُعِينُ على مداواتِه وعلاجِه، ومَن لم يعرفْ أسبابَ المقالاتِ -وإن كانت باطلةً- لم يتمكنْ من مداواةِ أصحابِها، وإزالةِ شبهاتِهم)[1].

= أو يَنضَجُ. اهـ من حاشـيةِ مُحقِّقِه. وذكَر أيضًا ما مفـادُه: وهي حكمةٌ عظيمةٌ من نتاجِ فكرِ الإمـامِ ابنِ حزمٍ -رحمه اللهُ- الذي عاصَر فتنةَ البربرِ في الأندلسِ، ورأى بنفسِـه كيفَ أنَّ الناسَ يَعقِدون على كلِّ ثائرٍ وثورةٍ وشـرارةِ فتنةٍ جديدةٍ، آمالًا كبيرةً في الإصلاحِ والتغييرِ! ولكنْ سَرعانَ ما تتحولُ الآمالُ إلى مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدميرٍ!

(١) «الرد على البكري» ١/ ١٨٢.

٤- البُعدُ عن الفتوى الفرديّةِ، والتَّصوُّرِ الفرديِّ قدرَ الإمكانِ:

فالأمورُ قد تشابَكَ طرَفاها، واستَجمَعتْ أذرعُها، وأضحَتِ النظرةُ الفرديةُ للمسائلِ تكادُ تكونُ صعبةً جدًّا.

فما من مسألةٍ إلا وتتَّصلُ بها أخرى، فيزيائيًّا وكيميائيًّا وأحيائيًّا وتاريخيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا... وأنَّى لعالِمٍ أن يُتاحَ له من العمرِ استكناهُ ذلك واستيعابُه؟! فضلًا عن إبرازِ الحُكمِ الشرعيِّ والتفسيرِ الإسلاميِّ لذلك!

٥- براعةُ التّوظيفِ لمادّةِ العلمِ:

فليس الشأنُ الآنَ تحصيلَ المادَّةِ؛ فقد سهُلَ الحصولُ عليها بطرقٍ مُتنوِّعةٍ، فأصبَحَ التحدِّي الكبيرُ منحصرًا في تحقيقِ المناطِ على واقعٍ مناسبٍ ملائمٍ للحكمِ والاستنباطِ.

قد يدَّعي كثيرون العالِميَّةَ والتمكُّنَ بشكلٍ أو آخرَ، لكنَّ الامتحانَ الحقيقيَّ هو في حسنِ التوظيفِ والتأليفِ بينَ الواقعِ ومُعطَياتِه كأرضٍ خصبةٍ لدليلٍ صحيحٍ.

وليس من المقبولِ أبدًا أن تكونَ عقليَّةُ التعاملِ معَ المُخالِفِ القديمِ كالمُخالِفِ المُعاصِرِ، وردُّ الشبهةِ البائدةِ كرَدِّ الشبهةِ الحاضرةِ؛ فلئنْ شرَّقتْ صفحاتُ الإنترنتِ والتواصلِ بالناسِ وغرَّبتْ، فإنَّ العقولَ أيضًا مسَّها ذلك، وأثَّر في آليَّةِ تعاملِها معَ الدِّينِ والشريعةِ، وسرَى إليها لحنُ العقلِ الغربيِّ!

طالبُ العلمِ في فضاءِ الإنترنتِ

الشـبكةُ العالميةُ بحرٌ لا ساحلَ له، وبها الغثُّ والسمينُ، وفيها مادّةٌ قويةٌ تعينُ الطالبَ، وتكونُ سـببًا في سـهولةِ الحصولِ على المعلومةِ، وبإمكانِه الاستفادةُ من (الإنترنت)، كالتالي:

١- سماعُ مادَّةٍ صوتيَّةٍ (عبرَ الجوَّالِ) بالسَّمَّاعةِ.

٢- الاشتراكُ في مجموعةٍ علميةٍ للمُذاكَرةِ عبرَ مواقعِ التواصلِ الاجتماعيِّ.

٣- حضورُ مجالسِ العلماءِ عبرَ البثِّ المباشرِ.

٤- تحميلُ الكتبِ المُتاحةِ التي يَصعُبُ اقتناؤُها.

٥- تحميلُ الدُّروسِ العلميةِ والشُّروحِ التي تُعنَى بالمنهجيةِ.

٦- سؤالُ العلماءِ ومُتابَعتُهم عبرَ حساباتِهم ومواقعِهم.

التَّعلُّمُ على الشُّروحِ الصَّوتيَّةِ المُسجَّلةِ

الأصلُ في تلقِّي العلمِ هو المُشـافَهةُ والمُجالَسـةُ، وإذا تعـذَّر ذلك لجأ إلى الشُّروحِ الصوتيةِ معَ تدوينِ الفوائدِ على الكتبِ. وقد رأيتُ في تراجمِ بعضِ الأفاضلِ مِن هذا الجيلِ قولَه: تعلَّمتُ على أشـرطةِ الشَّـيخِ ابنِ بازٍ، أو الشَّـيخِ ابنِ عُثَيمينَ رحمهما اللـهُ. فلا ملامةَ عندَ تعذُّرِ الوصولِ إلى العالمِ إذا أحضَر الطالبُ النُّسـخةَ وقيَّد الفوائدَ والتَّعقُّباتِ والأمثلةَ.

فيحرصُ مثلًا على سماعِ سلاســلِ وشروحِ بعضِ العلماءِ ممَّن عُرِفَ بالجادَّةِ العلميةِ، وكثُرت شروحُهم وتأصيلاتُهم وتوفَّرتْ.

مُخطّطٌ لمرحلتَيِ
التّأصيلِ العلميِّ، واستكمالِ التّكوينِ

فـي هذا المبحثِ تخطيطٌ لفكـرةِ المدارجِ عبرَ التأصيلِ والاسـتكمالِ، وفيه تصوُّرٌ دقيقٌ مُجدوَلٌ كي يسـهلَ اسـتيعابُه، وفيه فوائدُ لا يسـتغني عنها مَن شرَع في العلمِ؛ كالتنبيهِ على بعضِ ما يفوتُ الطالبَ مِن فنونٍ وكتبٍ ليتداركَها.

أولًا: مُخطّطٌ تفصيليٌّ لبرنامجِ التّأصيلِ العلميِّ

يقومُ البرنامـجُ التأصيليُّ على ٨ متونٍ علميةٍ، وكتـابِ «حِلْيةِ طالبِ العلمِ»، تُعتبرُ أوّليّاتِ العلمِ، وهي المرحلةُ الأُولَى في مدارجِ الطلبِ:

١- «ثلاثةُ الأصولِ» للشّيخِ محمدِ بنِ عبد الوهابِ رحمه اللهُ.

٢- «كتابُ التوحيدِ» للشّيخِ محمدِ بنِ عبد الوهابِ رحمه اللهُ.

٣- «العقيدةُ الواسطيّةُ» لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميّةَ رحمه اللهُ.

٤- «منهجُ السّالكينَ» للشّيخِ عبد الرّحمنِ بنِ سِعْديٍّ رحمه اللهُ.

٥- «أصولُ التّفسيرِ» لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميّةَ رحمه اللهُ.

٦- «المُقدّمةُ الآجُرُّوميّةُ في النّحوِ» لابنِ آجُرُّومَ رحمه اللهُ.

٧- «نُخبةُ الفِكَرِ» للحافظِ ابنِ حجرٍ رحمه اللهُ.

٨- «الورقاتُ في أصولِ الفقهِ» للجوينيِّ رحمه اللهُ.

٩- «حِلْيةُ طالبِ العلمِ» للشَّيخِ بكرِ بنِ عبد اللهِ أبو زيدٍ رحمه اللهُ.

أمّا تفاصيلُ هذا المنهجِ فهي:

١- هذا المنهجُ يعتمدُ على الدِّراسةِ على شيخٍ، لا القراءةِ المُجرَّدةِ.

٢- اعتمادُ كتابِ «حِلْيةِ طالبِ العلمِ» كمُقدِّمةٍ لكلِّ مجلسٍ.

٣- إذا تمَّ عقدُ البرنامجِ في مجلسٍ واحدٍ أسبوعيًّا؛ فإنَّه حينئذٍ يستغرقُ عامينِ تقريبًا، وإذا تمَّ في مجلسينِ أسبوعيًّا؛ فسيستغرق عامًا تقريبًا للمُتفرِّغِ، الجامعِ الهمِّ، المُتوفِّرِ العزيمةِ على الطلبِ.

٤- التركيزُ على حقيقةِ العلمِ، معَ الإيجازِ والاختصارِ، وعدمِ الخروجِ عن المتنِ المُقرَّرِ.

٥- إشغالُ الطالبِ بعدَ الدَّرسِ بمراجعةِ الشُّروحِ والحواشي، وإثراءِ ما يتلقَّاه في الدرسِ على مدى الأسبوعِ.

٦- عقدُ اختبارٍ شاملٍ لكُلِّ متنٍ يُنتهَى منه، ويعتمدُ الطالبُ في المذاكرةِ على ما سجَّله عن المعلِّمِ في مجلسِ الشَّرحِ، وبعضِ الشُّروحِ المُعتمَدةِ في كلِّ متنٍ، ويكونُ التركيزُ على فَتْقِ ذهنِ الطالبِ ومُعالَجةِ كتبِ الشُّروحِ عليها بعدَ إتمامِ دراستِه في المجالسِ.

وفيما يلي الجدولُ الزَّمنيُّ المُقترَحُ لإنهاءِ المتونِ التأصيليةِ التي هي أَوَّليَّاتُ العلمِ ومُقدِّماتُه، معَ تفاصيلَ للبرنامجِ.

جدولٌ توضيحيٌّ

م	المتن التأصيلي	تفاصيل الدرس	عدد المجالس	الزمن
١	ثلاثة الأصول	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة ثلاثة الأصول: (١,٥) ساعة	٣	٣ أسابيع
٢	كتاب التوحيد	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة. كتاب التوحيد: (١,٥) ساعة	١٢	١٢ أسبوعًا
٣	العقيدة الواسطية	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة العقيدة الواسطية: (١,٥) ساعة	٦	٦ أسابيع
٤	منهج السالكين	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة منهج السالكين: (١,٥) ساعة	٤٤	٤٤ أسبوعًا
٥	أصول التفسير	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة أصول التفسير: (١,٥) ساعة	٤	٤ أسابيع
٦	المقدمة الآجرومية	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة المقدمة الآجرومية: (١,٥) ساعة	١٠	١٠ أسابيع
٧	نخبة الفكر	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة نخبة الفكر: (١,٥) ساعة	٨	٨ أسابيع
٨	الورقات	حلية طالب العلم: (١٥) دقيقة الورقات: (١,٥) ساعة	٨ + ١	٩ أسابيع
		الإجمالي	٩٦	٩٦ أسبوعًا = عامان

ثانيا: مُخطَّطٌ تفصيليٌ لمرحلةِ استكمالِ التَّكوينِ[1]

النَّظريَّةُ الأولَى: نظريَّةُ التَّكرارِ، وأثرُها في التَّأصيلِ:

نظريـةُ التَّكرارِ تعني أنَّ التَّكرارَ في كتبِ أهـلِ العلمِ كثيرٌ جدًّا، وقد وصَل في بعضِ الفنونِ إلى نسبةِ ٩٩٪، وهذه نسـبةٌ خطيرةٌ ومُؤثِّرةٌ في منهجِ الطَّلبِ؛ إذْ تُوحِي للمتعلِّـمِ أنّه ليس مُحتاجًا لقراءةِ كلِّ هذه الكتـبِ، وأنَّ ١٪ من المعلوماتِ يكفيه بل ويجعلُه مُلِمًّا بكلِّ مسـائلِ الفنِّ، لكـنَّ المُهِمَّ: أين تجدُ هذا الواحـدَ في المائةِ غيرِ المُكرَّرِ؟

هذه النَّظريَّةُ لها إشـارةٌ قرآنيةٌ في سـورةِ التكاثرِ، في قولِـه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، وقد أشـار لذلك الخليفةُ الرَّاشـدُ عليُّ بنُ أبي طالـبٍ -رضي اللهُ عنه- في قولِه: العلـمُ قطرةٌ كثَّرها الجاهلون. أخرَجه ابنُ عبد البـرِّ في (جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه).

والعلماءُ يقولون: لو سكَت مَن لا يعلمُ؛ لقَلَّ الخلافُ. ومعلومٌ أنَّ الحقَّ واحدٌ ولو سكَت المخالفُ للحقِّ؛ لقلَّ الخلافُ والنِّقاشاتُ التي لا داعيَ لها، وامتلأتْ بها كتبُ أهلِ العلمِ من أقوالٍ شاذَّةٍ وضعيفةٍ!

وهـذا يعني التركيـزَ على كتبِ أهلِ العلـمِ الأصيلةِ في البـابِ ذاتِ المنهجِ الصحيحِ واختيارَ أفضلِها ثم التركيزَ عليه بالدَّرسِ والتَّكرارِ والاستحضارِ.

وبنـاءً على هذا، فيُختارُ كتابٌ واحدٌ في كلِّ فنٍّ، ويُركَّزُ عليه في منهجِ الطلبِ، فيخرجُ لنا كتابٌ واحدٌ في كلِّ فنٍّ، بحسَبِ عددِ الفنونِ.

(١) هذا المنهجُ راسلني به مُعدُّهُ فضيلةُ الشيخِ الدكتورِ عبد اللهِ بنِ مُبارَكٍ آلِ سيفٍ -وفَّقه اللهُ، وجزاه خيرَ الجزاءِ، واقتصرت منه على ما يفيدُ في استكمالِ التكوينِ العلميِّ.

النظريةُ الثانيةُ: التكرارُ في القراءةِ:

ومُلخَّصُ هذه النَّظريَّةِ أنَّ القارئَ يقرأُ الكتابَ المُختارَ في البابِ عشـرَ مرَّاتٍ قراءةَ تركيزٍ وتمعُّنٍ وفهمٍ واستيعابٍ:

القراءةُ الأولى: يُتوقَّعُ أن يثبتَ فـي الذِّهنِ منها ١٠٪، والقراءةُ الثَّانيةُ ٢٠٪، والثَّالثـةُ ٣٠٪... والعاشـرةُ ١٠٠٪ تقريبًا، فيحفظُ معانيَ الكتـابِ وإن لم يحفظْ ألفاظَه.

والعلمـاءُ يقولون: صاحبُ الكتابِ يغلبُ صاحبَ الكتبِ؛ أي أنَّ مَن قرأ كتابًا واحدًا وأتقَنه؛ صار أقوى ممَّن قرأ عشرةَ كتبٍ مُتشابِهةٍ في نفسِ الموضوعِ.

قراءةُ كتابٍ يتكونُ مِن ٣٥٠ صفحةً، في العادةِ يسـتطيعُ طالبُ العلمِ المُتفرِّغُ أن يقرأه فـي يومٍ واحدٍ للمُتعوِّدِ على القراءةِ، وخاصَّةً معَ التدريبِ، وقد درَّبتُ بعضَ الشبابِ على ذلك فأمكَنَهم ذلك بسهولةٍ.

وهذا يعني أنَّه يمكنُ قراءةُ ثلاثةِ كتبٍ تأصيليةٍ خلالَ شهرٍ واحدٍ بتركيزٍ بمُعدَّلِ عشرةِ أيَّامٍ لكلِّ كتابٍ.

النَّظريَّةُ الثَّالثةُ: التَّفرُّغُ التَّامُ والانقطاعُ في بيئةٍ علميَّةٍ مُناسِبةٍ:

العلماءُ يقولون: التركيزُ يُولِّدُ النَّجـاحَ، والتفرُّغُ التَّامُّ والانقطاعُ في بيئةٍ علميةٍ مُناسِبةٍ يسـاعدُ على نجاحِ التجربةِ. والانقطاعُ التَّامُّ للطلبِ بقدرِ الإمكانِ يعني توفيرَ بيئةٍ علميةٍ مناسبةٍ بعيدةٍ عن مشاغلِ الحياةِ وصوارفِها.

عدمُ تطبيقِ نظريةِ التركيزِ والانقطاعِ يعني التشـتُّتَ وضياعَ المعلومةِ من فترةٍ لأخرى ونسـيانَها معَ بُعدِ العهدِ. فهي مثلُ الذي يحفرُ بئـرًا فإن كان الحفرُ مُتواصِلًا وصلَ للماءِ في فترةٍ وجيزةٍ وإن كان مُتقطِّعًا استغرَق وقتًا أطولَ بحسَبِ الانقطاعِ.

ولهذا يُقتــرَحُ أن يكونَ هناك مكانٌ مُناسِــبٌ في بيتٍ علمــيٍّ مُهيَّإٍ من جميعِ النواحي ويجتمعُ فيه عددٌ مُناسِبٌ للتعاونِ على الطلبِ والانقطاعِ له.

النظريةُ الثالثةُ: نسبةُ المُشكِلِ في كلامِ أهلِ العلمِ:

المُشــكِلُ في كلامِ أهلِ العلمِ قليلٌ وليس بالكثيرِ، فالطالبُ يقرأُ في الصفحةِ الكاملةِ فلا يُشكِلُ عليه منها إلا عددٌ محدودٌ بنسبةِ ١-١٠٪، ونستفيدُ من هذه النظريةِ ما يلي:

أنَّــه يمكنُ للطالبِ قراءةُ الواضحِ من كلامِ أهلِ العلمِ ليختصرَ بذلك ٩٠٪ من الوقتِ، ويجمعَ المُشكِلَ على شكلِ تساؤلاتٍ مكتوبةٍ، ثم تُحَلُّ هذه الإشكالاتُ من خلالِ أمرينِ:

الأولُ: لقاءٌ بينَ الطَّلبةِ يوميٌّ للمُذاكَرةِ في الكتابِ وحَلِّ مُشكِلِه.

الثاني: لقاءٌ علميٌّ أسبوعيٌّ معَ مُتخصِّصٍ من علماءِ التَّخصُّصِ في مجالِ الفنِّ ويُسألُ فيها عن المُشكِلاتِ وتُطرَحُ عليه الاستفساراتُ، وهذه اللقاءاتُ في كلِّ أسبوعٍ يُرتَّبُ لها معَ طلبةِ علمٍ أقوياءَ.

ولا ننســى أنَّ هذا البرنامجَ مُوجَّهٌ للمُتخرِّجينَ من الجامعةِ، وهذه الشَّــريحةُ يُفترَضُ فيها أنَّها دارســةٌ لكثيرٍ من الفنونِ في كُلِّيَّاتِها الشَّرعيَّةِ على علماءَ مُتخصِّصينَ في مجالِهم، فهم في النهايةِ حضَروا دروسَ أهلِ العلمِ في المساجدِ أيضًا وتلقَّوا على الشيوخِ في الثَّانويَّةِ والجامعةِ.

النَّظريَّةُ الرَّابعةُ: الجمعُ بينَ حضورِ دروسِ أهلِ العلمِ، والقراءةِ الفرديَّةِ:

وهذه النظريةُ تقترحُ الاســتماعَ لدرسٍ علميٍّ في الكتابِ الذي تريدُ قراءتَه في يومٍ كاملٍ مُركَّزٍ، معَ كتابةِ جميعِ الإشكالاتِ التي أشكَلتْ عليكَ في فهمِ الدرسِ، ثم

تعرضُ الإشكالاتِ في لقاءِ حَلِّ الإشكالاتِ العلميةِ الأسبوعيِّ.

وهذه الطريقةُ تجمعُ بينَ الاستماعِ لدروسِ أهلِ العلمِ، والقراءةِ الفرديَّةِ، فكأنَّ الطالبَ حضرَ معَ الشَّيخِ واستمَعَ له في درسِه، وخاصَّةً مَن لا يتيسرُ لهم في بلدانِهم دروسٌ أو كُلِّيَّاتٌ شرعيةٌ. والدروسُ الصوتيةُ والمرئيةُ مُتوفِّرةٌ -بحمدِ اللهِ- في كثيرٍ مِنَ التخصُّصاتِ العلميةِ، وبناءً على هذا فإذا كانت دروسُ الشَّرحِ الصوتيِّ ثلاثينَ ساعةً؛ فهذا يعني الحاجةَ لثلاثةِ أيَّامٍ أو يومينِ لسماعِها فتكونُ من ضمنِ البرنامجِ، وعندَ تعدُّدِ الدُّروسِ في مجالٍ واحدٍ فالأَوْلى أن يُختارَ الوسطُ إذا كان هناك أكثرُ من درسٍ ويختارُ أوضحَها أسلوبًا وأكثرَها سلاسةً وسهولةً وتأصيلًا علميًّا.

هذه الطريقةُ يُفترَضُ أن تسبقَ برنامجَ القراءةِ الفرديةِ؛ لتفتحَ الأذهانَ لفهمِ الكتابِ في برنامجِ القراءةِ الفرديةِ.

النَّظريَّةُ الخامسةُ: كتبُ تأصيلٍ، وكتبُ قراءةٍ وجَرْدٍ:

تقومُ هذه النظريةُ على التفريقِ بينَ كتبِ التأصيلِ -التي تُقرَأُ عشرَ مرَّاتٍ- والكتبِ التي تُقرَأُ للجردِ والاطِّلاعِ مرَّةً واحدةً، ولذا فسوف تجدُ قائمةً في البرنامجِ لكتبِ الجردِ وقائمةً لكتبِ التأصيلِ العلميِّ.

ومُرفَقٌ في الملفِّ قائمةٌ لكتبِ الجردِ العلميِّ في التخصُّصِ على ثلاثِ مستوياتٍ، وتُطبَّقُ طريقةُ الجردِ بعدَ انتهاءِ البرنامجِ.

فكتبُ التأصيلِ العلميِّ كتبٌ مهمةٌ، ولا يُستغنَى عنها في التأصيلِ في التخصُّصِ، بينَما كتبُ الجردِ تُوسِّعُ الاطلاعَ على الفنِّ ومسائلِه.

النَّظريَّةُ السَّادسةُ: الاستفادةُ من نظريَّةِ المجموعةِ في التَّأصيلِ:

تقومُ الفكرةُ على نظريةٍ علميةٍ، هي: أنَّ طلبَ العلمِ شاقٌّ، ويحتاجُ إلى حافزٍ

قويٌّ ومُؤثِّر، وهذا الحافزُ هو وجودُ نُظَراءَ للمتعلِّمِ في السِّـنِّ مِن خلالِ مجموعةٍ من الطلبةِ المُتقارِبينَ في السِّـنِّ ليُشعِلَ بينَهم رُوحَ المنافسةِ، ويتعاونون على الابتعادِ عن المُلهياتِ من جوّالاتٍ وأجهزةٍ وغيرِها. وبالتجربةِ تبيَّن أنَّ مَن معَه شخصٌ يُعينُه على الطلبِ أدعى للاستمرارِ ممَّن ليس له مَن يُعِينُه على الطلبِ وخاصَّةً معَ كثرةِ المُلهياتِ في هذا الزمانِ.

فكرةُ مجلسِ حَلِّ الإشكالاتِ الأسبوعيِّ:

فكرتُه: مجلسٌ أسبوعيٌّ لمُدَّةِ ساعتينِ مُرتَّبٌ معَ طلبةِ علمٍ أقوياءَ في التخصُّصِ لحَلِّ الإشكالاتِ التي تَعرِضُ للطلبةِ في أثناءِ القراءةِ الفرديةِ، يُجمَعُ فيه جميعُ الطلبةِ للاستماعِ لإشكالاتِهم.

الهدفُ من هذه النَّظريَّةِ:

١- تنميــةُ الارتباطِ بأهلِ العلمِ والحاجةِ لهم في حَلِّ المُعضِلاتِ، وعدمُ الخروجِ عن رأيِهــم وتوجيهِهم، وبيانُ معرفةِ مكانةِ العلماءِ مــن خلالِ إدراكِ الطالبِ لقدرتِهم على حَلِّ الإشكالاتِ وحاجتِه لهم.

٢- حَلُّ الإشكالاتِ التي تَعرِضُ للطلبةِ في أثناءِ القراءةِ.

٣- تنميةُ الملَكةِ العلميةِ، والغوصُ في أســرارِ العلــمِ من خلالِ النِّقاشِ والحوارِ والتوجيهاتِ التي يتلقَّوْنها في اللقاءِ.

٤- مُراقَبةُ فهمِ الطلبةِ، وقياسُ التجربةِ، ومعرفةُ مدى نجاحِها؛ لأنَّها ما زالتْ تجربةً وليدةً تحتاجُ لإنضاجٍ وتعديلِ مسارٍ حتى تصلَ للمرجوِّ منها.

٥- اســتفادةُ الطلبةِ من الإشــكالاتِ التي يطرحُها زملاؤُهم ولم ينتبهوا لها، ممَّا يُنمِّي فهمَ العلمِ والرُّسوخَ فيه تدريجيًّا.

منهجُ القراءةِ (منهجُ جَرْدِ الكتبِ):

هـذه المنهجُ مُقترَحٌ للتوسُّـعِ، ويُعمَلُ بـه بعدَ الانتهاءِ من برنامـجِ التّأصيلِ العلميِّ السابقِ، وهذا يساعدُ على الرسـوخِ في العلمِ والتمكُّنِ فيه، وهو مُقسَّمٌ على ثلاثِ مسـتوياتٍ، ويختارُ منها الطالبُ ما يناسبُ مستواه، ويحاولُ تجنُّبَ التّكرارِ في الاختيارِ إذا تكرَّر معَ ما قرأه سابقًا في البرنامجِ:

١- العقيدةُ:

المستوى الأولُ:

- «كتابُ التوحيدِ».
- «كشفُ الشُّبُهاتِ».
- «ثلاثةُ الأصولِ».

المستوى الثاني:

أ- «قُرَّةُ عيونِ المُوحِّدينَ».

ب- «إبطالُ التَّنديدِ».

ت- «العقيدةُ الواسطيَّةُ».

المستوى الثالثُ:

أ- «فتحُ المجيدِ»، أو «تيسيرُ العزيزِ الحميدِ».

ب- «الرَّوضةُ النَّديَّةُ شرحُ العقيدةِ الواسطيَّةِ».

ت- «شرحُ ابنِ عُثَيمينَ على العقيدةِ الواسطيَّةِ».

ث- «معارجُ القَبولِ».

ج- «شرحُ الطحاويَّةِ» لابنِ أبي العِزِّ الحنفيِّ.

ح- «مُختصَرُ مِنهاجِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ».

خ- «مُختصَرُ الصَّواعقِ».

د- «لوامعُ الأنوارِ البهيَّةِ شرحُ السَّفَّارينيَّةِ».

ذ- «موسوعةُ الأديانِ والمذاهبِ المُعاصِرةِ».

٢- التفسيرُ:

المستوى الأولُ:

أ- «تفسيرُ السَّعْديِّ».

المستوى الثاني:

أ- «فتحُ القديرِ».

ب- «زاد المسيرِ».

المستوى الثالثُ:

- «تفسيرُ ابنِ كثيرٍ».
- «تفسيرُ القرطبيِّ».

٣- علومُ القرآنِ:

- «شرحُ أصولِ التفسيرِ» لابنِ قاسمٍ [شرحٌ لأصولِ التفسيرِ لابنِ تيميَّةَ].
- «التحبيرُ في علمِ التفسيرِ» للسيوطيِّ.

- «البرهانُ في علومِ القرآنِ» للزَّركشيِّ.
- «الإتقانُ في علومِ القرآنِ» للسيوطيِّ.
- «مناهلُ العرفانِ» للزُّرْقانيِّ.

٤- الحديثُ:

المستوى الأولُ:

أ- «رياضُ الصَّالحينَ».

ب- «الترغيبُ والترهيبُ».

ت- «مُختصَرُ صحيحِ البخاريِّ».

ث- «مُختصَرُ صحيحِ مسلمٍ» للمُنذِريِّ، أو القرطبيِّ.

ج- قراءةُ مشروعِ السُّـنَّةِ كاملًا بجميعِ مُذكِّراتِه [أكثرُ مِن خمسينَ كتابًا من كتبِ السُّنَّةِ].

ح- قراءةُ الكتبِ التِّسعةِ.

المستوى الثاني:

أ- «طرحُ التَّثريبِ».

ب- «بلوغُ المرامِ» معَ أحدِ شروحِه؛ مثلَ «سُبُلِ السَّلامِ».

المستوى الثالثُ:

أ- «فتحُ الباري».

ب- «شرحُ النَّوويِّ على صحيحِ مسلمٍ».

ت- «عونُ المعبودِ»، و «التَّمهيدُ».

ث- «عَارِضةُ الأَحْوذيِّ».

ج- «نيلُ الأوطارِ».

ح- «شرحُ السُّنَّةِ».

خ- «شرحُ عِلَلِ التِّرمذيِّ» [علمُ العِلَلِ].

د- قراءةُ «الخُلاصةِ» للخزرجيِّ، أو «التَّقريبِ» لابنِ حجرٍ.

٥- الفقهُ: المذهبُ الحنبليُّ:

المستوى الأولُ:

- «الرَّوضُ المُربِعُ».
- «منارُ السَّبيلِ».
- «العُدَّةُ شرحُ العُمْدةِ».
- «الشَّرحُ المُمتِعُ» لابنِ عُثَيمينَ.

المستوى الثاني:

- «كشَّافُ القِناعِ».
- «شرحُ مُنتهَى الإراداتِ».

المستوى الثالثُ:

- «المُغنِي».
- «الإنصافُ».

٦- المصطلح:

المستوى الثاني:

أ- «نُزْهةُ النَّظرِ شرحُ نُخْبةِ الفِكَرِ» لابنِ حجرٍ.

ب- «المُوقِظةُ» للذَّهبيِّ.

ت- «التقييدُ والإيضاحُ» للعراقيِّ.

ث- «اختصارُ علومِ الحديث» لابنِ كثيرٍ.

ج- «النُّكَتُ على ابنِ الصَّلاحِ» لابنِ حجرٍ.

ح- «تدريبُ الرَّاوي».

٧- أصولُ الفقهِ:

المستوى الثاني:

أ- «مُذكِّرةُ الشِّنقيطيِّ».

ب- «شرحُ ابنِ عُثَيمينَ لنظمِ الورقاتِ».

المستوى الثالثُ:

أ- «شرحُ مُختصَرِ الرَّوضةِ».

ب- «شرحُ الكوكبِ المنيرِ».

ت- «المُسوَّدةُ».

ث- «المُوافَقاتُ».

ج- «البحرُ المحيطُ».

٨- القواعدُ الفقهيةُ:

المستوى الأولُ:

أ- «شرحُ منظومةِ السّعديِّ في القواعدِ».

ب- «القواعدُ والأصولُ الجامعةُ» للسّعديِّ.

ت- «شرحُ منظومةِ الأهدلِ».

ث- «القواعدُ الكُلّيّةُ» للبورنو.

ج- «القواعدُ النُّورانيّةُ».

المستوى الثالثُ:

أ- «الأشباهُ والنظائرُ» للسيوطيِّ.

ب- «القواعدُ» لابنِ رجبٍ.

ت- «طريقُ الوصولِ» للسّعديِّ.

٩- تخريجُ الفروعِ على الأصولِ:

المستوى الأولُ:

أ- «مِفتاحُ الوصولِ» للتِّلِمْسانيِّ.

المستوى الثاني:

أ- «القواعدُ والفوائدُ الأصوليةُ» لابنِ اللّحّامِ.

ب- «تخريجُ الفروعِ على الأصولِ» للزّنْجانيِّ.

ت- «التّمهيدُ» للإسنويِّ.

١٠- التاريخُ:

المستوى الأولُ:

أ- «التاريخُ الإسلاميُّ» لمحمود شاكر.

المستوى الثاني:

أ- «البدايةُ والنهايةُ».

ب- «الكامل» لابنِ الأثيرِ.

١١- السيرةُ:

المستوى الأولُ:

أ- «تهذيبُ السيرةِ» لعبد السلامِ هارون.

ب- «الرحيقُ المختومُ».

المستوى الثاني:

أ- «السيرةُ النبويةُ» لابنِ هشامٍ.

ب- «السيرةُ النبويةُ الصحيحةُ».

١٢- النَّحوُ:

المستوى الأولُ:

أ- «الآجُرُّوميَّةُ»، معَ شروحِها.

المستوى الثاني:

أ- «قطرُ النَّدى».

المستوى الثالثُ:

«شرحُ ابنِ عَقِيلٍ».

١٣- الصَّرفُ:

- «شرحُ لاميَّةِ الأفعالِ».
- «المِفْتاحُ في الصَّرفِ» للجرجانيِّ.

***

إشكالٌ، وجوابُه:

قد يُقالُ: إنَّ هـذه الطريقةَ تُبعِدُ طلبةَ العلمِ عن طريقةِ السلفِ في التلقِّي عن العلماءِ.

والجوابُ عن ذلك من عدَّةِ أوجهٍ:

١- أنَّها مُوجَّهةٌ للخِرِّيجينَ من الكُلِّيَّاتِ الشرعيةِ، وهذه الشريحةُ المُتوقَّعُ منها أنَّها أنهَتِ الدراسةَ الجامعيةَ في كثيرٍ من الفنونِ الشرعيةِ على مُتخصِّصينَ في العلومِ الشرعيةِ، فصار عندَهم معرفةٌ جيِّدةٌ في أغلبِ هذه الفنونِ، والمطلوبُ منه الآنَ تثبيتُ ما تعلَّمه بطريقةٍ مُعيَّنةٍ، وتعلُّمُ المزيدِ.

٢- أنَّ هـذا البرنامجَ له طلبةُ علمٍ يُشرِفون على المتعلِّمين، يُوجِّهونهم ويُجيبون على أسئلتِهم واستفساراتِهم اليوميةِ.

٣- البرنامجُ الأسبوعيُّ معَ أحدِ العلماءِ لكشفِ مغاليقِ العلمِ التي أشكَلَتْ عليهم، وشرحِ المُشكِلِ من المسائلِ.

٤- البرنامجُ لمُدَّةِ سـنةٍ، وبعدَها يتفـرغُ الطالبُ لملازمـةِ دروسِ العلمِ والعلماءِ بعدَ أن أخذ حصيلةً جيِّدةً تُعِينُه على فهمِ دروسِ العلماءِ.

٥- هذا الترتيبُ جانـبٌ تنظيميٌّ وتكامليٌّ معَ الطُّـرقِ الأخرى في طلبِ العلم، ولا يُلغِي الطرقَ الأخرى في الطلبِ.

الخَاتِمَة

وكأنَّ القلـمَ يأبى أن يغـادرَ قبلَ أن يكتـبَ حقيقةَ المعنى الكامـنِ بينَ هذه الورقاتِ حتى يُجلَـى في ذيلِها؛ ليدلَّ الناظرَ على خلاصةٍ أُخِّرت كتابتُها؛ لتكشـفَ مكنونَ الألفاظِ وحرارةَ المعاني وزبدتَها.

تذكَّر يا طالبَ المدارجِ:

* أنَّ العلمَ دِينٌ..

وتحصيلُه منوطٌ باجتهادِكَ وأمانتِكَ، وتعظيمِكَ لجنابِه، ورفعِكَ لجميلِ مقامِه؛ فاصدَعْ بينَ الأنامِ بفضلِه، وتجرَّعِ الصبرَ في تكرارِه، وتكبَّدِ اللَّأواءَ في نشرِه.

* أنَّ الطالبَ المكينَ والعالمَ الأصيلَ مَن يمرُّ في طلبِه بمراحلَ ثلاثٍ، والنقصُ فيها مُفضٍ إلى خللٍ واسعٍ في علمِه:

الأولى: التأصيلُ.

الثانيةُ: استكمالُ التكوينِ.

الثالثةُ: البحثُ العلمي المنهجي بما يخدمُ الطلبَ، ويُنمي الذهنيةَ العِلمية.

ففاقدُها فاقدٌ لأصلِ العلمِ ورُوحِه، وفاقدُ بعضِها مُبتسَرٌ بقدرِ ما نقَص منها.

* أنَّ العلمَ ما أخذ بيدِكَ إلى صلاحِ نفسِكَ وغيرِكَ.

* أنَّ العلم الحقيقي هو ما أخرَجك مِن الشُّبهاتِ، لا ما أدخلكَ فيها.
* أنَّ تعلُّمَ السلفِ قائمٌ على منهجٍ وطريقةٍ، تجدُها مُسطَّرةً بأحرفٍ واضحةٍ جليَّةٍ في تراجمِهم وتواريخِهم، مَن فتَّش عنها ونقَّر وجَدها.
* نوِّعِ الشُّيوخَ والكتبَ.

ولا يسعني بعد تمام المقصود هنا إلا أن أختم بما قال ابن بلدان رحمه الله المدخل، ص١٠٣: (ونصبنا له هذا السُّلم أملًا بأنه إنْ ترك التعصُّبَ الذميمَ، والجهلَ المركَّب، ارتقى قليلًا إلى درجاتِ أوائلِ العِلم، ولاح له لمعانٌ مِن نورِ الهُدى).

هذا، واللهُ أعلمُ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وصحبه[1].

السَّعيد،

---

(١) كتب الشيخ محمد عزير شمس، معقباً على خاتمة نسخته:
بارك الله في المؤلف وكتابه، وجزاه خيراً عن طلبة العلم وأهله، ووفَّقه للمزيد في الكتابة بأسلوب الأدباء والكتَّاب على سَنن العرب، لا الإعلاميين والصحفيين المعاصرين الذين لا يوثق بفصاحتهم.

(محمد عُزير شمس)
مكة المكرمة في ٢٦ من صفر ١٤٣٩هـ

ثبت المصادر والمراجع

١- أبجد العلوم، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القَنَّوجيُّ، ط. ١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، دار ابن حزم.

٢- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق عواد عبد الله المعتق، ط. ١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض.

٣- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط. ٣، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٤- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي، علّق عليه الشيخ عبد الرزاق عفيفي، ط. ١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الصميعي للنشر والتوزيع- الرياض.

٥- الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، لشهاب الدِّين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ١٩٩٥م- ١٤١٦هـ، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٦- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط. ١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت.

٧- الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، تحقيق إيفار رياض، ومراجعة وتعليق عبدالحق التركماني، ط. ١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، دار ابن حزم للطباعة والنشر- بيروت.

٨- الآداب الشرعية، لعبدالله محمد ابن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعمر القيام، ط. ٣، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

٩- أدب الدين والدنيا، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، شرح وتعليق محمد كريم راجح، ط. ٤، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، دار اقرأ- بيروت.

١٠- أدب الطلب ومنتهى الأدب، الشوكاني، تحقيق عبد الله يحيى السريحي، ط. ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار ابن حزم، بيروت- لبنان.

١١- أدب المفتي والمستفتي، لعثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، تحقيق: د. موفق عبد الله عبد القادر، ط. ٢، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٢- أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة فضالة.

١٣- الاستقراء ومجالاته في الأحكام الشرعية، لمحمد أيمن الزهر، إشراف حمزة حمزة (بحث علمي منشور بمجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية)، المجلد ٢٩، العدد الأول- ٢٠١٣م.

١٤- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط.٢، دار المعرفة بيروت لبنان.

١٥- أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق الدكتور علي أبو زيد، وآخرون، ط. ١، ١٤١٨إ - ١٩٩٨م، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا.

١٦- الإفادات والإنشادات، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي، تحقيق د. محمد أبو الأجفان، ط. ١، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٧- الإفصاح عن معاني الصحاح، للوزير العالم ابن هبيرة، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن- الرياض.

١٨- إكمال إكمال المعلم، لأبي عبد الله محمد بن خلفة الوشتاني الأبي المالكي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩- الألقاب العلمية، مقال بمجلة المقتبس، (نسخة إلكترونية) العدد ٧٧ - بتاريخ: ١-٧-١٩١٢م.

٢٠- أليس الصبح بقريب (التعليم العربي الإسلامي)- دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط. ١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، دار سحنون- تونس، دار السلام للنشر والتوزيع- (القاهرة- الإسكندرية).

٢١- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ط. ١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، لولي الله الدهلوي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط.٣، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، دار النفائس- بيروت.

٢٣- إيثار الإنصاف في آثار الخلاف، ليوسف بن قزأوغلي - أو قزغلي - ابن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدين، سبط أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق ناصر العلي الناصر الخليفي، ط. ١، ١٤٠٨هـ دار السلام- القاهرة.

٢٤- إيضاح المحصول من برهان الأصول، لأبي عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري، تحقيق أ. د. عمار الطالبي، ط. دار الغرب الإسلامي- تونس.

٢٥- بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله ابن الأزرق، تحقيق د. علي النشار، ط. ١، ٢٠٠٧م، دار السلام للنشر والتوزيع- (القاهرة- الإسكندرية).

٢٦- بدائع الفوائد، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق علي العمران، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٢٧- البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق د. عبد العظيم محمود الديب، ط. ٥، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، دار الوفاء للطباعة والنشر- المنصورة.

٢٨- البصائر النصيرية في علم المنطق، لزين الدِّين عمر بن سهلان السَّاوي، مع حاشية وتعليقات محمد عبده، ط. ١٣١٦ هـ- ١٨٩٨م، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق- القاهرة.

٢٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآباديّ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، ط. ١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

٣٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٣١- بيان الدليل على بطلان التحليل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: حمدي السلفي، ط. ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٢- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق د. حسين نصار، ط. ١٣٦٩هـ- ١٩٦٩م، مطبعة حكومة الكويت.

٣٣- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، لمحمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القَنَّوجيُّ، ط. ١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

٣٤- تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، تحقيق محبُّ الدِّين عمر العمروي، ط. دار الفكر للنشر والتوزيع.

٣٥- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، لمحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ط. ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٣٦- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، ط. ٢، ١٤٣٠ هـ عالم الكتب، بيروت.

٣٧- تخريج الفروع على الأصول، لمحمود بن أحمد الزنجاني، أبي المناقب، تحقيق د. محمد أديب صالح. ط. ٢، ١٣٩٨هـ مؤسسة الرسالة- بيروت.

٣٨- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق د. طارق بن عوض الله بن محمد، ط. ١، ١٣٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار العاصمة- الرياض.

٣٩- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني الشافعي، تحقيق محمد بن مهدي العجمي، ط. ٣، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

٤٠- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق ابن تاويت الطنجي وجماعة، ط. ١، ١٩٨١-١٩٨٣م، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب.
٤١- تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق د. سيد عبد العزيز، ود. عبد الله ربيع، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، وتوزيع المكتبة المكية- مكة.
٤٢- التصحيف وأثره في الحديث والفقه، أسطيري جمال، دار طيبة للنشر والتوزيع.
٤٣- تعظيم الفتيا، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق مشهور بن حسن، ط. ٢، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م، الدار الأثرية، عمان- الأردن.
٤٤- تعليم المتعلِّم طريق التَّعَلُّم، لبرهان الدين الزرنوجي، تحقيق مروان قباني، ط. ١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، المكتب الإسلامي- (بيروت- دمشق).
٤٥- التَّعليم والإرشاد، لمحمد بدر الدين الحلبي، ط. ١، ١٣٢٤هـ- ١٩٠٦م، طبع بمطبعة السعادة- مصر.
٤٦- تقويم الأدلة في أصول الفقه، لأبي زيد عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي الحنفي، تحقيق خليل محيي الدين الميس، ط. ١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية- بيروت.
٤٧- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، ط. ١، ٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.
٤٨- التَّوضيح لشرح الجامع الصحيح، لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المعروف بـ«ابن الملقن»، تحقيق دار الفلاح بإشراف خالد الرباط، وجمعة فتحي، ط. ١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر.
٤٩- تيسير التحرير، شرح محمد أمين المعروف بأمير بادشاه الحسيني الحنفي الخراساني البخاري المكي على كتاب التحرير في أصول الفقه الجامع بين اصطلاحي الحنفية والشافعية، لكمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود الشهير لابن همام الدين السكندري الحنفي، توزيع دار الباز- مكة المكرمة.
٥٠- جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، ط. ٨، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٥١- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط.١، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، دار ابن الجوزي، السعودية.

٥٢- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، ط. ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مكتبة المعارف- الرياض.

٥٣- الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق علي بن حسن وآخرين، ط. ٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ط. دار العاصمة- السعودية.

٥٤- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق إبراهيم باجس، ط. ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

٥٥- جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية، تحقيق محمد عزير شمس، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع-مكة المكرمة.

٥٦- حاشية العطار على شرح المحلي على جمع الجوامع للسبكي، للشيخ حسن العطار الشافعي، ط. دار الكتب العلمية.

٥٧- الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق مروان قباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م، بيروت- لبنان.

٥٨- خزانة الأدب ولب لُباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ط. ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض.

٥٩- خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة، تحقيق: جمال عزون، ط. ١، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، مكتبة أضواء السلف.

٦٠- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبّي، ط. ١٢٨٤ هـ المطبعة الوهبية.

٦١- درء تعارض العقل والنقل، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، الحنبلي، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، ط. ٢، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

٦٢- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، بتحقيق محمود الجليلي، ط. دار الغرب الإسلامي، لبنان.

٦٣- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، لعبد رب النبي بن عبد رب الرسول الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، ط. ١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية- لبنان.

٦٤- ديوان ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ط. دار القلم للطباعة والنشر- بيروت.

٦٥- ذيل الدُّرر الكامنة، لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق د. عدنان درويش، ط. ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة.

٦٦- الذَّيل على طبقات الحنابلة، الحافظ عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين، ط. ١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، مكتبة العبيكان- الرياض.

٦٧- الذَّيل والتكملة لكتابي الموصول والصِّلة، لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الدكتور محمد بن شريفة، الدكتور بشار عواد معروف، ط. ١، ٢٠١٢م، دار الغرب الإسلامي، تونس.

٦٨- الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد علي عجال، ط. ١، ١٤١٧ هـ مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة المنورة.

٦٩- رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق علي معوض، وعادل عبد الموجود، ط. ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان.

٧٠- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وبشار معروف، وآخرين، ط. ١، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

٧١- شـرح صحيح البخاري، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطال، تحقيق ياسر إبراهيم، ط. ٢، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، مكتبة الرشد، السعودية.

٧٢- شـرح متن الورقات في أصول الفقه، للدكتور عبدالكريم بن عبدالله الخضير (شرح مفرغ من المجالس).

٧٣- صحيح مسلم بشرح النووي، ط.٢، (١٤١٤هـ- ١٩٩٤م) ط. مؤسسة قرطبة.

٧٤- صيد الخاطر، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي، تحقيق عبد القادر عطا، ط. ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، دار الكتب العلمية- لبنان.

٧٥- الضوء اللامع لأهـل القرن التاسع، لشـمس الدين محمد بن عبدالرحمـن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، ط. منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

٧٦- طبقات الأولياء، لسـراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد، ابن الملقن، الشـافعي، تحقيق نور الدين شريبه،ط. ٢، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م مكتبة الخانجي- القاهرة.

٧٧- طبقات الحنابلة، لأبي الحسين محمد بن محمد، ابن أبي يعلى، تحقيق محمد حامد الفقي، ط. دار المعرفة- بيروت.

٧٨- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدِّين بن علي السبكي، تحقيق د. محمود الطناحي، ط.٢، ١٤١٣هـ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧٩- طريـق الهجرتين وباب السـعادتين، لأبي عبد اللـه محمد بن أبي بكر بـن أيوب ابن قيم الجوزيـة، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وزائد النشـيري، ط. ١، ١٤٢٩هـ دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع- مكة المكرمة.

٨٠- العلم، لمحمد بن صالح العثيمين (ضمن مجموع فتاوى ورسائل الشيخ رحمه الله، جمع فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، ط. ١٤١٣ هـ دار الوطن - دار الثريا).

٨١- عنـوان الدّراية فيمن عُرف مـن العلماء في المائة السـابعة ببجاية، لأحمـد بن أحمد بن عبدالله بن محمد، أبو العباس الغِبْرِيني، تحقيق عادل نويهض، ط. ٢، ١٩٧٩م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٨٢- عيـون الأنباء فـي طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسـم بـن خليفة بن يونـس الخزرجي موفق الدين، أبـي العباس ابن أبي أصيبعـة، تحقيق د. نزار رضـا، ط. دار مكتبة الحياة، بيروت.

٨٣- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبي العباس ابن أبي أصيبعة، تحقيق أوجست مُلر، ط. ١٢٩٩هـ القاهرة.

٨٤- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق د. محمد عبدالمعيد خان، ط. ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٨٥- الفتاوى الكبرى، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية- لبنان.

٨٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي ابن حجر، أبي الفضل العسقلاني، تحقيق (عبد العزيز ابن باز- محب الدين الخطيب- محمد فؤاد عبد الباقي)، ط. ١٣٧٩هـ المكتبة السلفية.

٨٧- الفروق [المسمى بأنوار البروق في أنواء الفروق]، لشهاب الدين القرافي: أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، وبهامشه تهذيب الفروق، والقواعد السنية، ط. ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية.

٨٨- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، ط. مطبعة النهضة نهج الجزيرة- تونس.

٨٩- الفوائد والأخبار والحكايات عن الشافعي وحاتم الأصم ومعروف الكرخي وغيرهم، للحسن بن الحسين بن حمكان، أبي علي الهمذاني، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري، ط. ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار البشائر الإسلامية. [ضمن سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية (١٧)].

٩٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، ط. ٢، (١٣٩١هـ- ١٩٧٢م)، دار المعرفة، بيروت- لبنان.

٩١- القواطع في أصول الفقه، لأبي المظفر السمعاني المرْوزي، ومعه عدة الدارع، تحقيق صالح سهيل حمودة، ط. ١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، دار الفاروق، الأردن.

٩٢- القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، د. محمد مصطفى الزحيلي، ط. ١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، دار الفكر - دمشق.

٩٣- القواعد في الفقه الإسلامي، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع [مصورة عن مكتبة الخانجي ط. ١، ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م].

٩٤- الكامل في ضعفاء الرجال، لأبي أحمد ابن عدي الجرجاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة، ط. ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م دار الكتب العلمية، لبنان.

٩٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

٩٦- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ط. ١، دار صادر، بيروت.

٩٧- مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، لأحمد بن محمد الأمين بن أحمد الجكني الشنقيطي، ط. ١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.

٩٨- المجموع شرح المهذب للشيرازي، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، حققه وعلق عليه وأكمله محمد نجيب المطيعي، ط. مكتبة الإرشاد، جدة- السعودية.

٩٩- مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.

١٠٠- مجموع فتاوى العلامة عبدالعزيز ابن باز، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

١٠١- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، ط. ١٤١٣هـ دار الوطن- دار الثريا.

١٠٢- المحصول في أصول الفقه، لأبي بكر ابن العربي، المعافري المالكي، تحقيق حسين علي اليدري، ط. ١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، دار البيارق، الأردن، ولبنان.

١٠٣- مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، ط. ١٩٨٦هـ مكتبة لبنان، بيروت.

١٠٤- المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، علي جمعة محمد عبد الوهاب، ط. ٢، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، دار السلام، القاهرة.

١٠٥- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر ابن بدران الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. ٢، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٦- مدى فاعلية طريقة الاستقصاء الموجه في تدريس البنية العلمية في مادة العلوم على التحصيل الدراسي لتلميذات الصف الثاني المتوسط بجدة، إحسان محمد عبد الله غفوري، رسالة ماجستير، ١٤١٣هـ [مصورة من أصل الرسالة]، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

١٠٧- المستقصى في أمثال العرب، لجار الله محمود عمر الزمخشري، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، ط. ١٣٨١هـ-١٩٦٢م، دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن - الهند.

١٠٨- معالم السنن [وهو شرح سنن الإمام أبي داود]، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، تحقيق محمد راغب الطباخ، ط. ١، ١٣٥١ هـ- ١٩٣٢م، المطبعة العلمية- حلب.

١٠٩- معجم التعريفات، لعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي. ط. دار الفضيلة- (القاهرة- دبي).

١١٠- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى- أحمد الزيات- حامد عبد القادر- محمد النجار، تحقيق مجمع اللغة العربية، ط. دار الدعوة.

١١١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد ابن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١١٢- معيار العلم، لأبي حامد الغزّالي، ط. ٢، ١٣٤٦ هـ- ١٩٢٧ م، المطبعة العربية- مصر.

١١٣- مفاتيح الغيب، أبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، فخر الدّين الرازي، ط. ٣، ١٤٢٠هـ دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

١١٤- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق عبدالرحمن بن حسن بن قائد، ط. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

١١٥- مفهوم التأصيل العلمي وتطبيقاته، أبحاث حلقة النقاش العلمية الأولى لمركز التبيان، ط. مركز التبيان للاستشارات.

١١٦- مفهوم العالمية، لفريد الأنصاري، ط. ٢، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، دار السلام للطباعة والنشر (القاهرة، الإسكندرية).

١١٧- مقدمة ابن خلدون، لولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط. ١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار البلخي، ومكتبة الهداية- دمشق.

١١٨- المنثور في القواعد، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.

١١٩- المنخول من تعليقات الأصول، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تحقيق محمد حسن هيتو، ط. دار الفكر.

١٢٠- المنطق، لابن سينا، نسخة إلكترونية.

١٢١- منظومة أصول الفقه وقواعده، لمحمد بن صالح العثيمين، ط. ٢، ١٤٣٠هـ دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

١٢٢- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط. ١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٢٣- المهذب في فقه الإمام الشافعي، تحقيق د. محمد الزحيلي،، ط. ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م. (دار القلم- الدار الشامية).

١٢٤- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، لأبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الآمدي البصري، ط. ١، ١٢٨٧هـ مطبعة الجوائب بالأستانة العلية- تركيا.

١٢٥- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لأحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين المقريزي، ط. ١، ١٤١٨هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٦- الموافقات، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، ط. ١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، دار ابن عفان- السعودية.

١٢٧- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، اعتنى بها المحامي علي الرضا الحسيني، ط. ١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، دار النوادر، سوريا.

١٢٨- مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، ط. ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، دار الجيل- بيروت.

١٢٩- نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، لمحمد الروكي، ط. ١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية بالرباط.

١٣٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، ط. ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م، دار صادر، بيروت.

١٣١- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط. المكتبة الإسلامية.

١٣٢- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتـــي، تحقيق د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، ط. ٢، ٢٠٠٠م، دار الكاتب، طرابلس- ليبيا.

١٣٣- هيئة الناســك في أن القبض في الصلاة هو مذهب الإمام مالك، لمحمد المكي ابن عزوز، تحقيق د. نفل بن مطلق الحارثي، ط. ١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، دار طيبة- الرياض.

١٣٤- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط. ١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، إحياء التراث الإسلامي، بيروت.

١٣٥- وفيات الأعيان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت- لبنان.



ملاحق

تقديم بقلم الشيخ الدكتور

أحمد بن علي القرني حفظه الله

الحمدُ للهِ الذي جعل العلمَ منارًا للسائرين، وفجّر ينابيعَ الحكمةِ لمَن شاء مِن عبادِه حتى صاروا قدوةً للسالكين. والصلاةُ والسلامُ على إمامِ المُعلّمين، ونبْراسِهم الساطعِ إلى يومِ الدِّينِ، وعلى آلِه وأصحابِه علائمِ الهُدى واليقينِ.

أمّا بعدُ؛ فإنَّ الحديثَ عن قواعدِ التأصيلِ، ومناهجِ التحصيلِ، وأدبيّاتِ الطّلَبِ = أمرٌ في غايةِ الأهميةِ لطُلّابِ العلمِ، ولا سيّما في هذا العصرِ الذي جرَف تيّارُه الكثيرَ منهم، فطوّح بهم يمنةً ويسرةً، وحاد بهم عن مسالكِ تلقّي العلمِ الصحيحةِ، إلى مسالكَ عوجاءَ مُضطرِبةٍ، بل إلى مسالكَ بعيدةٍ عن سبيلِ أهلِ الفهمِ والسدادِ، تسيرُ بسالكِها في مجاهلَ مُتعِبةٍ، ومفاوزَ مُجدِبةٍ!

وقد أتاح لي تقديمُ هذا الكتابِ الماتعِ أن أذكّرَ طالبي العلمِ وراغبي المعرفةِ بأربعةِ أمورٍ مُهمّةٍ:

أوّلُها: ضرورةُ التريُّثِ قبلَ الولوجِ في غَمَراتِ الطّلَبِ، حتى يسألَ الطالبُ ويستبينَ من أهلِ العلمِ والرُّشْدِ عن: الفنِّ المناسبِ، والكتابِ المناسبِ، والبرنامجِ المناسبِ؛ كيلا يَتَنكَّثَ جُهدُه، ويَتشعّثَ أمرُه، فيرتدَّ من أولِ الطريقِ ناكصًا، وينقلبَ على عَقِبَيْه خائبًا.

فإنَّ أولَ الطريقِ كالحديدةِ المُحْماةِ، سَخينةِ الملمَسِ، حارّةِ المَجَسِّ، حتى إذا ما تتابعَ مَسُّها، وتتابعَ جَسُّها -بعدَ توطينِ اليدِ على الصبرِ والتحمُّلِ-؛ عاد الحديدُ

باردًا خَصِرًا، قد فتَر فيه ما كان يُخشَى منه!

وثانيها: التدرُّجُ في الطلبِ والتحصيلِ؛ فـإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قطَع، ولا ظهرًا أبقَى. ومَن رام العلمَ جُملةً؛ ذهَب عنه جُملةً!

فينبغي لطالبِ العلمِ ألَّا يندفعَ اندفاعَ المُتهوِّرِ؛ فيحفظَ أيَّ شـيءٍ، ويَدرُسَ أيَّ شـيءٍ، ويقرأ كلَّ شيءٍ! بل لا بدَّ أن يسيرَ وَفْقَ برنامجٍ مُحدَّدٍ مدروسٍ، يُحدِّدُه له أولو الخبرةِ والمعرفةِ والدُّرْبةِ.

وثالثُها: اختيارُ المعلِّمِ المناسـبِ؛ فإنَّ المعلِّمَ هو رأسُ الأمرِ وعمودُه وذِروةُ سَـنامِه، في العمليةِ التعليميةِ. فلا بدَّ من اختيارِ مُعلِّمٍ حسـنِ التفهيمِ، بارعِ التعليمِ، واسـعِ الاطِّلاعِ، ثاقبِ الفهـمِ، غزيرِ المادَّةِ، مـا أمكَن. فإنْ ظَفِـر بمجموعِ ذلك، وإلَّا فما أمكَن.

ورابعُها: تخصيصُ وقتٍ كافٍ لقراءةِ سِيَرِ العلماءِ، وتجارِبِهم، ووصاياهم في الطلبِ والتحصيلِ؛ إمَّا في كتبِ التراجِمِ مباشرةً، أو بقراءةِ كتبِ أدبيَّاتِ الطلبِ؛ كهذا الكتابِ وشِبْهِه.

وإنْ غفَلْـتَ -أيُّها الراغبُ- فلا تَغفُلَنَّ عن السِّـفْرِ الجليـلِ: «صيدِ الخاطرِ» لابـنِ الجوزيِّ؛ فقد ذكَر فيـه مُؤلِّفُه من القواعدِ النفائسَ، ومـن الدُّررِ العرائسَ، في العلمِ والعملِ. فـإنْ فاتَكَ حظُّك من هذه البابةِ؛ فلا يَفُوتَنَّكَ هذا العِلْقُ النفيسُ «صيدُ الخاطرِ»؛ وكلُّ الصيدِ في جوفِ الفَرَا!

فإذا ما اجتمَعتْ لطالبِ العلمِ الحريصِ هذه الأمورُ؛ شدَّ لها حَيازِيمَه، وحسَر لها عن ساقِه، وانطلَق صوبَها دونَ أن يَتلكَّأَ، وتَقدَّم نحوَها سَرِعًا لا يَتكأْكأُ.

ويأتي هذا الكتابُ البديعُ: «مدارجُ التعلُّمِ بينَ التأصيلِ واسـتكمالِ التكوينِ» لمُؤلِّفِه الشيخِ: السعيدِ بنِ صُبْحيٍّ العِيسويِّ -وفَّقه اللهُ- ليَلُمَّ شَعَثَ الأصولِ والقواعدِ

التي تُسهِمُ في تأصيلِ الطلبِ، وتكوينِ الطالبِ؛ حيثُ أتى المؤلِّفُ على مُعظَمِها بقلمٍ سيَّالٍ، وفِكرٍ صيَّالٍ. وهو في ذلك كلِّه دقيقُ النظرةِ، عميقُ الفِكرةِ، رشيقُ العبارةِ، لم يطغَ جانبُ النَّقلِ عندَه على جانبِ السَّرْدِ، بل جاءا مُتساوِقينِ مترابطينِ.

فنسألُ اللهَ أن يجزيَه خيرَ الجزاءِ على ما قدَّم وبذَل ونصَح، كما نرغبُ إليه الاستمرارَ في تأليفِ الكتبِ في هذا المَهيَعِ المهجورِ، والسبيلِ المطمورِ، الذي يَصدُقُ عليه قولُ الشاعر:

أمَّا الطُّلُولُ فإنَّها خُرُسُ ... تَبدُو لِعَينِكَ ثُمَّ تَبتَئِسُ

يا مَربَعًا عبثَ البَلاءُ بهِ ... عَهدِي بِرَبْعِكَ وَهْوَ مُكتَنَسُ

رقَمَتْ عليه يدُ الصبا صُحُفًا ... تَبدُو لقارئِها وتَنطمِسُ

وقف الهوى والدمعُ مُنطلِقٌ ... في جوِّه والقلبُ مُحتَبِسُ

وختامًا، فإنَّني أهمسُ في أُذُنِ كلِّ مَن ألقى إليَّ السمعَ وهو رشيدٌ، وأرهَفَ حَماطةَ فؤادِه رغبةً في أن يستفيدَ: إنَّ جميعَ هذه الوصايا والبرامجِ لن تستفيدَ منها شيئًا، ما لم تكنْ لكَ نفسٌ طامحةٌ، وهمَّةٌ وثَّابةٌ، ورغبةٌ جامحةٌ؛ وحينئذٍ فأنتَ أنتَ، لو كنتَ تفقهُ مَن أنت!!

وتَحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوَى العالَمُ الأكبرُ!

وفَّق اللهُ الجميعَ لما يحبُّ ويرضى، وآخِرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتب/ أحمد بن علي القرني

الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المُنوَّرة

في ١٢/ ٨/ ١٤٣٧

تقديمُ فضيلةِ الشيخِ

ساعِدُ بنُ عُمرَ غازي حفظه الله

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وأشـهدُ ألَّا إلهَ إلا اللهُ وحدَه، لا شريكَ له. والصلاةُ والسـلامُ على محمدٍ خاتمِ النبيِّين وسيِّدِ المرسـلين، الذي أمره ربُّه - سبحانه- أن يسـألَه مزيدَ العلمِ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وكفى بهذا شرفًا للعلمِ أن أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يسألَه المزيدَ منه!

فالحديثُ عن فضلِ العلمِ وأهلِه لا ينقضي، وفي هذا المقامِ أكتفي بذكرِ طرفٍ من تلك الفضائلِ التي تُبيِّنُ فضلَ العلمِ:

قال تعالـى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [فاطِر: ٢٢]، فهذه مُقابَلةٌ بينَ العالِمِ والجاهلِ، والمعنى: لا يسـتوي مَـن عندَه علمٌ، ومَن لا علمَ عندَه. فالشـرعُ لا يُفرِّقُ بينَ مُتماثِلين، ولا يجمعُ بينَ مُتفرِّقين، وهذا من الأمورِ التي تقرَّر في العقولِ تباينُها، وعُلِم علمًا يقينيًّا تفاوتُها.

وفي هذا السياقِ يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ: (فليس في كتابِ اللهِ، ولا سُنَّةِ رسـولِه ﷺ مدحٌ وحمدٌ لعدمِ العقلِ والتمييزِ والعلمِ، بل قد مدَح اللهُ العلمَ والعقـلَ والفقهَ ونحوَ ذلـك في غيرِ موضـعٍ، وذَمَّ عدمَ ذلك في مواضـعَ؛ مِثلُ قولِه تعالـى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّمَـر: ٩]، وقـال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطِـر: ٢٢]، وقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤]، وقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢].

وهذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يأمرُ ويمدحُ التفكُّرَ والتدبُّرَ والتذكُّرَ، والنظرَ والاعتبارَ، والفقهَ والعلمَ، والعقلَ والسمعَ والبصرَ والنُّطقَ، ونحوَ ذلك من أنواعِ العلمِ وأسبابِه وكمالِه، ويَذُمُّ أضدادَ ذلك)(١).

ومعلومٌ أنَّ لكلِّ شيءٍ أراد الإنسانُ معرفتَه وتحصيلَه -مِن العلومِ والفنونِ والمعارفِ- أصولًا وقواعدَ، هي بمنزلةِ الأساسِ للبنيانِ والأصولِ للأشجارِ، لا ثباتَ لها إلا بها، ولا سبيلَ إلى تحصيلِها إلا بسلوك طريقِها. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه اللهُ: (فإنَّ معرفةَ أصولِ الأشياءِ ومبادئِها، ومعرفةَ الدِّينِ وأصلِه وأصلِ ما تولَّد فيه = من أعظمِ العلومِ نفعًا)(٢).

وقال أيضًا: (لا بدَّ أن يكونَ معَ الإنسانِ أصولٌ كُلِّيَّةٌ يَرُدُّ إليها الجزئياتِ؛ ليتكلَّمَ على علمٍ وعدلٍ، ثُمَّ يعرفَ الجزئياتِ كيف وقَعتْ؟ وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئياتِ، وجهلٍ وظلمٍ في الكُلِّيَّاتِ؛ فيتولَّدُ فسادٌ عظيمٌ)(٣).

وعليه، فينبغي لمَن يريدُ أن يكونَ من أهلِ العلمِ: معرفةُ سُبُلِه، وأُسُسِه، وأصولِه التي بُنِي عليها. قال ابنُ باديس -للهِ دَرُّه-: (فلن يكونَ عالمًا إلا مَن كان مُتعلِّمًا، كما لن يَصلُحَ مُعلِّمًا إلا مَن قد كان مُتعلِّمًا)(٤).

(١) «الاستقامة» ٢/ ١٥٧-١٥٩ مُختصرًا.
(٢) «مجموع الفتاوى» ١٠/ ٣٦٨.
(٣) «منهاج السُّنَّة» ٥/ ٨٣.
(٤) «في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» ص٣٤٣.

والذي أعنيه هنا: هو أنَّ تحصيلَ العلمِ لـه بداياتٌ اتَّفق عليها أهلُ التحقيقِ من العلماءِ، ومِن أهمِّها: حفظُ المُختصَراتِ، وسماعُ شرحِها من الشيوخِ، ثُمَّ الانتقالُ إلى المُطوَّلاتِ عبرَ إتمامِ أهمِّ تلك المُصنَّفاتِ المقروءةِ على المشـايخِ، ثُمَّ الانطلاقُ إلى التحصيلِ عبرَ حُسنِ المطالعةِ التي أساسُها تلك الوسائلُ والبداياتُ المُوصِلةُ إلى العلمِ.

فلا يصحُّ العلمُ على حقيقتِه إلا بالتدرُّجِ عبرَ تلك الوسـائلِ والبداياتِ، فمَن رام الوصولَ إلى مرتبةِ صحيحِ العلمِ غيرَ مُلتفِتٍ إلى ما قبلَها من المراتبِ = كمَن رام الصعودَ إلى أعلى المنارةِ بلا سُـلَّمٍ! فمِن المأثورِ عن بعضِ السلفِ في مِثلِ هذه الأمورِ قولُهم: (إنَّما حُرِموا الوصولَ بتضييعِ الأصولِ)[1]. أي الوصولَ إلى المقصودِ، وهو: «العِلمُ».

وفي ذلك يقولُ العلَّامةُ الفقيهُ المُفسِّـرُ الأصوليُّ محمـدُ بنُ صالحٍ العُثيمين -رحمه اللهُ-: (على طالبِ العلمِ أن يبدأَ العلمَ شيئًا فشيئًا؛ فعليكَ أن تبدأَ في الأصولِ والقواعدِ والضوابطِ، وما أشـبَهَ ذلك من المُختصَراتِ معَ المتونِ؛ لأنَّ المختصراتِ سُلَّمٌ إلى المُطوَّلاتِ، لكنْ لا بدَّ من معرفةِ الأصولِ والقواعدِ، ومَن لم يعرفِ الأصولَ حُرِم الوصولَ)[2].

وهنا إرشـادٌ في غايةِ الأهميةِ من العلَّامـةِ الفقيهِ الأصوليِّ المُفسِّـرِ المُربِّي عبد الرَّحمنِ السَّعْديِّ -رحمه اللهُ-، يُوسِّعُ به على طلبةِ العلمِ وسائلَ التحصيلِ؛ حيثُ قال: (والحالةُ التقريبيةُ: أنْ يجتهدَ طالبُ العلمِ في حفظِ مُختصَرٍ من مُختصَراتِ الفنِّ الذي يشـتغلُ فيه. فإنْ تعذَّر أو تعسَّر عليه حفظُه لفظًا؛ فليُكرِّرْه كثيرًا، مُتدبِّرًا لمعانيه، حتى ترسَخَ معانيه في قلبِه. ثم تكونُ باقي كتبِ هذا الفنِّ كالتفسيرِ والتوضيحِ والتفريعِ لذلك الأصلِ الذي عرَفه وأدرَكه؛ فإنَّ الإنسانَ إذا حَفِظ الأصولَ، وصار له مَلَكةٌ تامةٌ

(١) مُقتبَسٌ من «طريق الهجرتين» ٢/ ٥٥٤ بما يناسبُ المقامَ.

(٢) «كتاب العلم» لابن عثيمين ص١٢٥.

في معرفتِها = هانتْ عليه كتبُ الفنِّ كلُّها صِغارُها وكِبارُها، ومَن ضيَّع الأصولَ حُرِم الوصولَ)[1].

فبقدرِ معرفةِ تلك الأصولِ، يكونُ مَبلَغُ الإنسانِ من إدراكِ الأمورِ؛ قال ابنُ عبد البرِّ: (العالمُ لا نقيصةَ عليه من جهلِ الشيءِ اليسيرِ من العلمِ، إذا كان عالمًا بالسُّنَنِ في الأغلبِ؛ إذِ الإحاطةُ لا سبيلَ إليها)[2].

فإذا كان خللٌ في بدايةِ تحصيلِ العلمِ -كما هو حالُ نفرٍ ممَّن تصدَّر للفُتْيا أو التدريسِ أو الدعوةِ-، وظلَّ هذا الخللُ مُلازِمًا لصاحبِه = فإنَّه -بنقصِه هذا- لن يتمكَّنَ من إزالةِ الجهلِ عن غيرِه؛ لأنَّ فاقدَ الشيءِ لا يعطيه! وربما يخطئُ في مسائلَ يعرفُها أصغرُ طالبِ علمٍ؛ فمِثلُ هذا مَظِنَّةُ الإخلالِ بركنٍ أو شرطٍ أو فهمٍ أو أدبٍ، خلافًا للعالِمِ.

وعلى هذا كان حديثي دائمًا معَ نفسي، كما أُوجِّهُه إلى مَن يرغبُ من إخواني، وهو: ينبغي أن يَقِفَ كلُّ واحدٍ معَ نفسِه؛ ليعلمَ قدرَ نفسِه من العلمِ. وكان يُقالُ: مَن جَهِلَ قدرَ نفسِه؛ فهو بقدرِ غيرِه أجهلُ[3].

فمَن وقَف على ما يَنقُصُه؛ فعليه: إذا كان قاصرًا في علمِ النحوِ أو الصرفِ أو غيرِهما من العلومِ أن يتعلَّمَه ممَّن مهَر فيه، وعليه أيضًا أن يتجنبَ الخوضَ فيما لا يُحسِنُه. وفي سياقِ ذلك كان قولُ الحافظِ ابنِ حجرٍ: (وإذا تكلَّم المرءُ في غيرِ فنِّه؛ أتى بهذه العجائبِ)[4].

---

(1) «بهجة قلوب الأبرار» ص٣٥.
(2) «التمهيد» ١٧/ ١٨٧.
(3) «غُرَر الخصائص الواضحة» ص٨٨.
(4) «فتح الباري» لابن حجر ٣/ ٥٨٤.

ورغمَ الحديثِ معَ بعضِ المُتصدِّرين لتعليمِ الطلبةِ، حولَ ما ترتَّب من عدمِ مُراعاةِ قواعدِ وأصولِ تلقِّي العلمِ، التي عليها كثيرون من أهل العلمِ المُحقِّقين في زمانِنا، والتي هي من بابِ الوسائلِ التي تُسهِّلُ وتعينُ على تحصيلِ العلمِ؛ فهم يُنبَّهون فلا ينتبهون! ولعلَّ سببَ عدمِ الاستجابةِ أنَّ (مَن جَهِل شيئًا عاداه)، أو من بابِ: قد أمليَ لهم بانعكافِ حُدَثاءِ الأسنانِ من الطَّلَبةِ عليهم!

ولا شكَّ أنَّ تجربةَ الفتاوى المباشرةِ عبرَ القنواتِ الفضائيةِ -ولا أقصدُ أحدًا بعينِه- هي في الحقيقةِ تطبيقٌ عمليٌّ لتصدُّرِ مَن أشَرتُ إليهم آنفًا للإفتاءِ، وقَلَّ مَن يقولُ منهم: (لا أدري)!! وقد قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ -رضي اللهُ عنه-: (واللهِ إنَّ الذي يُفتِي الناسَ في كلِّ ما يسألونه = لَمَجنونٌ). قال الأعمشُ: فذكَرتُ ذلك للحَكَمِ بنِ عُتَيْبَةَ، فقال: (لو كنتُ سمعتُ بهذا الحديثِ منكَ قبلَ اليومِ؛ ما كنتُ أُفتِي في كثيرٍ ممَّا كنتُ أُفتِي)[1].

ورُبَّما بادَر بالجوابِ قبلَ فهمِ مرادِ السائلِ؛ ولذا قال الإمامُ مالكٌ رحمه اللهُ: (لا خيرَ في جوابٍ قبلَ فهمٍ)[2].

فماذا يُنتظَرُ مِن طالبٍ يَتلقَّى العلمَ ممَّن لا يراعي قواعدَه وأصولَه؟! ستجدُه في غالبِ أمرِه قليلَ العلمِ، لا يمكنُه أن يفهمَ دقيقَ العلمِ، أو لا يفهمُه إلا بعدَ عُسرٍ، وقد تَحمِلُه شهوةُ النقدِ -التي نزَع إليها في غيرِ أوانِها- إلى التطاولِ على العلماءِ! وقد قال سراجُ الدِّينِ البُلْقِينيُّ رحمه اللهُ: (ولكنَّ الانتهاضَ لمُجرَّدِ الاعتراضِ = مِن جُملةِ الأمراضِ)[3].

---

(1) أخرجه أبو خيثمة في «كتاب العلم» (١٠)، والدارميُّ (١٧١)، وابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٩٠)، بإسنادٍ صحيحٍ.

(2) أخرجه الخطيبُ في «الفقيه والمتفقه» ٢/ ٧٢.

(3) «محاسن الاصطلاح» ص٢٤٠.

وكانت من تلك النتائجِ: ما لمَسه الإمامُ الألبانيُّ -رحمه اللهُ- بقولِه: (والحقُّ -والحقَّ أقولُ-: إنَّ مِن فِتَنِ هذا الزمانِ حُبَّ الظُّهورِ، وحشرَ النفسِ في زمرةِ المؤلِّفين، وخاصَّةً في علمِ الحديثِ الذي عرَف الناسُ قدرَه أخيرًا بعدَ أن أهمَلوه قرونًا، ولكنَّهم لم يَقدِروه حقَّ قدرِه، وتوهَّموا أنَّ المرءَ بمجردِ أن يُحسِنَ الرجوعَ إلى بعضِ المصادرِ من مصادرِه والنقلَ منها = صار بإمكانِه أن يُعلِّقَ وأن يُؤلِّفَ! نسألُ اللهَ السلامةَ من العُجْبِ والغرورِ)[1].

فماذا لو قال مُتصدِّرٌ للتعليمِ لطالبٍ ناشئٍ، في تقديمِه له على أولِ بحثٍ ينشرُه: (يأتي فيها من الفوائدِ بما لا يأتي به مَن هو أعلمُ منه...)؟!!

وبعدَ النظرِ في عملِ هذا الطالبِ، فلا شكَّ أنَّه لن نَعدِمَ فائدةً، ولكنَّ شأنَه شأنُ كثيرٍ من الناشئين الذين لم يَتمرَّسوا على التحقيقِ والتفتيشِ. فهل من تلك الفوائدِ: قوله لمَّا نقَل هذا الكلامَ: (... وقد استَحْسَنها أيضًا الدارميُّ، كما في الاستذكارِ). قال: (وقد راجعتُ «الاستذكارَ» ٤/ ٢٨٨-٣٠٣، فلم أَقِفْ عليه)؟!

«الاستذكارُ» الذي رجَع إليه هو «استذكارُ» ابنِ عبد البَرِّ المالكيِّ!! كيف هذا ونحن أمامَ عالمٍ اسمُه: (الدارميُّ)، وأنَّ له كتابًا اسمُه: «الاستذكارُ»؟! فالمتبادرُ لطالبِ العلمِ أن يبحثَ: مَن هو (الدارميُّ) صاحبُ كتابِ «الاستذكارِ»؟

فوجَدْناه كما قال الحافظُ الذهبيُّ: (الإمامُ العلَّامةُ، شيخُ الشافعيةِ، أبو الفرجِ محمدُ بنُ عبد الواحدِ بنِ محمدِ بنِ عمرَ بنِ ميمونٍ الدارميُّ، البغداديُّ، الشافعيُّ، نزيلُ دمشقَ. وله كتابُ «الاستذكارِ» في المذهبِ، كبيرٌ)[2].

وقال الحافظُ أبو عمرٍو بنُ الصلاحِ: (مِن أئمَّتِنا المُحقِّقين. رأيتُ من كتبِه:

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ١١/ ٦٩٨.

(٢) «سِيَر أعلام النبلاء» ١٨/ ٥٢-٥٣.

«الاستذكارَ»، وهو كتابٌ نفيسٌ كثيرُ الفوائدِ، نحوُ ثلاثِ مُجلَّداتٍ، استفَدتُ منه أشياءَ كثيرةً...)[1].

فهذا مثالٌ على التعجُّلِ، وعدمِ التثبُّتِ؛ لفواتِ تلقِّي الطالبِ مبادئَ ذلك في أثناءِ إعدادِه. قال عبدُ اللهِ بنُ المُعتَزِّ رحمه اللهُ: (التَّثبُّتُ يُسهِّلُ طريقَ الرأيِ إلى الإصابةِ، والعَجَلةُ تَضمَنُ العَثْرةَ)[2].

وفي المَثَلِ: (تَزبَّبَ قبلَ أن يَتحصرَمَ)؛ إذا ادَّعى حالةً أو صفةً قبلَ أن يَتهيَّأَ لها[3]. والحِصْرِمُ: أولُ العِنَبِ، ولا يزالُ العنبُ ما دام أخضرَ حِصْرِمًا[4]. قال الفيُّوميُّ: (وزبَّبتُ العِنبَ: جعَلتُه زبيبًا، فتَزبَّبَ هو)[5].

وهناك أمثلةٌ أخرى، ولكنَّها حديثيَّةٌ تركتُها، وما ذكرتُه يكفي. واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ ننتقلُ إلى ذاك الطالبِ الآخَرِ، الذي يقولُ عنه شيخُه: (وقد أفاد وأجاد -جزاه اللهُ خيرًا- في إيرادِه لأقوالِ العلماءِ في هذا البابِ). فلنَنظُرْ كيف عرَض التلميذُ أقوالَ العلماءِ؟

قال التلميذُ: (ونقَل ابنُ مُفلِحٍ أنه مذهبُ الحنابلةِ).

وقال في موضعٍ آخَرَ: (أقوالُ الحنابلةِ:

قال ابنُ مُفلِحٍ في المُبدِعِ في شرحِ المُقنِعِ ١/ ٤٥١: (وفي المذهبِ، و«التلخيصِ»: يُرسِلُهما).

---

(١) «طبقات الفقهاء الشافعية» ١/ ٢١٨.
(٢) «الفقيه والمتفقه» ٢/ ٣٩٥.
(٣) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ١١/ ٦٩٨.
(٤) «لسان العرب» ١٢/ ١٣٧.
(٥) «المِصْباح المنير» ١/ ٢٥٠.

قال ابنُ مُفلحٍ في «المُبدِع» ١/ ٤٥١: (والمنصوصُ عنه: إنْ شاء أرسَلَهما، وإنْ شاء وضَع يمينَه على شمالِه). اهـ.

فأخذ التلميذُ من قولِ ابنِ مفلحٍ: (وفي المذهبِ)، أنَّ مذهبَ الحنابلةِ هو إرسالُ اليدينِ بعدَ الرفعِ من الركوعِ!! معَ أنَّ السِّياقَ لا يساعدُه على هذا الفهمِ كما سيأتي، ثُمَّ لو رجَع إلى «الإنصاف» للمَرْداويِّ = لوجَد مِثلَ الذي في «المُبدِعِ».

ففي «الإنصافِ» ٢/ ٦٣: (قال الإمامُ أحمدُ: إذا رفَع رأسَه من الركوعِ؛ إن شاء أرسَل يدَيْه، وإن شاء وضَع يمينَه على شمالِه.

وقال في «الرِّعايةِ»: فإذا قام أحدُهما أو المأمومُ؛ حَطَّهما، وقال: ربَّنا ولكَ الحمدُ. ووضَع كلُّ مُصَلٍّ يمينَه على شمالِه تحتَ سُرَّتِه -وقيل: بل فوقَها تحتَ صدرِه-، أو أرسَلَهما. نَصَّ عليه كما سبَق.

وعنه: إذا قام؛ رفَعَهما، ثُمَّ حَطَّهما فقطْ.

وقال في «المُذهَبِ»، و «الإفاداتِ»، و «التلخيصِ»، وغيرِهم: إذا انتصَب قائمًا؛ أرسَل يديه).

فالظاهرُ أنَّ قولَهم: (والمنصوصُ عنه)؛ أي عن الإمامِ أحمدَ: هو التخييرُ.

أمَّا قولُهم: في «المُذهَبِ»، و «التلخيصِ»، و «الإفاداتِ»؛ فهي أسماءُ مُصنَّفاتٍ لمُحقِّقي المذهبِ. ويتحقَّقُ هذا بالاطِّلاعِ على مُقدِّمةِ «الإنصافِ» للمَرداويِّ؛ للتعرُّفِ على أسماءِ مُصنَّفاتِ علماءِ المذهبِ التي يُحيلون إليها.

فلو طبَّقْنا هذا على كلامِ ابنِ مفلحٍ؛ لوجَدْنا تقصيرَ الشيخِ في توجيهِ التلميذِ، ممَّا تسبَّب في خطأِ الطالبِ!

فقولُ ابنِ مفلحٍ: (وفي المذهبِ)، لا يعني به مذهبَ الحنابلةِ؛ لأنَّه أتبَعه بـ

«التلخيص»، وكذا كلامُ المرداويِّ.

فإذا سلَّمنا بأنَّه أراد بقولِه: (وفي المذهب): أي مذهبِ الحنابلةِ؛ فما هو مرادُه بالتلخيصِ، والإفاداتِ؟! ولماذا ترَكَ التلميذُ «التلخيصَ»؟!!

ثُمَّ إنَّ الذي يعرفُه الحنابلةُ في مذهبِهم أنَّ ثَمَّ كتبًا للحنابلةِ منها: «المُذْهَبُ»، و «التلخيصُ»، و«الإفادةُ»؛ فقد قال المرداويُّ في مقدمةِ «الإنصاف» ١/ ١٣: (فإنِّي نقَلتُ فيه من كتبٍ كثيرةٍ من كتبِ الأصحابِ، من المُختصَراتِ والمُطوَّلاتِ، من المتونِ والشروحِ). ثُمَّ أخذ في سردِها، ومن جملتِها: «المُذْهَبُ»؛ فقال في «الإنصاف» ١/ ١٤: (و «المُذْهَبُ»، و «مسبوكُ الذَّهبِ في تصحيحِ المُذهَبِ» لابنِ الجوزيِّ). وقال في «تصحيحِ الفروعِ» ٢/ ٤٤٧: (وابنُ الجوزيِّ في «المُذْهَبِ»).

فتبيَّن أنَّ «المُذْهَبَ» كتابٌ لابنِ الجوزيِّ، وهو المعنيُّ في كلامِ ابنِ مفلحٍ هنا، كما هو ظاهرٌ. كما أن «التلخيصَ» كتابٌ للشيخِ فخرِ الدِّينِ ابنِ تيميَّةَ، كما قال المرداويُّ في «الإنصافِ» ١/ ١٤.

وقال أيضًا ١/ ١٦: (وكذلك: «الإفاداتُ بأحكامِ العباداتِ» لابنِ حَمْدانَ، فإنَّه قال فيها: (أذكرُ هنا غالبًا صحيحَ المذهبِ ومشهورَه، وصريحَه ومشكورَه، والمعمولَ عندَنا عليه، والمرجوعَ غالبًا إليه).

وهذا كافٍ في إثباتِ ما نحن بصددِه.

فالذي يُقلِّلُ من أهميةِ التدرُّجِ في تحصيلِ العلمِ، سوف يقعُ -لا محالةَ- في تحصيلِ العلمِ عن طريقِ القفزِ إلى رأسِ القمةِ بخطوةٍ واحدةٍ! وهذا لا يفيدُ؛ لأنَّ الذي يقفزُ بسرعةٍ دونَ تقديرٍ للمسافاتِ، أو قدراتِه = يَهوِي بسرعةٍ!!

كما أؤكِّدُ على ضرورةِ تمرينِ الطالبِ على المناظرةِ والمباحثةِ، في مرحلةٍ مناسبةٍ يراها شيخُه؛ لأنها من أكبرِ الوسائلِ لإدراكِ العلمِ وثبوتِه وتنوُّعِه، ليصيرَ

للطالبِ مَلكةٌ تامةٌ يُحسِـنُ معَها الاسـتدلالَ والمناظرةَ والنظرَ دونَ خوفٍ عليه من التطاولِ على العلماءِ، والإغراقِ في النقدِ والاعتراضِ. واللهُ أعلمُ.

ومـا دندنتُ حولَه سـتجدُه مبثوثًا -وأكثـرَ منه- في هذا الكتابِ الموسـومِ بـ«مدارج التعلُّم بين التأصيل واسـتكمال التكوين»، معَ حُسـنِ العبـارةِ، وتقريبِها، وجمعِ المُتفرِّقِ، من مُؤلِّفِه الشـيخِ: السـعيدِ صُبْحي -حفظه اللـهُ- الذي أودَعَ فيه تجربتَه المسموعةَ والمُشاهَدةَ والمقروءةَ خلالَ رحلةِ طلبِه للعلمِ.

فقـد كان -كما جاء في غيرِ حديثٍ معَه- يراقبُ العوائقَ والعقباتِ التي تواجهُ طلبـةَ العلمِ، ويُدوِّنُها ليجتنبَها، ويبحثُ لها عن حلـولٍ؛ ليفيدَ بذلك إخوانَه وأقرانَه. ولم يكنْ غرضُه في ذلك نقدَ مشايخِه والمُتصدِّرين للتعليمِ، بل الوصولَ إلى ما قرَّره أهلُ العلمِ في بيانِ التأصيلِ العلميِّ في التلقِّي.

وفي الجملةِ، أحسَـبُ ما كتبتُه يوافقُ الشيخَ السـعيدَ -حفظه اللهُ- فيما كتبَه في هذا الكتابِ، كنَواةٍ وقواعدَ وأصولٍ يسـتفيدُ منها طالبُ العلمِ في مشوارِه العلميِّ -بفضـلِ اللهِ تعالى. فمَن يقعْ على هذا الكتابِ؛ فـلا يَحرِمْ مُؤلِّفَه نُصحَه، فهكذا تَتمُّ الفائدةُ. واللهُ وليُّ التوفيقِ.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه، وصحبِه، وسلَّم.

وكتبَه الراجي عفوَ ربِّه

أبو عمرَ ساعدُ بنُ عمرَ غازي

نزيلُ الرِّياضِ

في ٢٢ شعبان ١٤٣٧هـ

المُوافِقِ ١٥ مايو ٢٠١٦م

تقريظ فضيلةِ الشيخِ الدكتورِ
وَلِيدُ بْنُ إِدْرِيسَ المَنِيسِيُّ حفظه الله

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ.

وبعدُ؛ فقد اطَّلعتُ على كتابِ «مدارج التعلُّم بين التأصيل واستكمال التكوين»، مِن تأليفِ صاحبِ الفضيلةِ الشيخِ: السعيدِ صُبْحي العيسويِّ -حفظه اللهُ تعالى-، فوجَدتُ الكتابَ كتابًا قيِّمًا نافعًا، قد بذل فيه مُؤلِّفُه جهدًا مشكورًا.

ومُؤلِّفُه مِن أهلِ العلمِ والفضلِ، وله جهودٌ مشكورةٌ في الدعوةِ، والتعليمِ، وتأليفِ الكتبِ النافعةِ.

وقد وجَدتُ أنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ للاطِّلاعِ على هذا الكتابِ القيِّمِ؛ لتصحيحِ مسارِ كثيرٍ من المشاركين في التعليمِ الشرعيِّ بغيرِ منهجيةٍ واضحةٍ، وتسلسلٍ مُتدرِّجٍ يترقَّى بالطلابِ درجةً درجةً.

فنسألُ اللهَ تعالى أن يكتبَ لهذا الكتابِ القَبولَ، وينفعَ به المُعلِّمين والمُتعلِّمين. وباللهِ تعالى التوفيقُ.

وكتب

وَلِيدُ بْنُ إِدْرِيسَ المَنِيسِيُّ

١٦ رجب ١٤٣٧هـ

مكَّة المُكرَّمة

تقديم بقلم

الشيخ سيِّد بن رجب حفظه الله

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على أشـرفِ خلق الله محمدِ بن عبد الله، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

لـمَّا كان تحصيلُ العلم أشرفَ غايةٍ يسعى لها العبدُ في دنياه، وهي سبيلُه إلى رضوان الله وجنَّاته؛ لقوله ﷺ: «مَن سلكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بهِ طريقًا إلى الجنة»، كان لزامًا لهذا السبيل من علاماتٍ ودلالاتٍ، تدلُّ عليه وترشدُ إليه، حتى لا يتزلَّقَ ولا ينحرفَ السـائرون عليه، فانبرى أهلُ العلـم والفضلِ لوضع العلاماتِ والأماراتِ الـمُبيِّنَةِ له، والدالَّةِ عليه.

ومن هذه المنارات، ما قام به أخي الحبيب وصاحبي النجيب السَّعيد العِيسوي - حفظه الله ونفع به- في كتابه «مدارج التَّعلُّم بين التأصيل واستكمال التكوين».

فكان -بحقٍّ- نافعًا، ومُرشـدًا لكلِّ طالبِ علمٍ مبتدئ وغير مبتدئ؛ لسـلوكِ السبيلِ الواضحةِ للحصول على المقصود.

فأسألُ الله تعالى أن يضع له القَبول بين المسلمين، وينفع به الإسلام والمسلمين.

وكتبه

سيِّد بن رجب

١٢-المحرم- ١٤٣٨هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة





مدارج التعلم

بين التأصيل واستكمال التكوين

هذا الكتاب

كتاب يعالج إشكالية بدايات التعلم على مستوى تقعيد الأوليات والخطة الترتيبية للطالب؛ فقد أودع فيه المؤلف تجربته المسموعة والمشاهدة والمقروءة خلال رحلة طلبه للعلم؛ ليلم شعث الأصول والقواعد التي تسهم في تأصيل الطلب وتكوين طالب العلم؛ حيث أتى على معظمها من خلال مراقبته للعوائق والعقبات التي تواجه طلبة العلم باحثًا لها عن حلول من أجل الوصول إلى ما قرره أهل العلم في بيان التأصيل العلمي في التلقي.

فالكتاب - بحق - يقدم إفادةً تصحيحية، وعلاجًا لبعض إشكاليات الطلب، مثل موضوع: اكتفاء الطالب بالمرحلة التأصيلية دون استكمال التكوين، أو بهما دون نقلة العالمية، (البحث العلمي).

وكذلك موضوع التدرج التحصيلي وما شابه من فكرٍ خاطئ؛ كإلباس العجز ثوب الحكمة والأناة، وكذلك قضية صناعة الذهنية العلمية للطالب وبعض تطبيقاتها على الطالب، ومحاولة معالجة أمر المهارات الذهنية الواجب اكتسابها وسبل تنميتها.




ردمك: ٧-١٥-٨١٨١-٦٠٣-٩٧٨
ISBN 978-603-8181-15-7

هاتف: 4627336 11 996+
فاكس: 4612163 11 996+
موقعنا على الإنترنت: www.daralmaiman.com
البريد الإلكتروني: info@daralmaiman.com
تابعوا جديدنا على DarAlMaiman

